روايات عالمية روايات عالمية روايات عالمية روايات عالمية

أرنست همنغواي

عبر النهر ونحو الأشجار...

21.7.2017

نقلها إلى العربية منير بعلبكي

أرنست همنغواي

عبر النهر ونحو الأشجار...

نقلها إلى العربية

مُنير البَعلبكي

دار العلم للملايين

أرنست همنغواي

عبر النهر ونحو الأشجار...

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية مِتكو، الطابق الثاني
هاتف : ٣٠٦٦٦٦ ـ ٧٠١٦٥٥ ـ ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس : ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت ـ لبنان
www.malayin.com

جميع الحقوق محفوظة

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل ـ سواء التصويرية أو الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها ـ دون إذن خطي من الناشر.

لقد تمت إعادة تصحيح وتنضيد هذه النسخة لتصدر في هذه الطبعة الانيقة كطبعة تذكارية لذكرى الاستاذ الكبير منير البعلبكي

[1]

لقد انطلقا قبل ساعتين من انبلاج الفجر، وفي بادئ الأمر لم يكن من الضروري أن يُكسر الجليد عبر القنال، باعتبار أن زوارق أخرى كانت قد تقدمتهما. وفي كل زورق كان السواريّ[1] واقفاً، وسط الظلام، عند مؤخر المركب وفي يده مجذافه الطويل، فليس في ميسورك أن تراه: كان في وسعك أن تسمعه ليس غير. أما القنّاص فجلس على كرسيّ قنصٍ خفيض مثبّت فوق صندوق اشتمل على طعامه وخراطيشه، وكانت بندقيتا القنّاص، أو بنادقه مُسندةً، إلى حِمل الطيور الخشبية الخادعة. وفي مكان ما من كل زورق كان عِدْلٌ يشتمل على بطة برية حيّة أو بطتين بريتين حيتين، أو على بطة انثى وبطة ذكر. وفي كل زورق كان كلب يتنقل ويرتعد في قلق كلما سمع تصفيق أجنحة البط الذي كان يمرّ فوق رؤوس القوم في الظلمة.

كانت أربعة زوارق قد صعدت في القنال الرئيسية نحو اللاغون[2] الكبير الذي في الشمال. وكان زورق خامس قد انعطف قبيل ذلك نحو قنالٍ جانبية. واستدار الزورق السادس، الآن، إلى لاغونٍ ضحل، ولم يكن ثمة جليد متكسّر.

---

(1) نسبة إلى سارية السفينة.

(2) اللاغون، Lagoon: المستنقع أو البحيرة الضحلة وخاصة ما اتصل منها بالبحر أو بالنهر أو كان قريباً منهما.

كان كل شيء جليداً. . . جليداً تجمّد منذ قريب، خلال زمهرير الليل المفاجئ دونما رياح. كان مطاطياً، وكان ينحني مع طعنات مجذاف المراكبيّ. ثم إنه كان من دأبه أن ينكسر بمثل حدة انكسار لوح من زجاج، ولكن الزورق لم يحرز غير تقدم ضئيل.

ـ «أعطني مجذافاً!» كذلك قال القناص الذي في الزورق السادس. انتصب واقفاً وثبّت قدميه موازناً نفسه في حذر. كان في ميسوره أن يسمع البط ينطلق في الظلام، ويستشعر ترنّح الكلب القلِقَ. وإلى الشمال سمع صوت تحطيم الثلج الصادر من الزوارق الأخرى.

قال السواريّ القائم غند مؤخر المركب: «احترس! لا تقلب الزورق رأساً على عقب.»

فقال القناص: «أنا ملّاح، أيضاً.»

وتناول المجذاف الطويل الذي قدّمه المراكبيّ إليه وعكسَهُ بحيث يستطيع الإمساك به من نَصلِه. حتى إذا تشبَّث بالنصل، مال إلى أمام وغرز مقبض المجذاف في الجليد. لقد استشعر قعرَ اللاغون الضحل الثابت، وألقى بثقله فوق أعلى النصل العريض وأمسك به بكلتا يديه، جاذباً بادئ الأمر، ثم دافعاً بعد ذلك، حتى انكفأ سِناد السارية إلى المؤخرة، وراح يسوق الزورق قُدُماً لكي يحطم الجليد. انكسر الجليد مثل رقاقات من البلور فيما كان الزورق يشق طريقه وسطه، ويتقدم نحوه. وعند المؤخرة، دفع المراكبيّ تلك الرقاقات إلى أمام نحو الممرّ المائع.

وبعد هنيهة التفت القناص، الذي كان يبذل جهداً قاسياً موصولاً ويتصبب عرقاً في ثيابه الثقيلة، إلى المراكبيّ وسأله: «أين برميل القنّاصة؟»

ـ «هناك، إلى اليسار. في وسط الخليج التالي.»

ـ «أيتعيّن علي أن اتجه نحوه الآن؟»

ـ «كما تشاء.»

ـ «ماذا تعني بقولك: كما أشاء؟ أنت تعرف المياه. هل ثمة ماء لحملنا إلى هناك؟»

ـ «المدّ منخفض. من يدري؟»

ـ «سوف ينبثق الفجر قبل أن نصل إلى هناك إن لم نسرع.»

ولم يُجب المراكبيّ بشيء.

ـ «حسناً، أيها الرجل التافه الفظّ»، كذلك قال القنّاص في ذات نفسه. «إننا في سبيلنا إلى هناك. لقد قطعنا ثلثي الطريق الآن، وإذا كنت قلق البال حول اضطرارك إلى العمل لكي تحطم الجليد لتعثر على الطيور، فذلك مؤسف إلى حد بعيد.»

وقال بالإنكليزية: «انتقم لنفسك من هذا الوضع، أيها الرجل التافه!»

فسأله المراكبي بالإيطالية: «ماذا؟»

ـ «لقد قلت فلنمضِ. سوف تبزغ الشمس عما قريب.»

انبلج الصباح قبل أن يبلغا البرميل الكبير ذا الأضلاع السنديانية الغارق في قعر اللاغون. كان مطوقاً بحاشية منحدرة من الأرض يكسوها العشب ونبات الحَلْفاء، فصعد القناص نحوها متأرجحاً في حذر، مستشعراً أن الأعشاب المتجمدة كانت تتكسّر تحت قدميه. ورفع المراكبيّ كرسي القنص الخفيض المشدود إلى صندوق الخراطيش من الزورق وقدمهما إلى القنَّاص، الذي انحنى إلى أمام ووضعهما في قعر البرميل الكبير.

تسلق القناص البرميل ودخل فيه، وكان يرتدي حذاءه الطويل الساق المرتفع حتى الوركين وسترة عسكرية قديمة على كتفها الأيسر كتافة لم يفهمها أحد، مع آثار خفيفة حيث كانت من قبل نجوم ثم نُزِعت. ناوله المراكبيّ بندقيتيه.

أسند القنّاص البندقيتين إلى جدار البرميل، وعلّق كيس خراطيشه الآخر بينهما، مدلّياً إياه على كُلاّبتين مُثبّتتين في جدار البرميل الغائر. ثم إنه أمال البندقيتين إلى جانبي كيس الخراطيش.

سأل: «ألديك ماء؟»

فقال المراكبيّ: «لا ماء.»

ـ «هل نستطيع أن نشرب ماء اللاغون؟»

ـ «لا. إنه غير صحي.»

كان القنّاص ظمآن من أثر التعب الذي أورثه إياه تحطيم الجليد وقيادة الزورق. وأحسّ بالغضب يتملكه، ولكنه كبح جماحه وقال:

ـ «هل أستطيع أن أساعدك في الزورق على تحطيم الجليد لإطلاق الطيور الخشبية الخادعة؟»

فقال المراكبيّ: «لا»، ودفع الزورق في وحشية مخرجاً إياه إلى طبقة الجليد الرقيقة التي انفلعت وانشقت فيما كان الزورق يخترقها. وشرع المراكبيّ يهشم الجليد بنصل مجذافه، ثم راح يلقي بالطيور الخشبية الخادعة خلفه وإلى جانبه.

إن مزاجه اليوم رائق... كذلك قال القنّاص في ذات نفسه. وهو بهيمة كبيرة، أيضاً. لقد عملتُ أنا مثل فرس حتى انتهيت إلى هنا. أما هو فاكتفى بدفع ثِقله ولم يزد. ما الذي يغيظه، بحق الشيطان؟ إن هذه هي مهنته، أليست هي مهنته؟

وسوّى كرسي القنص الخفيض بحيث ينعم بأقصى القدرة على التمايل ذات اليمين وذات الشمال، وفتح صندوق خراطيش، وملأ جيوبه، وفتح صندوق خراطيش آخر في كيس الخراطيش بحيث يستطيع أن يتناوله في يُسْر. وقبالتَهُ، حيث انبسط اللاغون المتلألئ تحت أشعة الفجر الأولى، كان الزورق الأسود وكان المراكبيّ الفارع الطول الضخم الجثة يهشم الجليد بمجذافه ويلقي بالطيور الخشبية الخادعة إلى عرض الماء وكأنه يتخلص من شيء قذر.

كانت خيوط الفجر قد غدت الآن أكثر إشراقاً، ولقد أصبح في ميسور القنّاص أن يرى الحدود الخفيضة للنقطة القريبة عبر اللاغون. وكان يعلم أن وراء تلك النقطة مركزَي قنص آخرين، وأبعد إلى الوراء كانت مستنقعات إضافية، يليها البحر الطلق. شحن بندقيته، وتحرّى موقع الزورق الذي كان يقذف بالطيور الخشبية الخادعة.

ومن خلفِه، سمع همس أجنحةٍ وافدة، فجثم، وتناول بندقيته بيده اليمنى رافعاً بصره من تحت حافة البرميل، ثم نهض ليطلق النار على البطتين اللتين كانتا تُسِفان، وقد كُبِحت أجنحتها، هابطتين على نحو داكن في السماء الرمادية المعتمة، منحرفتين نحو الطيور الخشبية الخادعة.

خفض رأسه، وحَرَفَ البندقية في منحنى طويل إلى ما وراء البطة الثانية بكثير. ثم إنه رفع البندقية في رفق، من غير أن يتحقق من نتيجة طلقَتِهِ ـ رفعها عالياً إلى يسار البطة الأخرى التي كانت تحلق إلى اليسار؛ وفيما كان يطلق النار رآها تطوي جناحيها وهي آخذة في الطيران وتسقط بين الطيور الخشبية الخادعة فوق الجليد المهشم. والتفت إلى اليمين فرأى البطة الأولى رقعة سوداء على الجليد نفسه. لقد عرف أنه أطلق النار في عناية على البطة الأولى بعيداً إلى يمين الزورق، وعلى البطة الثانية عالياً جداً وإلى اليسار، تاركاً البطة تحلق منحرفة إلى اليسار لكي يتيقّن من أن الزورق كان بعيداً عن خط النار. كانت إصابة مزدوجة رائعة، حققها كما ينبغي له أن يحققها على وجه الضبط، مع المراعاة والاحترام التّامّين لموقع الزورق. استشعر ارتياحاً بالغاً فيما كان يعيد شحن البندقية.

قال الرجل الذي في الزورق بصوت عالٍ: «إسمع! لا تطلق النار في اتجاه الزورق!»

سوف أكون ابن عاهرة فاشلاً، كذلك قال القنّاص في ذات نفسه. سوف أكون كذلك من غير ريب.

وقال بصوت عال مخاطباً الرجل الذي في الزورق: «ألقِ طيورك الخشبية الخادعة في الماء. ولكن ألقِها بسرعة. أنا لن أطلق النار حتى تلقيها كلها، إلاّ فوق الرأس مباشرة.»

ولم يقل الرجل الذي في الزورق أيّ شيء يمكن أن يُسمع.

أنا لا أستطيع أن اتصور هذا، كذلك قال القنّاص في ذات نفسه. إنه يعرف اللعبة. ويعرف أني قسمتُ العمل، وأكثر، عند انطلاقنا. وأنا لم أطلق النار في حياتي على أي بطة اطلاقاً أسلمَ وأحفل بالعناية والاحتراس مما فعلت اليوم. فما باله؟ لقد أبديت استعدادي لمعاونته في تحطيم الجليد وإلقاء الطيور الخشبية الخادعة إلى الماء فليذهب إلى الجحيم!»

وهناك، إلى ناحية اليمين الآن، كان المراكبيّ لا يزال يهشم الجليد مغضباً، ويلقي بالطيور الخشبية الخادعة بروح ترشح ببغضاء تجلّت في كل حركة من حركاته.

لا تدعه يُفسد عليك يومك، كذلك قال القنّاص مخاطباً نفسه. فلن يكون قنص كثير بحكم هذا الجليد، اللهم إلاّ إذا أذابته الشمس في ما بعد. ولعلك لن تفوز بعدُ بغير طرائد معدودات، فلا تدعه يفسد عليك قنصك. إنك لا تدري كم مرة سوف يقدّر لك أن تصطاد البط منذ اليوم، فلا تدع أيّ شيء يفسد ذلك عليك.

وراقب السماء وهي تَبرُق وراء تخوم المستنقع الطويلة، ثم استدار في البرميل الغائر وسرّح بصره عبر اللاغون المتجمد وعبر الأرض السبخة، فرأى الجبال المكللة بالثلوج على مسافة قصيّة، وإذ كان في وضع خفيض فإن بصره لم يقع على أي سفح من سفوح الهضاب، ونهضت الجبال على نحو مفاجئ من سطح السهل. وفيما هو يرنو إلى الجبال، كان في ميسوره أن يستشعر نسيماً يداعب وجهه، فعرف آنذاك أن الريح سوف تُقبل من هناك، ناشطةً مع بزوغ

الشمس، وأن بعض الطيور لا بدَّ أن تفِدَ من ناحية البحر عندما تزعجها الريح.

وكان المراكبيّ قد فرغ من اطّراح الطيور الخشبية الخادعة، وكانت تشكل عنقودين اثنين، أحدهما قدام القناص وإلى يساره نحو الموضع الذي ستشرق منه الشمس، والآخر إلى يمينه. عندئذ دلَّى انثى البط البري مع وترها ومرساتها، فلم يكن من بطة القنص إلاّ أن نثرت رأسها تحت الماء، ثم رفعت رأسها وغطَّسته، ونضحت ظهرها بالماء.

وصاح القنّاص مخاطباً المراكبيّ: «ألاّ تعتقد أن من المستحسن أن نكسر مقداراً إضافياً من الجليد حول الحافات؟ ليس ثمة ماء كاف لاجتذابها.»

ولم يقل المراكبيّ شيئاً، ولكنه شرع يهشم أطراف الجليد المنثلمة بمجذافه. وكان تهشيم الجليد هذا غير ضروري، ولقد عرف المراكبيّ ذلك. لكن القنّاص لم يعرفه وقال في ذات نفسه: أنا لا أفهم هذا الرجل، ولكن عليّ أن لا أدعه يفسد عليّ هذه الفرصة. إن من واجبي أن اصونها من العبث، وأن لا أدعه يُقدم على ذلك. فكل عيار ناري أطلقه الآن قد يكون آخر عيار مقدَّرٍ لي أن أطلقه، وليس يجوز أن يُسمح لأي ابن عاهرة أن يفسد عليّ فرصتي هذه. ثم خاطب نفسه قائلاً: «اكبح جماح غضبك، أيها الغلام!»

[2]

لكنه لم يكن غلاماً. لقد كان في الخمسين من عمره، وكولونيل مشاة في جيش الولايات المتحدة. ولكي يجتاز فحصاً طبياً كان عليه أن يخضع له في اليوم الذي سبق ذهابه إلى البندقية (فينيسيا) لقنص البط، عمد إلى ازدراد مقدار كاف من المنيتول هيكسانيترايت ابتغاء. . . ـ حسناً أنه لم يكن يعرف لماذا على وجه الضبط ـ ابتغاء النجاح، كذلك قال في ذات نفسه.

وكان الطبيب كثير الشكوك. ولكنه دوَّن نتيجة فحص القلب على الجهاز المسجل لخفَقَاتِهِ، بعد أن أجراه مرتين اثنتين.

وقال: «أتدري، يا «دك». إن التسجيل لا يشير إلى أية علة في القلب. إنه على العكس ينفي وجود العلة بما ينطق به من ارتفاع في الضغط الناشب في البصر والضغط الناشب في طاسة الرأس.»

ـ «لست أفهم هذا الذي تتحدث عنه،» كذلك قال القنّاص الذي لم يكن قنّاصاً، آنذاك، إلاّ باعتبار ما سيكون، والذي كان كولونيل مشاة في الجيش الأميركي، أُنزل من رتبته كجنرال.

قال له الطبيب: «لقد عرفتك منذ عهد بعيد، أيها الكولونيل. أو لعل معرفتي إياك تبدو وكأنها ترقى إلى عهد بعيد.»

فقال الكولونيل: «أجل إنها ترقى إلى عهد بعيد.»

أضاف الطبيب: «نحن نبدو مثل ناظمي الأغاني. ولكن حذار أن تدع نفسك تتأثر بأي شيء، أو أن تدع أيما شرارة تصيبك، حين

تذكي نشاطك اذكاء شديداً بالنيترو غليسيرين.[1] فلا بدَّ أن يجعلك ذلك تجرّ سلسلة حديدية مثل شاحنة تسير ببنزين مغالى في تكريره.»

فسأله الكولونيل: «ألم تكن نتيجة تخطيط قلبي حسنة؟»

ـ «لقد كانت نتيجة التخطيط رائعة، أيها الكولونيل. وفي استطاعتي أن أقول إنها تشبه نتيجة تخطيط القلب عند رجل في الخامسة والعشرين بل تشبه نتيجة تخطيط قلب غلام في التاسعة عشرة.»

والواقع أن ذلك المقدار من المنيتول هيكسانيترايت كانت تُشعره في بعض الأحيان بشيء من الغثيان، ولقد كان حريصاً على إنهاء تلك المقابلة. وكان تواقاً أيضاً إلى أن يضطجع ويأخذ حبة سيكونال.[2] فقال في ذات نفسه: إن عليّ أن أؤلف كتابي الموجز عن فن الحركات الحربية الثانوية الخاصة بفصيلة المصابين بضغط الدم العالي. ليتني أستطيع أن أخبره بذلك! لماذا لا أُسلِمُ نفسي، بكل بساطة، إلى رحمة القضاء؟ ولكن المرء لا يفعل ذلك أبداً ـ هكذا حدّث نفسه. المرء يزعم دائماً أنه غير مذنب.

سأله الطبيب: «كم مرةً أُصبتَ في رأسك؟»

فأجابه الكولونيل: «أنت تعلم أنها المرة الحادية بعد المئتين.»

ـ «كم مرة ضُربت على رأسك؟»

فقال الكولونيل عندئذ: «هل تسألني ذلك لمصلحة الجيش أم بوصفك طبيبي؟»

ـ «بوصفي طبيبك. أنت لم تعتقد أني سأعمد إلى «تدوير» ساعتك أو تعبئتها، أليس كذلك؟»

ـ «لا، يا ويس. متأسف. ولكن قل لي ما الذي أردت أن تعرفه على وجه الضبط؟»

---

(1) سائل زيتي ثقيل شديد الانفجار يستعمل في صنع الديناميت. (المعرب)
(2) السيكونال عقار منوّم. (المعرب)

ـ «الارتجاجات.»

ـ «الارتجاجات الحقيقية؟»

ـ «جميع المرات التي أحسست فيها بالبرد ثم لم تعد تتذكر شيئاً بعد ذلك.»

فقال الكولونيل: «لعلها عشرة ارتجاجات. بما في ذلك البولو. زد ثلاثة ارتجاجات أو انقُصْ ثلاثة.»

فقال الطبيب: «يا لك من ابن عاهرة بائس عتيق!» ثم أضاف «يا سيدي الكولونيل.»

فسأله الكولونيل: «هل أستطيع أن أنصرف الآن؟»

فقال الطبيب: «نعم، يا سيدي. أنت في صحة جيدة.»

فقال الكولونيل: «شكراً. هل ترغب في الاشتراك في صيد البط في المستنقعات التي عند مصب نهر تاغليبيا منتو؟ قنص رائع. إن بعض الفتيان الإيطاليين الممتازين الذين لقيتهم في كورتينا يملكونها.»

ـ «أهو المكان الذي يصيدون فيه دجاجات الماء؟»

ـ «لا، إنهم يصيدون بطاً حقيقياً في ذلك المكان. فتيان صالحون. قنص صالح. بطّ حقيقي. بط بري، بُلبول،[1] بط أصلع. بعض الأوزّ. كمثل تلك التي عرفناها في الوطن حين كنا صغيرين.»

ـ «لقد كنتُ صغيراً في التاسعة والعشرين وفي الثلاثين.»

ـ «هذا أول شيء حقير سمعتك تقوله طول حياتي.»

ـ «أنا لم أعنِ شيئاً من ذلك. كل ما عنيته هو أني لم أتذكر متى كان قنص البط حسناً. ثم إنني غلام من أبناء المدن.»

ـ «وتلك هي علّتك اللعينة التي لا علة لك غيرها أيضاً. أنا لم أرَ في حياتي غلاماً من أبناء المدن يساوي فلساً واحداً.»

(1) البلبول: نوع من البط.

ـ «أنت لا تعني ما تقول، أليس كذلك أيها الكولونيل؟»

ـ «طبعاً لا. وأنت تعرف جيداً أني لا أعني ذلك.»

فقال الطبيب: «أنت في صحة جيدة، أيها الكولونيل. أنا آسف لعدم تمكني من الذهاب للصيد. بل إنني أجهل حتى إطلاق النار.»

فقال الكولونيل: «يا للجحيم. هذا لا يقدّم ولا يؤخر. الواقع أن سائر أفراد هذا الجيش ليشاركونك جهلك ذاك. إني أريد أن أصحبك معي.»

ـ «سوف أعطيك شيئاً آخر لدعم العقاقير التي تستعملها..»

ـ «وهل ثمة شيء من ذلك؟»

ـ «ليس بمعنى حقيقي. ومع هذا، فالعلماء منكبّون على إعداده.»

فقال الكولونيل: «دعهم ينكبّون.»

ـ «أحسب أن هذا مسلك مشكور، يا سيدي.»

فقال الكولونيل: «اذهب إلى الجحيم! أواثق أنت من أنك لا تريد الذهاب للقنص؟»

فأجابه الطبيب: «إن بطّي لفي «لونشان» بشارع ماديسون. إنه مكيف الهواء في الصيف، دافئ في الشتاء، وليس يتعين علي هناك أن أنهض من فراشي قبل أول خيط من خيوط الفجر، وأن ارتدي ملابس تحتيّة صوفية.»

ـ «حسن جداً، أيها الغلام المدينيّ. أنت لن تنفذ إلى كنه الأشياء، أبد الدهر.»

فقال الطبيب: «أنا لم أرغب في مثل هذا النفاذ قط. أنت في صحة جيدة، أيها الكولونيل.»

ـ «شكراً،» كذلك قال الكولونيل، وغادر الحجرة.

[3]

كان ذلك أمسِ الأول، أما أمس فكان قد امتطى متن السيارة من تريستا إلى البندقية على طول الطريق القديمة التي امتدت من مونتفالكون إلى لاتيسانا وعَبْرَ الريف المسطّح. كان لديه سائق بارع، وكان قد استرخى استرخاء كاملاً في مقعد السيارة الأمامي، وراح يسرّح طرفه في ذلك الريف الذي عرفه منذ صباه الأول.

إنه يبدو الآن مختلفاً جداً، كذلك قال في ذات نفسه. وأحسب أن مردّ ذلك إلى أن المسافات قد تغيَّرت كلها. إن كل شيء يصبح أصغر بكثير عندما تتقدم بك السن. وإلى هذا، فالطرق هي الآن أفضل من ذي قبل، وليس ثمة غبار. أنا لم اجتزها في ما مضى إلاّ على متن شاحنة من الشاحنات. أما في سائر الأحوال الأخرى فكان من دأبنا أن نسلكها مشياً على الأقدام. وأحسب أن ما بحثتُ عنه آنذاك كان رُقَع الظل عندما نكصنا على أعقابنا، والآبار في أفنية المزارع. والخنادق، أيضاً. لقد بحثت من غير ريب عن كثير من الخنادق.

انعطفا، وعَبَرا إلى «تاغلييامنتو» فوق جسر مؤقت. كانت الضفتان خضراوين، وكان الناس يصطادون السمك على الشاطئ البعيد حيث يعمق النهر. وكان الجسر المنسوف يُصلَح بدمدمة مطارق مسمّرة. وعلى مبعدة ثمانمئة ياردة بدت المباني والمباني الملحقة التي

دمرتها الحرب والتي كانت الآن مجرد بيت ريفيّ خرب بناه «لونجينا» في يوم من الأيام. . أقول بدت حيث كانت وسائل التدمير قد أفرغت أحمالها.

قال السائق: «أنظر إليها. في هذا البيت تجد جسراً أو محطة للسكة الحديدية. فإذا ابتعدت نصف ميل من هنا، في أي اتجاه، تجد كل شيء على هذه الشاكلة.»

فقال الكولونيل: «يخيّل إليّ أن العظة المستفادة من ذلك هي: لا تبنِ لنفسك بيتاً ريفياً أو كنيسة أو تكلف «غيبوتو»[1] بأن يرسم لك أية لوحات جدارية ـ إذا كانت لديك كنيسة ـ على مبعدة تقلّ عن ثمانمئة ياردة من أيّ جسر.»

فقال السائق: «كنت واثقاً من أنه لا بدَّ أن يكون في ذلك عظة، يا سيدي.»

كانا قد تخطيّا، الآن، الدارة المدمرة، وانطلقا في الطريقة المستقيمة وشجراتُ الصفصاف النامية على مقربة من الخنادق لا تزال داكنة بحكم فصل الشتاء، والحقول حافلةٌ بشجرات التوت. وأمامهما كان رجل يدير برجليه درّاجة، مستعملاً كلتا يديه من أجل قراءة إحدى الصحف.

فقال السائق: «إذا كان ثمة مدفعية ثقيلة فيتعين على العظة أن تقول ميلاً واحداً. أليس هذا أقرب إلى الصواب، يا سيدي؟»

فأجابه الكولونيل «وإذا كان ثمة قذائف موجَّهة يصبح من الأفضل جعل المسافة مئتين وخمسين ميلاً. من الخير أن تزمر، الآن، لراكب الدرّاجة.»

وامتثل السائق الأمر، فتحوّل الرجل إلى جانب الطريق من غير

(1) Giotto رسام ونحات فلورنسي شهير. ولد حوالى عام 1266 وتوفي عام 1377. (المعرب)

أن يرفع بصره أو يمس مقود الدراجة بيديه. وفيما هما يتجاوزانه، حاول الكولونيل أن يرى أية صحيفة كان يقرأ، ولكنها كانت مطوية.»

ـ «يخيل إليّ أن من الخير للمرء الآن أن لا يبني لنفسه بيتاً أنيقاً أو كنيسة وأن لا يكلف من ذكرت برسم اللوحات الجدارية له ـ من كان هذا الذي ذكرته؟»

ـ «لقد ذكرت غيبوتو. ولكن من الجائز أن يكون «بييرو ديلاّ فرنسيسكا»[1] أو «مانتينيا».[2] وقد يكون ميكال آنجلو.»

فسأله السائق: «هل تعرف أشياء كثيرة عن الرسامين؟»

كانا الآن قد انتهيا إلى جزء من الطريق ذي امتداد مستقيم، وكانا مسرعين بحيث اختلطت المزارع ـ على نحو مشوّش تقريباً ـ بعضها ببعض، بحيث لم يكن في إمكانك أن ترى إلاّ ما هو أمامك في المدى البعيد، وما كان مقبلاً نحوك. كانت الرؤية الجانبية مجرد تكثيف للريف الخفيض المستوي في الشتاء. أنا لست واثقاً من أنني أحب السرعة، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه. ولقد كان بروغهيل[3] سيكون في أسوأ حال لو تحتم عليه أن يرى الريف.

ـ «الرسامين؟» كذلك أجاب عن سؤال السائق. «أنا لا أعرف عنهم إلاّ النزر اليسير، يا بيرنهام»

ـ «أنا جاكسون، يا سيدي. إن بيرنهام هناك في مركز الاستراحة في كورتينا. إنه مكان رائع، يا سيدي.»

---

(1) Piero Della Francesca رسام إيطالي ولد حوالى عام 1420 وتوفي عام 1492. (المعرب)

(2) Mantegna رسام ونقاش إيطالي، ولد عام 1431 وتوفي عام 1500. (المعرب)

(3) Brueghel رسام فلاندري اشتهر بلوحاته التي تمثل جمال الريف 1525؟ ـ 1569. (المعرب)

فقال الكولونيل: «لقد بدأت أخرف. اعذرني، يا جاكسون. ذلك مكان رائع. وطعام جيد. أنت تغالي في الإسراع. إن أحداً لا يزعجك.»

فأقرّه جاكسون على ذلك قائلاً: «نعم يا سيدي» والآن، أن السبب الذي من أجله سألتك عن الرسامين هو صور السيدة العذراء. لقد اعتقدت أن عليّ أن أرى بعض اللوحات الفنية فلم يكن مني إلاّ أن ذهبت إلى ذلك المتحف الضخم في فلورنسة.»

ـ «الأوفيزي؟ البيتيّ؟»

ـ «سمِّهِ ما شئت» لقد ذهبت إلى أكبر تلك المتاحف. ولقد ظللت أنظر إلى تلك الرسوم الزيتية حتى شرعت صور السيدة العذراء تجري من أذنيّ. أقول لك، أيها الكولونيل، يا سيدي، إن الرجل غير المتمتع بثقافة فنية حسنة لا يستطيع أن يرى عدداً كبيراً من صور السيدة العذراء من غير أن تثور أعصابه. لقد فهمتَ نظريتي؟ أنت تعلم ولوع الناس بالأولاد، وإنه كلما قل الطعام المتوفر عندهم زاد عدد الأولاد الذين أنجبوهم أو الذين سوف ينجبونهم... حسناً، يخيل إليّ أن هؤلاء الرسامين كانوا في أغلب الظن محبين كباراً للأولاد، مثل جميع الإيطاليين. أنا لا أعرف أولئك الذين ذكرتهم منذ لحظة، ومن أجل ذلك لا أدخلهم ضمن نطاق نظريتي، ولسوف تصحّح لي على أية حال. ولكن يبدو لي وكأن صور السيدة العذراء هذه التي رأيت في الواقع كثيراً منها، يا سيدي... يبدو لي وكأن رسامي هذه الصور العاديين كانوا ظاهرةً ما من ظواهر مسألة حب الأولاد هذه، إن كنت فهمت ما أعنيه.»

ـ «مضافاً إلى هذه الحقيقة، أنهم قصَروا أنفسهم على الموضوعات الدينية.»

ـ «نعم، يا سيدي. وإذن، فأنت تعتقد أن في نظريتي شيئاً من الصحة؟»

ـ «من غير ريب، ولكني أحسب أنها معقّدة بعض الشيء.»

ـ «هذا طبيعي، يا سيدي. إنها مجرد نظرية تمهيدية.»

ـ «هل لديك أية نظريات أخرى في الفن، يا جاكسون؟»

ـ «لا، يا سيدي. إن نظرية الأولاد تلك هي أقصى ما فكرتُ فيه. ومع ذلك فإني أتمنى لو يرسمون بعض اللوحات الجيدة التي تمثل تلك الأرياف المرتفعة المحيطة بمركز الاستراحة في كورتينا.»

فقال الكولونيل: «لقد وُلد تيتيان[1] هناك. أو هذا ما يقولونه على الأقل. لقد هبطت ذلك الوادي وشاهدت المنزل الذي يُفترض أنه وُلد فيه.»

ـ «هل كان موطناً رائعاً؟»

ـ «ليس إلى حد بعيد.»

ـ «حسناً، لو أنه رسم بعض اللوحات التي تمثل ذلك الريف المحيط بمركز الاستراحة هناك، مع تلك الصخور المصطبغة بلون الغروب، ومع شجرات النخيل، والثلج، وجميع تلك الأبراج المستدقة..»

فقال الكولونيل: «الكامبانيلات.[2] مثل ذلك البرج الذي تراه أمامك عند سيغيا.»

ـ «حسناً، لو أنه رسم أيما لوحات جيدة فعلاً تمثل ذلك الريف إذن لحرصتُ كل الحرص على شراء بعضها منه.»

فقال الكولونيل: «لقد رسم بعض النسوة الفاتنات.»

فقال السائق: «لو كنت أملك محششة، أو نُزُلاً على الطريق، أو

---

(1) Titian رسام أيطالي عظيم، ولد حوالى عام 1477 وتوفي عام 1576.

(2) Campaniles لفظة إيطالية تعني أبراج الأجراس، وقد ابقيناها بلفظها الأجنبي لأن المؤلف عمد إلى شرحها على لسان الكولونيل كما يلاحظ القارئ. (المعرب)

خاناً من الخانات، لكان في استطاعتي أن استعمل واحدة من تلك اللوحات. أما إذا حملت إلى البيت صورة امرأة ما، فعندئذ تطردني زوجتي من راولنز إلى بافالو. ولسوف أكون سعيداً إذا وصلت إلى بافالو سالماً.»

ـ «في استطاعتك أن تقدّمها إلى المتحف المحليّ.»

ـ «كل ما عندهم في المتحف المحليّ نصال سهام، وخوذ حربية، ومُدىً تسلخ جلد اراس، وجماجم مختلفة، وسمك متحجر، وبيبات (أو غلايين) تبغ كان يستعملها الهنود الحمر، وصور فوتوغرافية لجونستون آكل الأكباد، وجلد رجل شرير كانوا قد شنقوه وكان أحد الأطباء قد سلخه عنه سلخاً. وهكذا ترى أن تعليق أيما لوحة من تلك اللوحات النسوية، في ذلك المتحف، هو من باب وضع الشيء في غير محله.»

فسأله الكولونيل: «هل ترى برج الأجراس التالي القائم هناك عبر السهل؟ سوف أريك مكاناً هناك حيث كنّا نقاتل عندما كنتُ غلاماً.»

ـ «وهل قاتلت هنا، أيضاً، يا سيدي؟»

فقال الكولونيل: «أجل.»

ـ «من كان مسيطراً على تريستا في تلك الحرب؟»

ـ «الكراوتس. النمساويين أعني.»

ـ «وهل استولينا نحن عليها في وقتٍ ما؟»

ـ «لم نستولِ عليها إلاّ عند نهاية الحرب، بعد أن انتهى كل شيء.»

ـ «ومن كان مسيطراً على فلورنسا وروما؟»

ـ «نحن.»

ـ «حسناً، يخيل إليّ أننا لم نكن في حال رديئة إلى حد لعين آنذاك.»

فقال الكولونيل في لطف: «قل سيدي.»

فسارع السائق إلى القول: «أنا آسف، يا سيدي. لقد كنت في الغرفة السادسة والثلاثين، يا سيدي.»

ـ «لقد رأيتَ الكِتافة.»

ـ «كنت أفكر في الرابيدو،[1] يا سيدي. أنا لم أرِد أن أكون وقحاً أو قليل الاحترام.»

فقال الكولونيل: «لا، أنت لم ترد ذلك. كنت تفكر في الرابيدو ليس غير. اسمع، يا جاكسون، إن كل من سلخ فترة طويلة في الجندية كان له «رابيدو» خاص به، أو أكثر من رابيدو واحد.»

ـ «لم يكن في إمكاني أن آخذ أكثر من واحد، يا سيدي.»

واخترقت السيارة مدينة سان دونا دي بيافا البهيجة. كانت عامرة وجديدة، ولكنها لم تكن أكثر قبحاً من مدن الغرب الأوسط في الولايات المتحدة، وكانت مزدهرة مبتهجة بقدر ما كانت فوسّالتا، القائمة هناك على منبع النهر، بائسة كئيبة. ألم تتعافَ فوسّالتا من داء الحرب العالمية الأولى البتة؟ أنا لم أرها قط قبل أن تدمَّر، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه. لقد قصفوها قصفاً عنيفاً قبل الهجوم الكبير في الخامس عشر من حزيران (يونيو) عام ثمانية عشر. ثم قصفناها نحن قصفاً قاسياً حقاً قبل أن نستردها. وتذكّرَ كيف بدأ الهجوم من موناستييه، واجتاح فونايس، وفي ذلك اليوم الشتوي تذكّر كيف جرت الأمور ذلك الصيف.

ومنذ بضعة أسابيع خَلتْ كان قد جال في فوسّالتا، سالكاً الطريق الغائرة بحثاً عن الموضع الذي كان قد أصيب فيه، عند ضفة النهر. ولم يكن من العسير عليه أن يجد ذلك الموضع بسبب من التواء

(1) نهر في إيطالية. (المعرب)

النهر، وفي المكان الذي كان مركز المدفعية الثقيلة قائماً فيه كانت الفجوة التي أحدثها الانفجار في الأرض مكسوة بعشب ناعم. كانت قد حصدتها بعض الخراف أو الماعز حتى بدت أشبه بوهدة اصطناعية في ميدان غولف. هنا كان النهر يجري بطيئاً، وكان أزرق موحلاً. وقد اكتنف القصب حافاته. وإذ لم تقع عين الكولونيل على أحد فقد جلس القرفصاء، وراح ينظر عبر النهر من الضفة التي لم يكن في ميسورك أن ترفع فيها رأسك في ضوء النهار، واسترخى في عَيْن ذلك الموضع الذي كان قد قرّر، من طريق تحديد المكان بالمَسْح التثليثي، أنه جُرح فيه على نحو بليغٍ لثلاثين سنة خلت.

ـ «جهد ضئيل،» كذلك قال في صوت عالٍ مخاطباً النهر وضفة النهر اللذين كانا كئيبين بسكينة الخريف، نديَّينِ بأمطاره. «ولكنه جهدي أنا.»

نهض وأجال طرفه في ما حوله. لم يكن في مدى البصر أحد، وكان قد غادر السيارة هناك في الطريق الغائرة قبالة آخر وأحزن بيت أعيد بناؤه في فوسّالتا.

ـ «الآن سوف أتمّ إقامة النُّصب التذكاري»، كذلك قال موجهاً الخطاب إلى الموتى ليس غير، وأخرج من جيبه مطواة كبيرة عتيقة من مطاوي سولنجن[1] كتلك التي يحملها سُرَّاق الصيد الألمان. وثُبِّتت شفرتها عند الفتح، فما كان من الكولونيل إلاّ أن برَمَها وحفر حفرة أنيقة في التربة المبلّلة، ونظف المطواة على فردة حذائه العسكري اليمنى ثم أقحم في الحفرة ورقة نقدية سمراء من فئة العشرة آلاف لير، ثم طمرها بالتراب ووضع العشب الذي كان قد اقتلعه فوقها.

وقال: «هذه عشرون سنة، بخمسمئة لير للسنة الواحدة، من أجل «المدالية الفضية للبسالة العسكرية» Medaglia d'Argento al Valore

(1) مدينة في غرب ألمانيا شهيرة بفولاذها.

Militaire. إن الـ «في. سي» V.C.[1] ليغلّ عشرة جنيهات، في ما أعتقد. والـ «دي. اس. سي» D.S.C[2] عقيم لا ينتج شيئاً. أما النجمة الفضية فمجانية. ولسوف احتفظ بالباقي.»

إنه رائعٌ الآن، كذلك قال في نفسه. إنه يشتمل على زبل، ومال، ودم. أنظر كيف ينمو العشب. والحديد مغروس في الأرض إلى جانب رِجل جينو، ورِجْلي راندولفو الاثنتين، وركبتي[3] اليمنى. إنه نُصبٌ رائع. نصب يتمتع بكل شيء. خصِب، ومال، ودم، وحديد. وهو يبدو لي وكأنه أمة. حيث يوجد الخصب، والمال، والدم، والحديد؛ تلك هي أرض الوطن. ومع ذلك فنحن في حاجة إلى فحم حجري. يتعين علينا أن نجيء بشيء من الفحم الحجري.

ثم إنه نظر عَبْرَ النهر إلى البيت الأبيض الذي أعيد بناؤه والذي كان في وقت مضى حجارة صغيرة، وبصق في النهر. كانت بصقة طويلة، ولقد افتعلها افتعالاً.

وقال: «لم يكن في ميسوري أن أبصق تلك الليلة وما بعدها طوال فترة غير قصيرة. ولكني أبصق الآن أحسن ما يكون البصق بالنسبة إلى رجل لا يمضغ اللُّبان.»

وقال: «استيقظ يا بنيّ. استدر بها واسلك الطريق المفضية إلى تريفيزو. لن تحتاج إلى خريطة في هذا الجزء من البلاد. سوف أرشدك إلى الاتجاه عند كل منعطف.»

---

(1) يقصد وسام «صليب فيكتوريا» Victotia Croos. (المعرب)

(2) يقصد وسام «صليب الخدمة الممتازة» Distinguished Service Cross. (المعرب)

(3) الرضفة: عظم الركبة المتحرك.

[4]

كان في سبيله إلى البندقية، محتفظاً برباطة جأشه على نحو صارم، غير مفكر في حاجته الملحة إلى أن يكون هناك. وكانت سيارة «بيوويك» الكبيرة قد اجتازت الجزء الأخير من مدينة «سان دونا»، وتقدمت نحو الجسر القائم فوق نهر «بيافا».

عَبرا الجسر، وانتهيا إلى الجانب الإيطالي من النهر، فرأى الطريق القديمة الغائرة مرّة أخرى. كانت الآن ممهدة وغير جلية، كما كانت على طول النهر. ولكنه استطاع أن يلمح المواقع القديمة. الآن وعلى كل جانب من جانبي الطريق المستقيمة المستوية المكتنَفَة، بمحاذاة القناة، والتي انطلقا فيها بسرعة بالغة، كانت تمتد شجرات صفصاف القناتين اللتين ضمّتا في وقت ما جثث القتلى. كانت قد جرت مذبحة عظيمة في ختام الهجوم، فقد صدر الأمر ـ لتحرير الطريق والمواقع القائمة على ضفة النهر، في ذلك الجو القائظ ـ بأن تلقى جثث القتلى في القناتين. ولكن أبواب القناتين كانت لا تزال، لسوء الطالع، في أيدي النمساويين، عند مصب النهر، وكانت موصدة. وهذا ما منع حركة المياه، إلاّ قليلاً، فلبثت الجثث هناك فترة طويلة، طافية منتفخةً وقد تمدّد بعضها على الظهر وبعضها على الصدر، بصرف النظر عن القومية والجنسية، حتى تضخمت تضخماً هائلاً. وأخيراً، بعد إنشاء الحكومة، رفعتها جيوش العمال من هناك،

تحت جنح الظلام، ودفنتها على مقربة من الطريق. والتمس الكولونيل مزيداً من الاخضرار غير بعيد عن الطريق ولكن بصره لم يقع على شيء من ذلك. بيد أنه كان في القناتين كثير من البط والأوزّ، وكان الناس يصطادون السمك فيها على طول الطريق.

لقد أخرجوا الجثث كلها من هناك، ودفنوها في تلك المقبرة الكبيرة المحاذية للـ «نيرفيزا».

وقال الكولونيل للسائق: «لقد حاربنا هنا يوم كنت غلاماً.»

فقال السائق: «إنه ريف شديد الاستواء إلى حد لعين يجعله غير صالح للقتال. هل استوليتم على ذلك النهر؟»

فأجابه الكولونيل: «أجل. لقد استولينا عليه، ثم خسرناه، ثم استرجعناه كرّة أخرى.»

ـ «ليس ثمة أي خطّ حديديّ هناك، على مدى ما يصل النظر.»

فقال الكولونيل: «تلك كانت هي المشكلة كان عليك أن تستعمل حدوداً حدّيّةً لم ترها، فقد كانت بالغة الصّغَر، وخنادق، وبيوتاً، وضفاف قنوات، ووشائع[1]. كان ذلك الريف أشبه شيء بنورمانديا، إلاّ أنه أشدّ منها استواءً. وأحسب أن القتال هناك كان أقرب ما يكون إلى القتال في هولندة.»

ـ «ليس من ريب في أن هذا النهر لا يشبه نهر (رابيدو) في شيء.»

فقال الكولونيل: «لقد كان نهراً آنذاك. فهناك في عاليتهِ كان غزير المياه آنذاك، قبل أن تنفّذ هذه المشاريع الكهربائية كلها. وكانت له مجارٍ كثيرة معقدة شديدة العمق بين الحصى والحصباء حيث يمسي ضحلاً.»

---

(1) الوشيع: سياج من نباتات يجعل حول الحديقة صيانة لها من الطارئين.

كان يعلم كم هو مضجرٌ أن يتحدث امرئ عن الحرب التي خاضها إلى امرئ آخر فكفّ عن الكلام عليها. إن الناس يفهمون الحرب من زاويتهم الشخصية دائماً، كذلك قال في نفسه. وإن أحداً لا يُمنى بها، على نحو تجريديّ، ما خلا الجنود، وما أقلّهم. إنك تصنعهم صنعاً، والجنود الصالحون يُقتلون في ساحة المعركة. وإلى هذا، فهم يبحثون دائماً عن شيء عنيف بحثاً يجعلهم لا ينظرون أبداً ولا يصغون أبداً. إنهم لا يفتأون يفكرون في ما سيقولونه وفي ما قد يعود عليهم به ذلك القول من تقدّم أو فائدة. لم يكن ثمة أي حكمة في إضجار هذا الغلام، الذي لم يكن ـ رغم شعار المشاة و «القلب الأرجواني»[1] والأشياء الأخرى التي يحملها ـ جندياً بأية حال، لكنه مجرد رجل أُلبس بالرغم منه بزة عسكرية، ثم اختار البقاء في الجيش لأغراضه الخاصة.

سأله الكولونيل: «ماذا كنت تعمل في الحياة المدنية، يا جاكسون؟»

ـ «كنت شريكاً لأخي في مرآب في راوالنز، بولاية ويومنغ، يا سيدي.»

ـ «وهل ستعود إلى هناك؟»

فقال السائق: «لقد قُتل أخي في المحيط الهادئ، ولم يكن الغلام الذي تولى إدارة المرآب غلاماً نافعاً. وهكذا خسرنا ما كنا قد انفقناه على تأسيسه.»

فقال الكولونيل: «هذا مؤسف.»

ـ «أنت على حق إلى حد لعين في قولك إنه مؤسف». كذلك قال السائق ثم أضاف: «سيدي».

(1) Purple Heart مُدالية أميركية تمنح لكل من جرح خلال الخدمة العسكرية. (المعرب)

ورفع الكولونيل بصره لينظر إلى الطريق.

كان يعلم أنهما إن واصلا الانطلاق في هذه الطريق فسوف يصلان، عما قريب، إلى ذلك المنعطف الذي كان ينتظر بلوغه. ولكن صبره قد نفد.

فقال للسائق: «افتح عينيك جيداً وانعطف إلى يسارك على الطريق التي تبعد بنا عن بوابة المكوس هذه.»

ـ «هل تعتقد أن هذه الطرق المنخفضة سوف تصلح لتسير عليها هذه السيارة الكبيرة، يا سيدي؟»

فقال الكولونيل: «سوف نرى. يا للجحيم، أيها الرجل، إن السماء لم تمطر هذه الأسابيع الثلاثة.»

ـ «أنا لا اطمئنّ إلى هذه الطرق الجانبية في هذا الريف الخفيض.»

ـ «إذا ما تعذر علينا السير في تلك الطرق فسوف آتي بالثيران لإخراجك منها.»

ـ «لقد كنت أفكر في السيارة ليس غير، يا سيدي.»

ـ «حسناً، فكّر في ما قلته لك، وانعطف عند أول طريق تجدها إلى يسارك إذا بدا لك أن ذلك ممكن.»

فقال السائق: «ذلك يبدو أشبه شيء بانبثاق المرء... من الوشائع.»

ـ «ليس ثمة شيء وراءك البتة. كل ما عليك أن تفعله هو أن تقود السيارة إلى ما وراء المنعطف بقليل، ولسوف أعبرُ وألقي نظرة.»

وترجّل من السيارة، ومشى عبر الطريق العريضة الصلبة السطح وألقى نظرة على الطريق الضيقة القذرة، وقد قامت إلى جانبها القناة المتدفقة، ونهض خلفها سياج نباتي كثيف. وخلف السياج رأى بيتاً خفيضاً أحمر قائماً وسط مزرعة، وعلى مقربة منه عنبر ضخم. كانت

الطريق جافة. ولم يكن فيها حتى أخاديد عربات نقل. ثم إنه انقلب عائداً إلى السيارة.

وقال: «إنها جادة مشجّرة. أَقْلِعْ عن القلق.»

ـ «أمرك، يا سيدي. إنها سيارتك، يا سيدي.»

فقال الكولونيل: «أدري. وأنا لم أفرغ بعد من دفع أقساطها. قل لي، يا جاكسون، هل تعاني دائماً هذا العنت كله كلما انتقلت من طريق رئيسية إلى طريق ثانوية؟»

ـ «لا، يا سيدي. ولكن ثمة فرقاً كبيراً بين سيارة جيب وبين سيارة منخفضة مثل هذه. هل تعرف ما هو ارتفاع هيكل هذه السيارة وترسها التفاضلي (ديفيرنسيال) عن الأرض؟»

ـ «إن عندي في صندوق السيارة مجرفة وبعض السلاسل. انتظر حتى ترى إلى أين نحن ذاهبان بعد أن نغادر البندقية.»

ـ «وهل سنجتاز الطريق كلها بهذه السيارة؟»

ـ «لست أدري. سوف أرى.»

ـ «فكر في حواجز الاصطدام التي زُوّدت بها سيارتك، يا سيدي.»

ـ «سوف نختصر هذه الحواجز، كما يفعل الهنود الحمر في اوكلاهوما. إنها الآن مثقلة بالحواجز. بل إنها مثقلة أكثر مما ينبغي بكل شيء ما خلا المحرك. إن لها محركاً رائعاً، يا جاكسون.»

ـ «إنه رائع من غير شك، يا سيدي. وإنه لمن المتعة أن يقود المرء هذا المحرك الضخم فوق الطرق الصالحة. وهذا هو السبب الذي من أجله لا أريد أن يصيبها أيّ شيء.»

ـ «هذا جدّ جميل منك، يا جاكسون. والآن كفَّ عن التألم.»

ـ «لست أتألم، يا سيدي.»

فقال الكولونيل: «حسن.»

ولم يكن هو الآخر متألماً أيضاً. لأنه رأى في تلك اللحظة، خلف خط الأشجار السمراء المتراصّة القائم أمامه، مركباً شراعياً يجري. كان مركباً شراعياً كبيراً أحمر، منحرفاً إلى أدنى انحرافاً حاداً، متهادياً في أناة خلف الأشجار.

لماذا يهز نياط قلبك، دائماً، أن ترى شراعاً يجري في الريف؟ كذلك ساءل الكولونيل نفسه. لماذا يهز نياط قلبك أن ترى الثيران الكبار، البِطاء الشاحبة؟ لا ريب في أن ذلك راجع إلى تهاديها، بقدر ما هو راجع إلى مظهرها، وحجمها ولونها.

ولكن مشهد بغل ضخم رائع، أو صفٍ من بغال النقل في حالة جيدة، خليق به أن يهز نياط قلبك أيضاً. وكذلك شأنُ القيُّوط[1]، كلما قدَّر لي أن أرى قيُّوطاً، وشأن الذئب، الذي يمشي كما لا يمشي أيّ حيوان آخر، رمادياً واثقاً من نفسه، حاملاً ذلك الرأس الثقيل ذا العينين الراشحتين بالعداوة والبغضاء.

ـ «هل قدِّر لك أن ترى أيما ذئب في راولنز، يا جاكسون؟»

ـ «لا، يا سيدي. لقد انقرضت الذئاب قبل أيامي. لقد دسُّوا لها السم في الطعام. ولكن القيُّوط عندنا كثير.»

ـ «هل تحب القيوط؟»

ـ «أنا أحب أن أسمع صوته في الليل.»

ـ «وكذلك أنا. إني أحب ذلك أكثر من أي شيء آخر، ما خلا رؤية مركب شراعي يتهادى في مياه الريف.»

ـ «هو ذا مركب يفعل ذلك، هناك، يا سيدي.»

فأجابه الكولونيل: «في قناة سايل. إنه مركب نقل شراعي ذاهب إلى البندقية. الريح تهب من ناحية الجبال الآن وهي تدفعه دفعاً حسناً. ومن المحتمل أن يشتد البرد الليلة إذا استمرت الريح في

---

(1) القيوط coyote: نوع من الذئاب الأميركية.

الهبوب، ولا بدَّ أن تجلب عدداً كبيراً من البط. انعطف إلى يسارك، هنا، ولسوف ننطلق في محاذاة القناة. إن هناك طريقاً جيدة.»

ـ «لم يكن ثمة في مسقط رأسي، صيد بط يستحق الذكر. ولكن ثمة صيداً وافراً في نبراسكا على محاذاة البلاتّا[1].»

ـ «أتريد أن تصطاد البط في المكان الذي نقصد إليه؟»

ـ «لست أعتقد ذلك، يا سيدي. أنا لست قناصاً بارعاً، وإني لأوثر البقاء في تلك السترة القصيرة الفضفاضة. إنه صباحُ يوم من أيام الأحد، كما تعلم.»

فقال الكولونيل: «أعلم. في استطاعتك أن تبقى في تلك السترة حتى الظهر، إذا شئت.»

ـ «لقد جئت بدوائي المزيل للطفح الجلدي. إن عليّ أن أنام نوماً عميقاً.»

فقال الكولونيل: «لست واثقاً من أنك ستحتاج إليه. هل جئت بشيء من جرايات الطوارئ أو من «العشرة في واحد»؟ من المحتمل أن يَطْعموا مآكل إيطاليةً، كما تعلم.»

ـ «لقد جئت ببعض المعلبات لإكمال النقص وبأشياء قليلة أخرى لتقديمها إليهم.»

فقال الكولونيل: «هذا حسن.»

كان الآن ينظر أمامه ليرى أين تلتقي طريق القناة بالطريق الرئيسية مرّة أخرى. كان واثقاً من أنه سوف يراها في يوم صاح كيومِهِ ذاك. وعبر الأراضي السبخة ـ السمراء مثل تلك الأراضي المنبسطة عند مصابّ المسيسيبي حول «بيلوت تاون» في الشتاء، وقد انحنت قصباتها تحت ريح الشمال العنيفة ـ رأى برج الكنيسة المربع في

(1) Platte نهر معروف في نبراسكا الوسطى، بالولايات المتحدة. (المعرب)

تورشيلو، وبرج أجراس بورانو السامق خلفه. كان البحر أزرق أردوازياً، وكان في ميسوره أن يرى أشرعة اثني عشر مركباً من مراكب النقل المتهادية مع الريح في اتجاه البندقية.

سوف يتعين عليَّ أن أنتظر حتى نعبر نهر «ديز» فوق «نوغيرا» لأراها أحسن رؤية، كذلك قال محدّثاً نفسه. إنه لمن الغريب أن أتذكر كيف قاتلنا بعيداً هناك على طول القناة، ذلك الشتاء، لكي ندافع عنها من غير أن نراها قط. ثم إني وجدت نفسي، ذات مرة، على أبواب نوغيرا، وكان الجو صافياً بارداً كشأنه اليوم، ورأيتها عبر الماء. ولكن لم أدخلها قط. ومع ذلك فهي مدينتي، لأني قاتلت من أجلها يوم كنت غلاماً. والآن وقد بلغت من العمر نصف قرن يعرف الناس أني قاتلت من أجلها وأني شريك لهم في ملكيتها، وهم يحسنون معاملتي.»

وسأل نفسه: «أتحسب أن هذا هو السبب الذي من أجله يحسنون معاملتك؟»

ربما، كذلك قال في ذات نفسه. لعلم يحسنون معاملتي لأني كولونيل غِرّ من رجال المعسكر المنتصر. ولكني لا أصدِّق هذا. وعلي أية حال فلست أرجو أن يكون الأمر كذلك. هذه ليست فرنسا.

هناك قاتلتَ شاقاً طريقك إلى مدينة تحبها.. مدينة تحاذر محاذرة شديدة أن تكسر فيها شيئاً، وتحاذر، فوق هذا ـ إن كنت حصيفاً راجح العقل ـ أن ترجع إليها لأنك سوف تلقى فيها بعض الرجال العسكريين الذين سينتقمون منك لأنك شققت طريقك إليها بقوة السلاح. **عاشت فرنسة وعاشت البطاطا المقلية. حرية، ارتشاء، وبلاهة!**[1] ذلك هو الصفاء Clarté العظيم الذي يتسّم به التفكير

---

(1) هذه الجملة المنضدة بحرف أسود اثبتها المؤلف بلفظها الفرنسي هكذا:
Vive la France et les pommes de terre frites. Liberté, Venalité, et Stupidité.

العسكري الفرنسي. إنهم لم يُطلعوا مفكراً عسكرياً منذ «دو بيك» Du Pieq. ولقد كان كولونيلاً فاشلاً لعيناً أيضاً. مانجين Mangin، ماجينو Maginot وغاملان Gamlin. اختاروا من يحلو لكم، أيها السادة. هي ذي ثلاثة مذاهب. الأول يقول: أنا أضربهم على الأنف. الثاني يقول: أنا اختبئ وراء الشيء الذي لا يحمي جناحي الأيسر. الثالث يقول: أنا أخبئ رأسي في الرمل مثل النعامة، واثقاً من عظمة فرنسا كدولة عسكرية ثم أولي الأدبار.

إن قولي «أولي الأدبار» ليؤدي المعنى في كثير من الدعابة والظَّرْف. وليس من ريب، كذلك قال في نفسه، أنك كلما غاليت في تبسيط الأشياء كان حكمك ظالماً. تذكَّر جميع العسكريين النابهين الذي أطلعتهم «المقاومة»؛ تذكَّر أن «فوش» برع في القتال والتنظيم معاً، وتذكَّرْ كم كان الناس رائعين. تذكّر أصدقاءك الحميمين، وتذكَّرْ موتاك. تذكَّر أشياء كثيرة، وخيرَ أصدقائك مرّة أخرى، وأروع الناس الذين تعرفهم. لا تكن لاذعاً ولا مغفّلاً. وأيّ صلة لهذا بالجندية كصناعة؟ تجاوز هذا، كذلك قال في نفسه. فأنت تقوم برحلة للترويح عن النفس.

وقال: «هل أنت سعيد، يا جاكسون؟»

ـ «نعم، يا سيدي.»

ـ «حسن. سوف ننتهي عما قريب إلى مشهد أريدك أن تراه. وليس عليك إلاّ أن تستمتع بالنظر إليه. إن العملية كلها سوف تكون غير مؤلمة البتة.»

لست أدري لأي غرض يُناكدني الآن، هكذا قال السائق لنفسه. ألمجرد أنه كان «بريغادير جنرال»[1] في يوم من الأيام يظن أنه يعرف كل شيء؟ ولو أنه كان ناجحاً في النهوض بأعباء رتبته العسكرية تلك

---

(1) في الجيش الأميركي، مرتبة بين الكولونيل والجنرال. (المعرب)

فلمَ لم يحتفظ بها؟ لقد أخفق إخفاقاً شديداً جعله مزيجاً من بلادة وخَبَل.

وقال الكولونيل: «هو ذا المشهد، يا جاكسون. أوقف السيارة عند جانب الطريق، ولنلقِ نظرة.»

ومشى الكولونيل والسائق إلى الجانب البندقي (الفينيسي) من الطريق، والقيا نظرة عبر اللاغون[1] الذي كانت تُلهبه سياط الريح القارسة الهوجاء المنبعثة من الجبال... تلك الريح التي جعلت خطوط المباني كلها حادة الزوايا فهي واضحة من وجهة هندسية.

وأومأ الكولونيل قائلاً: «هي ذي تورشيلو قِبالتنا مباشرةً. في ذلك المكان عاش الناس الذين أخرجهم القوط الغربيون من البر الأصلي. لقد شيدوا تلك الكنيسة التي تراها هناك ببرجها المربّع. لقد عاش ثمة في يوم من الأيام ثلاثون ألف نسمة، وقد بنوا تلك الكنيسة لكي يمجدوا إلههم ويعبدوه. وبعد أن بنوها غصَّ مصبّ نهر «سايل»بالطمي، أو غيَّر الطوفان معالمه، فإذا بكامل تلك الأرض التي انتهينا إليها منذ لحظات مُغرقة، وإذا بها تُطلْع البعوض وتُمنَى بالملاريا. وشرع الناس كلهم يموتون، وهكذا اجتمع شيوخ القوم وقرّروا الارتحال إلى موطن صحيّ يمكن الدفاع عنه بالمراكب، موطنٍ يتعذر على القوط الغربيين وعلى اللومبارديين وغيرهم من قطاع الطرق أن يبلغوهم فيه، لأن قطاع الطرق هؤلاء لم تكن لديهم أية قوة بحرية. وكان غلمان تورشيلو كلهم ملاّحين ماهرين. وهكذا نقلوا حجارة بيوتهم كلها في مراكب شراعية، مثل تلك التي رأيناها منذ لحظة، وبنَوْا البندقية.»

وأمسك عن الكلام. ثم قال: «هل أُوقِع الضجر في نفسك، يا جاكسون؟»

---

(1) المستنقع أو البحيرة الضحلة وخاصة ما اتصل منها بالبحر أو قرب منه.

ـ «لا، يا سيدي. لم تكن لديّ أي فكرة عن بُناة البندقية الأولين.»

ـ «إنهم غلمان تورشيلو. كانوا قوماً أشداء، وكان لهم في البناء ذوق رفيع. لقد أقبلوا من موطن صغير عند الشاطئ يدعى كاوورل. ولكنهم وُفقوا إلى حمل جميع سكان المدن والقرى المجاورة على اتباعهم عندما اجتاحها القوط الغربيون. ولقد كان فتىً تورشيلياً ذلك الذي كان يهرّب الأسلحة إلى الأسكندرية، والذي وفق إلى اكتشاف المكان الذي دفن فيه القديس مرقص فهرّب جثمانه تحت حمل من لحم الخنزير الغضّ لكي يعجز حرس الكفار عن صدِّهِ. وهذا الفتى حمل رفات القديس مرقص إلى البندقية، وذلك القديس هو شفيعهم، ولقد بنوا له كاتدرائية. ولكنهم كانوا في تلك الفترة قد أوغلوا، في تجارتهم، في اتجاه الشرق إلى درجة جعلت الصبغة البيزنطية تغلب على فنهم المعماري في ما يخيّل إليّ. إنهم لم يبنوا ما هو أفضل منها إلاّ في نشأتهم الأولى في تورشيلو. أنظر. هي ذي تورشيلو هناك حقاً.»

ولقد كانت هناك حقاً.

ـ «إن ساحة القديس مرقص هي حيث تسرح أسراب الحمام، وحيث تقوم تلك الكاتدرائية الضخمة التي تبدو وكأنها قصر من قصور السينما. أليست تبدو كذلك؟»

ـ «تماماً، يا جاكسون. أنت على قبة ذلك القصر، إذا كنت تتصورها هكذا. والآن أنظر إلى ما وراء تورشيلو فسوف ترى برج الأجراس الرائع فوق بورانو، ذلك البرج الذي لا يقل ميلاناً عن برج بيزا المائل. إن بورانو هذه جزيرة صغيرة مكتظة بالسكان أكثر مما ينبغي، حيث النسوة يصنعن وشياً رائعاً، وحيث الرجال يصنعون صُوَر الطفل يسوع ويشتغلون طوال ساعات النهار في مصانع الزجاج في تلك الجزيرة المحاذية التي تراها إلى الوراء مع برج الأجراس الآخر،

والتي هي جزيرة مورانو. إنهم يصنعون في ساعات النهار زجاجاً رائعاً للأثرياء من الناس في أرجاء العالم كله، ثم يعودون إلى منازلهم بالزوارق البخارية الصغيرة ويصنعون صور الطفل يسوع. إن أحداً منهم لا يخرج مع امرأته في الليل. وهم يصيدون البط، في الليل، أيضاً، ببنادق كبيرة، هناك على طول حافة الأراضي السبخة في هذا اللاغون الذي تنظر عَبْرَهُ الآن. فأنت تسمع طلقات بنادقهم، في الليالي المقمرة، خلال ساعات الليل بطولها.» وأمسك عن الكلام.

ـ «والآن حين تنظر إلى ما وراء مورانو ترى البندقية. تلك هي مدينتي. إن ثمة أشياء أخرى كثيرة كان في استطاعتي أن أُريك إياها. ولكنني أعتقد أن من واجبنا الآن، في أغلب الظن، أن ننطلق بالسيارة. ألقِ نظرة أخيرة وطويلة عليها. هذا هو المكان الذي تستطيع أن ترى منه كيف حدث ذلك كله. إن أحداً لا ينظر إليها من هنا البتة.»

ـ «إنه مشهد جميل. شكراً لك، يا سيدي.»

فقال الكولونيل: «أو. كي. فلننطلق بالسيارة.»

[5]

ولكنه ظل ينظر إليها، ولقد كانت جميلة في نظره هازّةً لمشاعره كشأنها يوم كان في الثامنة عشرة ورآها أول مرة غير فاهم أي شيء منها وغير عارف من أمرها إلاّ أنها كانت جميلة. كان الشتاء قد أقبل قارساً شديد البرد ذلك العام، وكانت جميع الجبال بيضاء خلف السهل. وكان النمساويون قد استشعروا ضرورة اقتحام خطوط عدوّهم عند الزاوية التي شكّل فيها نهرُ «سايل» وقاعُ نهر بيافا القديم خطوطَ الدفاع الوحيدة.

لو كنت تسيطر على قاع الـ «بيافا» القديم آنذاك إذن لكان وراءك نهر «سايل» تنكفئ إليه إذا عجز الخط الأول عن الصمود. ووراء الـ «سايل» لم يكن شيء غير سهل مترامي الأطراف، وشبكة طرق جيدة تفضي إلى سهل «فينيتو» وسهول لومباريا، ولقد شنّ النمساويون هجومهم مرةً ومرةً ومرةً في أواخر فصل الشتاء لكي يحاولوا بلوغ هذه الطريق الممتازة التي كانا ينطلقان الآن فيها سيارتهما والتي تؤدي إلى البندقية مباشرة. وذلك الشتاء كان الكولونيل ـ الذي لم يكن يومئذ غير ملازم ثانٍ، وفي جيش أجنبي، وهو ما جعله دائماً في ما بعدُ موضع ارتياب طفيف في جيش بلاده نفسه وجعل حياته العسكرية بعيدة عن النجاح ـ أقول ذلك الشتاء بطوله كان الكولونيل يشكو التهاباً في الحنجرة. وقد نشأ ذلك الالتهاب في الحنجرة من المكث

في الماء أكثر مما ينبغي. لم يكن في ميسورك آنذاك أن تنجو من البلل، ولقد كان خيراً لك أن تبتلَّ بسرعة وأن تظلَّ مبتلاً على نحو موصول.

كان حُسن التنسيق يعوز الهجوم النمساوي، ولكنهم كانوا يواصلونه في غير انقطاع وكانوا مُخْنَقين، فكان عليك بادئ الأمر أن تتلقى القصف الذي كان مفروضاً فيه أن يشلَّ نشاطك، حتى إذا انحسرت موجة القصف ألقيت نظرة فاحصة على مواقعك وأحصيتَ رجالك. ولكن لم يكن لديك متسع من الوقت للعناية بالجرحى، إذ كنت تعلم أن الهجوم سوف يُستأنف في الحال، ثم إنك قتلت الرجال الذين أقبلوا مخوّضين في الأراضي السبخة رافعين غداراتهم فوق الماء، متقدمين ببطء المخوِّض في الماء حتى الخصر.

ولو أنهم لم يوقفوا القصف عندما بدأ ـ قال الكولونيل، الذي كان مجرد ملازم ثان آنذاك، في ذات نفسه ـ فلست أدري ما الذي كان في وسعنا أن نفعله. ولكنهم كانوا يوقفونه دائماً، ثم يستأنفونه في أثناء الهجوم.

ولو قد خسرنا نهر «بيافا» القديم وانكفأنا إلى نهر «سايل» إذن لصوبوا نيرانهم إلى خط القتال الثالث؛ على الرغم من أن الاحتفاظ بهذين الخطين كان متعذراً، وكان الواجب يقتضيهم أن ينقلوا مدافعهم كلها إلى مكان قريب جداً وأن يمطروهما بقنابلهم طوالَ فترة هجومهم وإلى أن يتم لهم إحداث ثغرة في صفوفنا. ولكن مجنوناً ذا رتبة رفيعة يكون على رأس الهجوم دائماً، والحمد لله. كذلك قال الكولونيل في نفسه، ولقد قاموا بذلك على نحو منجَّم متقطّع.

وطوال ذلك الشتاء، وفيما كان يشكو التهاباً حادّاً في الحنجرة، قتل رجالاً مزوّدين بأحمال من القنابل معلقّة بكلاليب شدّت تحت أكتافهم، حاملين رزماً ثقيلة مصنوعة من جلد العِجل، وخُوَذاً على شكل دلو. كانوا هم العدوّ.

ولكنه لم يُبغضهم البتة. لا، ولم يكن بقادر على أن يضمر أيّ حقد عليهم. كان يقود رجاله وقد طوّق حنجرته بجورب عتيق نُقِع بزيت التربنتين، ولقد صدّوا الهجمات بنار الغدّارات وبالبنادق الأوتوماتيكية التي كانت لا تزال في متناولهم، أو التي كانت لا تزال صالحة للاستعمال، بعد القصف. لقد علمَّ رجاله كيف يطلقون النار، بالمعنى الحقيقي للكلمة، وهي براعةٌ نادرة في الجيوش الأوروبية، وعلمَّهم أن يكونوا قادرين على النظر إلى العدو حين يُقبل. ولمّا كان ثمة دائماً فترات هادئة يصبح فيها اطلاق النار حراً، فقد أتقنوا ذلك وبرعوا فيه.

بيد أنه كان عليك دائماً أن تحصي وتحصي سريعاً بعد القصف لكي تعرف كم قنّاصاً بقي لديك. لقد أصيب ثلاث مرات ذلك الشتاء، ولكنها كانت كلها جراحاتٍ صغيرة اقتصرت على إصابات في اللحم ولم تكسر العظم، وكان قد أمسى على أتم اليقين من حصانته الشخصية بعد أن وثق من أنه كان يُفترض أن يُقتل في قصف المدفعية الثقيلة الذي كان يسبق الهجمات دائماً. وأخيراً أصيب إصابة حقيقية وإلى الأبد. إن أياً من جراحاته الأخرى لم يقدّر لها أن تفعل به ما فعله هذا الجرح البليغ. يخيل إليّ أن ذلك لا يعدو أن يكون ضياعَ الحصانة، كذلك قال في نفسه. حسناً، إن هذه لخسارة ضخمة على أية حال.

لقد عَنَتْ هذه البلاد شيئاً كثيراً عنده، أكثر مما يُحسن أو يستطيع، أبد الدهر، الافضاء به إلى أحد من الناس؛ لقد استوى الآن في السيارة سعيداً لأنه سوف يجد نفسه، بعد نصف ساعة أخرى، في البندقية. وأخذ قرصَيْ «منيتول هيكسانيترايت» فمنذ أن غدا قادراً دائماً على البَصْق، ابتداء من عام 1918، أصبح في ميسوره أن يأخذ هذه الأقراص من غير ماء.

وسأل السائق: «كيف أنت، يا جاكسون؟»

ـ «عظيم، يا سيدي.»

ـ «اسلُكْ الطريق الخارجية اليسرى عندما نبلغ المنعطف المفضي إلى ميستر، ولسوف يكون في ميسورنا أن نرى المراكب على طول القناة ونجتنب السير في خط المواصلات الرئيسي هذا.»

فقال السائق: «نعم، يا سيدي. هل لك أن تنبهني حين نبلغ المنعطف؟»

فأجابه الكولونيل: «طبعاً.»

كانا يقتربان من «ميستر» في سرعة، وكان ذلك أشبه شيء بالذهاب إلى نيويورك لأول مرة قدِّر لك ذلك، في الأيام الخالية، حين كانت مشرقة، بيضاء، جميلة. لقد انسللت إلى هناك خلسة، قال في نفسه. ولكن هذا كان قبل أن تصبح سماؤها ملبدة بالدخان. نحن ذاهبان إلى مدينتي. وحق المسيح، إنها لمدينة محببة إلى القلب.

استدارا عند المنعطف الأيسر، وحاذيا القناة حيث شُدَّت مراكب صيد السمك. نظر الكولونيل إليها وكان قلبه مبتهجاً بسببٍ من الشِباك السمراء وأشراك السمك المصنوعة من أغصان مجدولة، وصفوف السفن الجميلة النظيفة. ولم يكن ذلك لأنها ممتعة جداً. إلى الجحيم بكل ما هو ممتع. لقد كانت جميلة إلى حد لعين ليس غير.

اجتازا صف المراكب الطويل في القناة البطيئة التي حملت الماء من الـ «برينتا»، وفكر في امتداد الـ «برينتا» الطويل حيث كانت الدارات الضخمة، بمروجها وحدائقها وشجرات الدُّلب وشجرات السرو. إني لأتمنى لو أُدفَنُ هناك، هكذا قال محدّثاً نفسه. أنا أعرف المكان معرفة حسنة جواً. ومع ذلك فلست أعتقد أن في إمكاني أن أرتِّب هذه المسألة. لست أدري. أنا أعرف أناساً قد يجيزون لي أن أُدفن في جبانتهم. سوف أسأل البرتو. ولكنه قد يظن أن هذا تفكير سوداويّ.

كان قد فكر منذ فترة بعيدة في جميع المواطن الرائعة التي يتمنى لو يُدفن فيها، متسائلاً: تُرى في أية رقعة من رقاع الأرض أودّ أن أفنى بحيث أُشكِّل جزءاً منها لا يتجزأ؟ إن القسم المنتن المتعفن من شخصي لن يدوم، في الواقع، دهراً طويلاً، وعلى أية حال فأنت مجرد ضربٍ من التبن الذي يُستعمل لوقاية النباتات الصغيرة من الحر أو البرد، وحتى العظام سوف تكون ذات نفع آخر الأمر. إني لأحبُّ أن أُدفن عند حافة الأراضي التابعة لذلك البيت العتيق الأنيق، ولكن على مرأى منه ومن الشجرات الكبيرة الفارعة الطول. ولست أحسب أن ذلك سينطوي على كبير إزعاج لهم. إن في ميسوري أن أصبح جزءاً من الأرض التي يلعب فيها الأطفال في الأمسيات، أما في الأصباح فلعلهم أن يكونوا لا يزالون يدرِّبون خيلهم على الوثوب، ولعل حوافر هذه الخيل تقرع أرض الحلبة، ولعل الأطروط (أو الترويت) يثب في البركة حين يشرع الذباب في التفقيص.

كانا قد أمسيا الآن فوق الطريق المرتفعة الممتدة من ميستر إلى البندقية حيث مصانع «بريدا» البشعة التي تذكرك بمدينة هاموند في انديانا.

سأله جاكسون: «ماذا يصنعون هناك، يا سيدي؟»

فأجابه الكولونيل: «الشركة تصنع القاطرات في ميلانو. إن القوم هنا يصنعون قليلاً من كل شيء في الحقل التعديني.»

كان مشهد «البندقية» بشعاً الآن، وكان الكولونيل يكره دائماً هذه الطريق المرتفعة، لولا أنها كانت توقع بعض المتعة في نفسك، وتتيح لك رؤية القنوات والعوامات الخاصة بإرشاد السفن.

وقال لجاكسون: «هذه المدينة تكسب رزقها بعرق جبينها. لقد كانت في غابر الزمان ملكة البحار، وابناؤها أولو بأس شديد، وهم يبالون بالأشياء أقلّ مما يبالي كل من سوف يُقدر لك أبد الدهر أن

تلتقيه. إنها مدينة أقسى من شِيَينّ[1] حين تعرفها معرفة جيدة، وكل امرئ فيها بالغ اللطف والتهذيب.»

ـ «أنا لا أميل إلى القول إن شيينّ مدينة قاسية، يا سيدي.»

ـ «حسناً، إنها أقسى من كاسبر[2].»

ـ «هل تعتبر كاسبر مدينة قاسية، يا سيدي؟»

ـ «إنها مدينة بترولية، إنها مدينة لطيفة.»

ـ «ولكني لا أظنها قاسية، يا سيدي. أو أنها كانت في أيما يوم من الأيام قاسية.»

ـ «حسن، يا جاكسون. لعلنا ندور في حلقتين مختلفتين. أو لعل لكل منا مفهوماً للكلمة مختلفاً. ولكن مدينة البندقية هذه، وكل مَنْ فيها لطيف مهذّب، لا تقلّ قسوةً عن «كوك سيتي»، بولاية مونتانا، في أيام «أولد تايمرز فيش فراي[3]».»

ـ «إن ممفيس هي التي تمثل فكرتي عن المدينة القاسية.»

ـ «إنها تمثل هذا الضرب من المدن كما تمثله تشيكاغو. ممفيس ليست قاسية عليك إلاّ إذا كنت زنجياً. أما تشيكاغو فقاسية شمالاً، وجنوباً وغرباً ـ ليس هناك شرق ـ. ولكن القوم كلهم يعوزهم التهذيب. أما في هذه البلاد فإذا أردت في أي يوم من الأيام أن تعرف مدينة قاسية حقاً، مدينة يعرف الناس فيها كيف يأكلون، أيضاً، فاذهب إلى مدينة بولونيا.»

ـ «أنا لم أذهب إلى هناك قط.»

---

(1) Cheyenne عاصمة ولاية ويومنغ Wyoming بالولايات المتحدة الأميركية. (المعرب)

(2) Casper مدينة في أواسط ولاية ويومنغ بالولايات المتحدة الأميركية. (المعرب)

(3) لعلها اسم حانة أو نحوها. (المعرب)

فقال الكولونيل: «حسناً، هناك مرآب «فيات» حيث نؤوي السيارة، في استطاعتك أن تترك المفتاح في المكتب. إنهم لا يسرقون. ولسوف أمضي إلى الحانة ريثما تؤوي السيارة فوق. إن لديهم مَن سوف يجيئوننا بالحقائب.»

ـ «هل تحسب أن من الحكمة أن تترك بندقيتك وعدة القنص في السيارة، يا سيدي؟»

ـ «من غير ريب. إنهم هنا لا يسرقون. لقد قلت لك ذلك من قبل.»

ـ «لقد أردتُ أن اتخذ الاحتياطات الضرورية، يا سيدي، لصيانة ممتلكاتك الثمينة.»

فقال الكولونيل: «أنت نبيل إلى حدٍّ يجعلك نتناً في بعض الأحيان. انزع الوسخ من أذنيك واسمع ما أقوله لك أول مرة.»

فقال جاكسون: «لقد سمعتك يا سيدي.» ونظر إليه الكولونيل نظرةً ترشح بالتأمل وبطريقته الفتاكة المألوفة.

ليس من ريب في أنه ابن عاهرة حقير، كذلك قال جاكسون في نفسه، وإن في ميسوره أن يكون ظريفاً إلى حد لعين.

ـ «اخرج حقيبتي وحقيبتك وأوقف السيارة هناك. وافحص زيتك، وماءك، وعجلاتك.» قال الكولونيل ذلك ومشى عبر إسمنت مدخل الحانة الملطخ بالزيت والمطاط.

[6]

وحين دخل الحانة كان يجلس إلى المائدة الأولى ثري ميلانيّ(1) من أثرياء الحرب، بدينٌ جافٍ كما لا يستطيع أحد غير أبناء ميلانو أن يكون، وإلى جانبه خليلته الفاتنة ذات المظهر المترف. كانا يعاقران شراب الـ «نيغرونيس»، وهو مزيج من الفيرموت وماء سيلتزر المعدني، وتساءل الكولونيل عن مقدار الضرائب التي احتال الرجل لعدم دفعها لكي يشتري تلك الفتاة الناعمة ذات السترة الطويلة المصنوعة من فرو النمس الثمين، وتلك السيارة المكشوفة التي كان قد رأى سائقها يتقدم بها خلال المنحدر الطويل الملتوي لكي يُقفل عجلاتها، بعدُ، خشية الانزلاق. حدَّق الرجل وصاحبته إليه بتلك الطريقة غير المهذبة التي عُرف بها نوعهما، فألقى عليهما التحية، في فتور، وقال لهما بالإيطالية: «آسف لكوني ارتدي بزة عسكرية. ولكنها بزة عسكرية، وليست لباساً رسمياً.»

ثم إنه ولاّهما ظهره، من غير أن ينتظر حتى يرى أثر ملاحظته في نفسيهما، وتقدم نحو المشرب. ومن المشرب كان باستطاعتك أن تراقب أمتعتك، كما كان الثري من الربح المحرّم وصاحبته يراقبان أمتعتهما.

---

(1) من مدينة ميلانو.

أغلب الظن أنه «كوماندانور»[1]، كذلك قال في نفسه. إنها تحفة جميلة إلى حد لعين حقاً. ليت شعري كيف تكون الحال لو قدِّر لي ذات يوم أن أملك من المال ما يمكنني من أن أشتري لنفسي شبيهاتها كلهن، وأن ألبسهنَّ فراء النمس الثمين؟ حسناً سوف أدفع ثمن التي عندي، كذلك أجاب نفسه، وفي استطاعتهن أن يذهبن ويشنقن أنفسهن.

صافحه الساقي (البارمان). كان هذا الساقي فوضوياً ولكنه لم يجد حرجاً البتة في أن يكون الكولونيل كولونيلاً. كان مبتهجاً بذلك معتزاً به ودوداً من جرّائه، وكأنه كان للفوضويين كولونيل أيضاً. وخلال الأشهر العديدة التي انقضت على تعارفهما بدا، بطريقة ما، وكأنه يستشعر أنه قد اخترع، أو على الأقل بنى، الكولونيل كما يجدر بالمرء أن يكون سعيداً بالمشاركة في بناء برج أجراس، وحتى في تشييد الكنيسة القديمة في تورشيلو.

وكان الساقي قد سمع الحديث، أو بالأحرى التقرير الرتيب الخالي من الحياة، الدائر على المائدة، وكان بالغ السعادة.

كان الكولونيل قد طلب شيئاً من «جِن»[2] غوردون ومن الكامباري. وقال الساقي: «الشراب آتٍ. كيف يجري كل شيء في تريستا؟»

- «على الوجه الذي تتخيله، تقريباً.»

- «أنا لا أقوى حتى على التخيل.»

فقال الكولونيل: «إذن لا تجهد نفسك، وهكذا لن تصاب بداء البواسير أبد الدهر.»

- «لو كنتُ كولونيلاً لما باليتُ بهذا الداء.»

---

(1) فارس من ذوي الرتب العالية.

(2) الجن والكامباري campari ضربان من الأشربة المسكرة. (المعرب)

ـ «أنا لا أبالي به البتة.»

فقال الساقي: «سوف تُسْحَق مثل جرعة من ملح إنكليزي.»

فقال الكولونيل: «لا تخبر باسياردي المبجل.»

وضحك هو والساقي لهذه النكتة لأن باسياري المبجل كان وزير الدفاع في الجمهورية الإيطالية. كان في مثل سنّ الكولونيل، وكان قد أبلى في الحرب العالمية الأولى بلاء حسناً، وكان قد قاتل أيضاً في إسبانيا بوصفه قائد كتيبة حيث عرفه الكولونيل عندما كان هو نفسه مراقباً. وكانت الجدّية التي غلبت على باسياردي المبجل طوال تولّيه وزارة الدفاع في بلدٍ لا سبيل إلى الدفاعِ عنه موضع تندّر الكولونيل والساقي معاً. فقد كان كل منهما رجلاً عملياً، وكان مجرّد تخيّلهما ذلك الرجل يدافع عن الجمهورية الإيطالية يثير تفكيرهما.

قال الكولونيل: «يبدو لي أن الأمر مضحك هناك. ولست أجد أي بأس في ذلك.»

فقال الساقي: «يتعين علينا أن نُمَكْنِنَ[1] باسياردي المبجل. وأن نزوده بالقنبلة الذرية.»

فقال الكولونيل: «إن لديّ ثلاثاً منها في مؤخر السيارة. إنها من الطراز الجديد الكامل غير المنقوص. ولكننا لا نستطيع تركه أعزل من السلاح. يتعين علينا أن نزوده بميكروب داء الجمرة وبمسمّمات الأطعمة.»

قال الساقي: «ليس في استطاعتنا أن نخذل باسياردي المبجل. فلأن يحيا المرء يوماً واحداً مثل أسد خير له من أن يحيا مئة عام مثل خروف.»

فقال الكولونيل: «خيرٌ لنا أن نموت واقفين على أقدامنا من أن

---

(1) mechanize، أي أن تزوده بالعتاد الميكانيكي. (المعرب)

نحيا راكعين على رُكَبنا. على الرغم من أنه من الأفضل لك أن تسارع إلى الانبطاح على بطنك إذا أردت أن تظل على قيد الحياة في مواطن كثيرة.»

ـ «لا تقل أيّ شيء هدام، أيها الكولونيل.»

فقال الكولونيل: «سوف نخنقهم بأيدينا العزلاء. إن مليون رجل سوف يسارعون إلى حمل السلاح هذه الليلة.»

فسأله الساقي: «أيّ سلاح؟»

فقال الكولونيل: «كل ما سيقع في متناولهم. إنه مجرد مشهد من مشاهد المسرحية الكبرى.»

في تلك اللحظة بالذات وفد السائق ووقف بالباب. وأدرك الكولونيل أنه لم يراقب، فيما كانا يتندران، باب الحانة، ولقد كان يضيق دائماً بأية غفلة تبدر منه فتنسيه التعلق بأسباب الاحتراس والأمن.

ـ «ما الذي يبقيك هناك، بحق الجحيم، يا جاكسون؟ هيّا اشرب كأساً.»

ـ «لا. أشكرك يا سيدي.»

يا لك من غرّ مغالٍ في الغرارة، كذلك قال في ذات نفسه. ثم أضاف مصحّحاً موقفه: ولكن من الخير لي أن أكفّ عن مناكدتهِ.

ـ «لن تنقضي دقيقة واحدة حتى نكون قد ذهبنا». كذلك قال الكولونيل. «لقد كنت أتعلم الإيطالية من صديقي هذا». والتفت لينظر إلى الميلانيَّيْن المتنعمين بالريح المحرّم. ولكنهما كانا قد انصرفا.

لقد بدأت أصبح فاتر الهمة إلى حد رهيب، حدّث نفسه. إن أيما امرئ سوف يكون قادراً الآن على أن يغلبني في أيما يوم من الأيام. وربما باسياردي المبجل نفسه.

وسأل الساقي في اقتضاب: «بكم أنا مدين لك؟»

فأنبأه الساقي، ونظر إليه بعينيه الإيطاليتين الحكيمتين. لم يكن مرحاً الآن، برغم أن أسارير المرح كانت واضحة المعالم حينما شعّت زوايا عينيه. أنا أرجو أن لا يكون قد ألمّ به أيما خلل، قال الساقي في نفسه، وأضرع إلى اللّه، أو أيما شيء آخر، أن لا يكون قد أصابه مكروه حقيقي.

وقال مودّعاً: «إلى اللقاء يا زعيمي.»

فقال الكولونيل: «إلى اللقاء. جاكسون، سوف نهبط المنحدر الطويل ثم نتجه إلى الشمال تماماً من المخرج إلى حيث أُرْسِيت الزوارق البخارية الصغيرة. الزوارق المصقولة أعني. هناك حمّال لنقل الحقيبتين. إن من الضروري أن ندعهم يحملونهما ما داموا يملكون امتيازاً خاصاً بذلك.»

فقال جاكسون: «نعم، يا سيدي.»

وخرج من الباب، ولم يلتفت أي منهما إلى أحد.

وعند المهبط المفضي إلى الماء نفح الكولونيل الرجل الذي حمل الحقيبتين بشيء من المال. ثم أجال بصره في ما حوله بحثاً عن مراكبيّ يعرفه.

ولم يتبيّن الرجل الذي كان في أقرب الزوارق البخارية إليه، ولكن المراكبيّ قال: «طاب يومك، يا زعيمي. أنا الأول.»

ـ «ما الأجرة إلى غريتي؟»

ـ «أنت تعرف ذلك جيداً كما أعرفه، يا زعيمي. إننا لا نساوم. لدينا تعرفة رسمية.»

ـ «ما هي التعرفة؟»

ـ «ثلاثة آلاف وخمسمئة لير.»

ـ «لقد كان في استطاعتنا أن نركب الزورق البخاري الصغير بستين ليراً.»

فقال المراكبيّ الذي كان رجلاً متقدماً في السن، ذا وجه أحمر

ولكنه غير صفراويّ المزاج: «وليس ثمة ما يمنعك من ذلك. إنهم لا يأخذونك إلى الـ «غريتي»، ولكنهم سوف يقفون بك عند المهبط الذي وراء حانة هارّي، وفي استطاعتك أن تتلفن طالباً من الـ «غريتي» أن يبعث إليك بمن يحمل أمتعتك.»

أي شيء سأشتريه بالثلاثة آلاف وخمسمئة لير اللعينة؛ وهذا رجل عجوز طيب.

ـ «هل تريدني أن أرسل ذلك الرجل إلى هناك؟» وأومأ إلى رجل عجوز متهدم كان يقوم بمهام غريبة ويسعى بالرسائل حول الأحواض، مستعداً دائماً لإسداء المعونة غير الضرورية لِمرْفق المسافر الصاعد أو النازل ومستعداً دائماً للمساعدة حين لا تكون ثمة أي حاجة لمساعدة، باسطاً يده بقبعته اللبادية العتيقة فيما هو ينحني انحناءة الاحترام بعد اداء العمل الذي لا حاجة إليه. «سوف يقودك إلى الزورق البخاري الصغير. إن ثمة واحداً سيُقبل بعد عشرين دقيقة.»

قال الكولونيل: «إلى الجحيم به! خذني إلى الغريّتي.»

فقال المراكبيّ: «بكل سرور!»

وخفض الكولونيل وجاكسون رأسيهما ودخلا الزورق البخاري الذي بدا وكأنه مركب من مراكب السباق. كان مصقولاً على نحو مشعٍّ، وكان مصوناً بكثير من العناية، مُسيَّراً بمحرّكٍ بحريّ كان في الأصل محرك «فيات» صغيراً خدم طوال مدته المحددة له في سيارة طبيب من أطباء الأقاليم ثم اشتُرِي من مقابر السيارات؛ جبّانات الأفيال الميكانيكية تلك التي هي الشيء الذي لا بدَّ أن تقع عليه في عالمنا هذا قرب أيما بقعة آهلة بالسكان. وبعد ذلك أعيد تكييفه وخُلق خلقاً آخر ليستهل هذه الحياة الجديدة في قنوات هذه المدينة.

ـ «كيف تجد هذا المحرك؟» سأله الكولونيل. كان في ميسوره أن يضجّ مثل دبابة، .أو مثل مدمرة دبابات، اثخنتها الإصابات، لولا أن ضجيجه كان مُنَمْنماً بسبب من فقدان القوة.

فأجابه المراكبيّ: «بين بين»، وحرّك يده الطليقة بإيماءة متوازية.

- «يتعيَّن عليك أن تستعمل أصغر طراز تخرجه شركة يونيفرسال. ذلك هو أحسن وأخف محرك بحري أعرفه.»

فقال المراكبيّ: «أجل. إن ثمة بعض الأشياء الصغيرة التي يتعين عليّ أن آتي بها.»

- «لعل سنتك هذه تكون سنة خصبة.»

- «هذا ممكن دائماً. إن كثيراً من الأغنياء المتهرّبين من الضرائب يفدون من ميلانو ليقامروا في «الليدو». ولكن أيّاً منهم لا يركب متن هذا الزورق، مرتين اثنتين، عن عمد. وهو، كمركب، ممتاز أيضاً. إنه مركب مليح حسن البنية. طبعاً، إنه ليس جميلاً مثل غندول. ولكنه يحتاج إلى محرك.»

- «قد أستطيع أن آتيك بمحرك «جيب». محركٍ حُكم عليه بعدم الصلاح ولسوف يكون في إمكانك أن تسوّيه وتصلحه.»

فقال المراكبيّ: «لا تتحدث عن أشياء كهذه. إن أشياء مثل هذه لا تحدث. أنا لا أريد أن أفكر في ذلك.»

فقال الكولونيل: «في استطاعتك أن تفكر فيه. أنا أقول الحقيقة.»

- «أنت تعني ما تقول.»

- «من غير ريب. أنا لا أضمن أيّ شيء، ولكني سوف أرى ما الذي أستطيع أن أفعله في هذه السبيل. كم ولداً لك؟»

- «ستة. صبيّان وأربع بنات.»

- «يا للجحيم. يخيَّل إليّ أنك لم تؤمن بالنظام.[1] ستة أولاد فقط؟»

---

(1) يقصد النظام الفاشيستي، وكان موسوليني قد دعا أبناء الأمة الإيطالية إلى الاكثار من إنجاب الأطفال ووضع الجوائز لتشجيعهم على ذلك. (المعرب)

ـ «لا، أنا لم أؤمن بالنظام.»

فقال الكولونيل: «لست مكلفاً أن تتظاهر أمامي بذلك. فقد كان جدّ طبيعي بالنسبة إليك أن تؤمن بالنظام فعلاً. أتحسب أني أحمل ضغينة على رجل ما، بسبب من ذلك، بعد أن كسبنا الحرب؟»

كانوا ينطلقون الآن في الجزء الرتيب من القناة، الذي يمتدّ من «بياتزال روما» إلى «كافوسكاري» برغم أن أيّاً من أجزائها ليس رتيباً.

«ليس من الضروري أن يكون المشهد كله قصوراً أو كنائس. إنه ليس رتيباً من غير ريب، والتفت إلى اليمين، الجانب الأيمن من الزورق. أنا فوق الماء. كانت بناية طويلة خفيضة سائغة. وكان إلى جانبها مطعم.

يتعين عليّ أن أحيا هنا. ولسوف يكفيني راتب التقاعد للعيش في بحبوحة. لا حاجة بي إلى قصر غريتي. كل ما أريده هو حجرة في بيت كهذا والمد والجزر والمراكب الغادية الرائحة. إن في استطاعتي عندئذ أن أطالع الصحف صباحاً، وأطوف ماشياً في المدينة قبل الغداء، وأمضي كل يوم لأرى لوحات تينتوريتو[1] في الأكاديمية وأذهب إلى «مدرسة سان روكو»، وأتناول الطعام في الحانات الرخيصة الجيدة خلف السوق، أو ربما استطاعت المرأة التي تدبر شؤون البيت أن تطهو في الأمسيات.

يخيّل إليّ أن من الأفضل لي أن أتناول طعام الغداء في الخارج وأن أنعم بشيء من رياضة المشي. إنها مدينة ملائمة للمشي. بل لعلها خير المدن من هذه الناحية، في ما أعتقد، فأنا لم أتمشَّ فيها ذات مرةٍ إلاّ ونعمت بمتعة. هذا شيء استطعت أن أتعلمه على أحسن وجه»، كذلك قال في ذات نفسه.

«إنها مدينة غريبة معقدة، وأن السير من أيما جزء منها إلى أي

---

(1) Tintoretto فنّان بندقي (فينيسي) 1518 ـ 1594. (المعرب)

جزء آخر خيرٌ من حل أحاجي الكلمات المتقاطعة. وإنه لمن الأشياء القليلة التي تشرّفهم أنهم احترموها.

وحق المسيح، أنا أحبها، وإني لاستشعر أعظم السعادة لأني أسهمتُ في الدفاع عنها وأنا غلامٌ غِرّ لم تتم له معرفةٌ باللغة وافيةٌ، ولم أكن قد رأيتها من قبل قط حتى كان ذلك اليوم الصاحي، من أيام الشتاء، عندما انكفأت لأضمّد ذلك الجرح اليسير، فرأيتها تنبثق من البحر. يا للجحيم، كذلك قال في نفسه، لقد ابلينا بلاءً حسناً، ذلك الشتاء، عند ملتقى خطوط السكك الحديدية.

لشد ما أتمنى لو أحارب من أجلها كرة أخرى، وأنا أعرفُ ما أعرف الآن، ونحن نملك ما نملك الآن. ولكنهم سوف يستولون عليها من جديد، والمشكلة الأساسية ستظل هي هي، ولن يكون ثمة من جديد غير هذا السؤال: من الذي يسيطر على الأجواء؟»

كان طوال هذا الوقت يتأمل مقدَّم الزورق المرهق الجميل الصّقال المُغلَّم بالنحاس على نحو دقيق ـ وقد لُمِّعَ النحاس كله تلميعاً فاتناً ـ وهو يشق عباب الماء الأسمر، ويواجه مشكلات السير الصغيرة.

لقد مضَوْا تحت الجسر الأبيض، وتحت الجسر الخشبي الذي لم يتمّ انشاؤه بعد. ثم إنهم غادروا الجسر الأحمر الممتدّ إلى اليمين وجَرَوْا تحت أول جسر أبيض عالٍ. وانتهوا إلى الجسر الحديدي الأسود المخرَّم القائم فوق القناة المفضية إلى ريبو نووفو [النهر الجديد]، واجتازوا الدعامتين اللتين شدّت كل منهما إلى الأخرى بالسلاسل ولكن من غير أن تتماسا: مثلنا نحن، كذلك قال الكولونيل لنفسه. لقد رأى إلى تيار الماء يندفع نحوهم، ولاحظ كيف ثلمّت السلاسل الخشب وأبَلْتهُ منذ أن رآهما أول مرة. وقال: هذه حالنا نحن. وهاتان الدعامتان نُصبان تذكاريان لنا. وما أكثر النصب التذكارية المشيدة لنا في قنوات هذه المدينة!

ثم إنهم واصلوا تقدمهم في تؤدة حتى المصباح الكبير القائم عند يمين المدخل المفضي إلى «القناة الكبرى» حيث بدأ المحرك يحتضر احتضاره المعدني الذي أحدث زيادةً طفيفة في السرعة.

عندئذ انحدر تحت الأكاديمية بين الدعائم التي اجتازوها، وقد كاد أن يمسّها، زورق من زوارق الديزل أسودُ مُثقَل بأحمال الحطب المقطع قطعاً قصيرة غليظة لكي تُستعمل وقوداً في بيوت «المدينة البحرية» الرطبة.

سأل الكولونيل المراكبيّ: «هذا الحطب من خشب الزان، أليس كذلك؟»

ـ «من خشب الزان وغيره من الخشب الأرخص منه والذي لا أذكر في هذه اللحظة اسمه.»

ـ «خشب الزان للنار المكشوفة كفحم الانتراسيت للموقد. من أين يقطعون خشب الزان ذاك؟»

ـ «أنا لست جبلياً. ولكني أحسب أنه يأتي مما وراء «باسّانو» على الضفة الأخرى من الـ «غرابّا». لقد ذهبت إلى الـ «غرابا» لأرى أين دُفن أخي. لقد صُرع في حملة شنوها من «باسّانو»، ولقد ذهبنا إلى المقبرة الكبيرة. ولكنا رجعنا من طريق «فيلتر». كان في استطاعتي أن أرى ثمة غابات ملتفةً عند الجانب الآخر فيما أنت تهبط الجبال إلى الوادي. لقد هبطنا تلك الطريق العسكرية، وكانوا آنذاك يجرّون مقادير ضخمة من الحطب.»

ـ «في أية سنة قُتِل أخوك على نهر الغرابّا؟»

ـ «عام ألف وتسعمئة وثمانية عشر. كان وطنياً، ألهبه الاستماع إلى حديث دانونزيو[1]، ولقد تطوّع قبل أن يُدعى أترابه إلى الخدمة

---

(1) Gabriele D'Annunzio (1863 ـ 1938) مؤلف وجندي إيطالي اشتهر بمغامراته ووطنيته الملتهبة. (المعرب)

العسكرية. إننا لم نعرفه بشكل جيّد لأنه قضى نحبه في سرعة بالغة.»

ـ «كم ولداً كنتم؟»

ـ «كنا ستة. لقد فقدنا اثنين وراء الـ «ايزونزو»[1]، وواحداً على الـ «بينزيزّا»، وواحداً على نجد الكارسو. ثم فقدنا هذا الأخ الذي أتحدث عنه على الـ «غرابّا»، وبقيت أنا وحدي.»

فقال الكولونيل: «سوف آتيك بمحرّك الـ «جيب» ذاك كاملاً غير منقوص، أما الآن فلنقلع عن التفكير السوداوي ولنبحث عن جميع المواطن التي يقيم فيها أصدقائي.»

كانوا يصعدون الآن في «القناة الكبرى»، ولقد كان من اليسير عليك أن ترى أين يقيم أصدقاؤك.

قال الكولونيل: «ذلك هو قصر الكونتيسّا داندولو.»

لم يقل، بل فكّر مجرد تفكير، أنها تخطّت الثمانين، وأنها بهيجة النفس مثل فتاة في مقتبل العمر، ولا تستشعر أي خوف من الموت. إنها تصبغ شعرها ليستحيل لونه إلى أحمر، وهو يبدو جميلاً جداً. إنها رفيق طيب، وامرأة رائعة.

كان قصرها بهيّ الطلعة، شُيّد على مبعدة غير يسيرة من القناة، وجُعلت في مقدمته حديقة، وبُني له مهبط إلى البحر خاصٌ به، حيث أقبلت في أوقات مختلفة غناديل[2] كثيرة تحمل على متونها أناساً جذلين مبتهجين لمّا تنقشع الغشاوة عن أعينهم. ولكن أكثرهم كان مبتهجاً لأنه كان على وشك الاجتماع بالكونتيسّا داندولو.

الآن، وفيما هم يصعدون في القناة، في وجه الريح الباردة المقبلة من ناحية الجبال، وقد بدت البيوت واضحة حادة الزوايا كشأنها في يوم من أيام الشتاء ـ ولقد كان يومهم ذاك شتوياً من غير

---

(1) Isonzo نهر يؤلف جزءاً من الحدود بين إيطاليا ويوغوسلافيا. (المعرب)

(2) جمع غندول.

ريب ـ رأوا سحر المدينة وجمالها. ولكن ذلك كان مرتبطاً، في ذهن الكولونيل، بمعرفته كثيراً من الناس الذين عاشوا في القصور؛ أو بمعرفته ـ إن لم يكن في تلك القصور من يقطنها الآن ـ لأي غرض كانت هذه المواطن المختلفة قد أُعدّت.

هناك يقوم قصر والدة آلفاريتو، كذلك حدَّث نفسه، ولكنه لم ينطق بهذه الكلمات.

إنها لا تطيل الإقامة هناك أبداً، وهي تقضي معظم أيامها في البيت الريفي قرب تريفيزو، حيث توجد أشجار كثيرة. لقد سئمت خلوّ «البندقية» من الأشجار. كانت قد فقدت رجلاً ممتازاً، فليس يثير شوقها الآن إثارة حقة غيرُ الفعالية والنشاط.

ولكن الأسرة أعارت القصر، ذات يوم، لجورج غوردون ـ اللورد بايرون[1] ـ وليس ينام الآن أحد في سرير بايرون أو في السرير الآخر الذي في الدور الأدنى حيث كان من دأبه أن يضطجع مع زوجة الغناديليّ.[2] إنهما لم يكونا مقدسين أو أثريين. لا، لقد كانا مجرد سريرين زائدين لم يستعملا في ما بعد لأسباب مختلفات، أو ربما احتراماً للورد بايرون الذي كان جدّ محبوب في هذه المدينة على الرغم من جميع الأخطاء التي ارتكبها. إن عليك أن تكون غلاماً طياشاً في هذه المدينة لكي تُحَبّ، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه. إنهم لم يبالوا قط، أقلّ مبالاة بروبرت براوننغ[3]، أو بمسز روبرت براوننغ، أو بكلبهما. فهؤلاء لم يكونوا بنادقة برغم كل ما تميزت به كتاباته عنها من براعة. ولكن ما الغلام الطياش، كذلك سأل نفسه. إنك تستعمل اللفظة على نحو يُعوزه الأحكام إلى حدّ

(1) الشاعر الإنكليزي المعروف. (المعرب)

(2) الغناديلي: الرجل الذي يجذف في الغندول.

(3) Browning شاعر إنكليزي كبير، 1812 ـ 1889. (المعرب)

يجعل من الخير لك أن تحاول تحديدها. أنا أحسب أن الطياش هو الرجل الذي يضع تمثيليته ثم ينفق عليها المال. أو هو مجرد الرجل الذي ينفق المال على تمثيليته. وأنا لا أفكر الآن بالمسرح، كذلك قال في نفسه. برغم كل ما قد ينطوي عليه المسرح من متعة.

وقد رأى الآن الدارة الصغيرة القائمة بجانب الماء، فبدت في عينيه بشعة مثل مبنى قد تراه وأنت على متن أحد القُطُر الحديدية التي تنقل الركاب من ثغر الهافر أو ثغر تشيربورغ عندما تبلغ في طريقك إلى العاصمة تلك الضاحية القائمة على أبواب باريس. كانت مغطاةً بأشجار يعوزها التنسيق، ولم تكن موطناً ترغب في الإقامة فيه إذا خُيّرت بين القبول والرفض. ومع هذا فقد عاش هو هناك.

لقد أحبوه لموهبته، ولأنه كان رديئاً، وكان شجاعاً. كان غلاماً يهودياً لا يملك شيئاً، ومع ذلك فقد ألهب البلاد بموهبته، وببلاغته. لقد كان أشدّ بؤساً من أيما شخصية عرفتها، وأكثر حقارة. ولكن الرجل الذي أفكر فيه لأقارنه به لم يقامر قط وقد خاض غمار الحرب، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه. والواقع أن غابرييل دانونزيو (لقد تساءلت دائماً تُرى ما اسمه الحقيقي، كذلك فكّر الكولونيل، لأن أحداً لا يسمّى دانونزيو في بلاد عملية، ولعله لم يكن يهودياً، وأية أهمية ليهوديته أو لا يهوديته) كان قد تنقّل من سلاح إلى آخر من أسلحة الجيش، كما تنقل من ذراعي امرأة إلى ذراعي امرأة أخرى.

كانت جميع أسلحة الجيش التي خدم دانونزيو في صفوفها سائغة مستعذبة، ولقد أنجز رسالته فيها بسرعة ويسر، ما عدا سلاح المشاة. لقد تذكّر كيف فقد دانونزيو إحدى عينيه في حادث ارتطام بينما كان يطير ـ بوصفه مراقباً ـ فوق تريستا أو «بولا» وكيف أنه حجب بعد ذلك عينه الضائعة تلك بعصابة ما بشكل دائم، وكيف أن الناس الذين لم يعرفوا حقيقة الأمر، ذلك بأن أحداً آنذاك لم يكن

يعرف تلك الحقيقة، حسبوا أن رصاصة أصابتها في الـ «فيليكي» أو «سان ميشيل»، أو أيما موطن وخيم آخر وراء «الكارسو» حيث مات كل من تعرفه أو أصيب بعجزٍ مُقعِد. ولكن دانونزييو كان، في الحق يبلي بلاءً بطولياً في الأشياء الأخرى. إن الجندي المنتظم في سلاح المشاة يتقن صناعة غريبة، كذلك قال في ذات نفسه. لعلها أغرب الصناعات قاطبة. لقد طار غابرييل، ولكنه لم يكن طياراً. لقد انخرط في سلاح المشاة ولكنه لم يكن جندياً من الجنود المشاة، وكانت المظاهر دائماً واحدة.»

وتذكّر الكولونيل ذات يوم عندما وقف دانونزييو، على رأس فصيلة من فصائل الهجوم، فيما كان المطر يهطل في أحد فصول الشتاء المتطاولة إلى ما لا نهاية، حين كان المطر لا يفتأ يهطل على نحو موصول، أو على الأقل حين كان يهطل على نحو موصول كلما استعرضت القوات أو وُجهت إليها الخُطَب، وكان دانونزييو بعينه المفقودة، المحجوبة بعصابة، ووجهه الأبيض. الأبيض مثل بطن سمكة من «سمك موسى» طازجة قُلبت في السوق ظهراً لبطن فليس يُرى جانبها البُنيّ وقد بدت وكأنها ماتت منذ ثلاثين ساعة وقف يهتف صائحاً: «الموت ليس كافياً!» وكان الكولونيل ـ وكان آنذاك مجرد ملازم ثانٍ ـ قد قال في ذات نفسه: «يا للجحيم! وما الذي يطلبونه منا أكثر من ذلك؟»

ولكنه كان قد استمع إلى الخطاب في غير انقطاع. وفي الختام، عندما طلب المقدَّم دانونزييو، وهو كاتب وبطل وطنيّ، بطل حقيقي مشهود له بذلك، إن لم يكن بدّ من أن يكون لنا أبطال، وكان الكولونيل لا يؤمن بالأبطال، من قواته أن يقفوا دقيقة صمت إجلالاً لموتانا الماجدين، وقف هو متصلباً وقفة الإجلال والاحترام. ولكن فصيلته التي لم تكن قد تتبّعت الخطاب، إذ لم يكن ثمة آنذاك مكبرات صوت، وكانت على مسافة لا تمكنها من سماع الخطيب، استجابت

استجابة رجل واحد خلال فترة الصمت إجلالاً لموتانا الماجدين بهتاف صارخ مدوٍّ «فليحي دانونزييو!»

لقد سبق لدانونزييو أن خَطَبَهُم قبل الانتصارات، وقبل الهزائم، ولقد عرفوا أن عليهم أن يهتفوا كلما تمهل الخطيب أو أمسك عن الكلام.

وكان الكولونيل ـ بوصفه ملازماً ثانياً محباً لفصيلته آنذاك ـ قد شاركهم وهتف بلهجة الأمر «فليحي دانونزييو!» صافحاً بذلك عن جميع أولئك الذين لم يستمعوا إلى المحاضرة أو الخطاب أو الخطبة، ومحاولاً ـ بقدر ما يستطيع ملازم ثانٍ أن يحاول أي شيء غير الصمود في موقع يتعذّر الدفاع عنه أو أداء دوره الخاص في هجومٍ ما بشيء من الذكاء ـ أن يشاركهم جريمتهم.

ولكنه كان الآن يمرّ بالمنزل الذي عاش فيه الغلام المضنى العجوز مع ممثلتِهِ الكبيرة، المحزونة، التي لم تنعم قط بحبّ الناس كما ينبغي لها أن تنعم، وفكّر في يديها الرائعتين، وفي محيّاها القُلّب الذي لم يكن جميلاً ولكنه كان قادراً على أن يمنحك الحب والمجد والبهجة والكآبة جميعاً، وفي الطريقة التي كان باستطاعة منحنى زندها أن يسحق بها قلبك، وقال في ذات نفسه: يا للمسيح! لقد ماتا، ولست أعرف حتى ذلك الموضع الذي دُفن فيه كل منهما. ولكنني أرجو من غير ريب أن يكونا قد استمتعا بالإقامة في ذلك المنزل.

قال: «جاكسون، هذه الدارة الصغيرة القائمة إلى اليسار كانت ملكاً لغابرييل دانونزييو، الذي كان كاتباً عظيماً.»

فقال جاكسون: «نعم، يا سيدي. أنا سعيد بأن أعرف ذلك عنه. إني لم أسمع به قط من قبل.»

فقال الكولونيل: «سوف أحيطك علماً بما كتب إذا ما رغبت في يوم من الأيام في قراءة آثاره. إن ثمة بعض الترجمات الجيدة لآثاره.»

فقال جاكسون: «شكراً، يا سيدي. إني لأحب أن أقرأه كلما وجدت متسعاً من الوقت. إن له لمنزلاً جميلاً عمليّ السّمة. ما الاسم الذي قلت لي إنه كان يحمله؟»

فأجابه الكولونيل: «دانونزيو. إنه كاتب.»

وأضاف في ما بينه وبين نفسه ـ غير راغب في أن يشوّش جاكسون، أو أن يعقّد الأشياء كما قد عقّدها على صاحبه مراتٍ عديدة في ذلك اليوم: كاتب، شاعر، بطل وطني، صائغ جَدَلية الفاشية، معجب بنفسه إلى حد فظيع، طيّار، آمرٌ ـ أو راكب ـ في طليعة مراكب الهجوم النسّافة السريعة، مقدّم (ليوتنان كولونيل) في سلاح المشاة من غير أن يعرف كيف يقود سرية بل من غير أن يعرف كيف يقود فصيلة على نحو صحيح؛ مؤلف الـ Notturno[1] العظيم المحبوب الذي نحبه، ورجل غرّ.

وأمامهم الآن كان مَعبَرٌ للغناديل عند الـ «سانت ماريا ديل جيغليو»، ووراء ذلك كان حوض الـ «غريتي» الخشبي.

ـ «هذا هو الفندق الذي سننزل فيه يا جاكسون.»

وأشار الكولونيل إلى القصر الجميل الصغير الوردي اللون، المؤلف من ثلاثة أدوار، والمتاخم للقناة. كان من قبل تابعاً «للفندق الكبير»، ولكنه أمسى الآن فندقاً مستقلاً ـ فندقاً ممتازاً أيضاً. ولعله كان خير الفنادق، إذا كنت غير راغب في من يتملقك، أو يضايقك من طريق المغالاة في العناية بك، أو من طريق المغالاة في التذلل لك، في مدينة حافلة بالفنادق الكبرى. ولقد كان الكولونيل يحب ذلك الفندق.

قال جاكسون: «يخيل إليّ أنه جيد.»

---

(1) وتعني بالإيطالية: ليليّ، أو ذو صلة بالليل.

فقال الكولونيل: «أجل، إنه جيد.»

ومضى الزورق البخاري ببسالة في محاذاة دعائم الحوض الخشبية. إن كل حركة يقوم بها، كذلك قال الكولونيل في نفسه، هي انتصار بسالة تلك الماكينة المعمّرة. إننا لا نملك اليوم خيول حرب مثل «المترحل» العجوز Old Traveller أو مثل «ليزيت» Lysette ماربوث الذي قاتل، شخصياً، في معركة «ايلو». إن لدينا بسالة القضبان البالية التي تأبى أن تنقصم، وبسالة رأس الأسطوانة الذي لا ينفجر، على الرغم من أن له ملء الحق في الانفجار وما إليه.

قال جاكسون: لقد «انتهينا إلى الحوض، يا سيدي.»

ـ «يا للجحيم، وإلى أين تريدنا أن ننتهي إذن أيها الرجل؟ أقفز إلى اليابسة ريثما أدفع إلى هذا الرياضي حسابه.»

والتفت إلى المراكبيّ وقال: «لقد اتفقنا على ثلاثة آلاف وخمسمئة لير، أليس كذلك؟»

ـ «نعم، يا زعيمي!»

ـ «أنا لن أنسى مسألة محرك الـ «جيب» الطاعن في السن. خذ هذه واشترِ لفرسك بعض الشوفان.»

وسمع الحمال، الذي كان يحمل الحقيبتين من جاكسون، هذا الكلام وضحك.

ـ «ليس ثمة بندقي واحد مستعد لأن يُصلح من شأن فرسه.»

فقال المراكبيّ: «إنها لا تزال تجري.»

فقال الحمال: «ولكنها لا تكسب أيّ سباق. كيف أنت، يا زعيمي؟»

فأجاب الكولونيل: «في حال لا أستطيع أن أكون على خير منها. كيف حال أعضاء المنظمة؟»

ـ «جميع الأعضاء بخير.»

فقال الكولونيل: «حسن. سوف أدخل وأرى المايسترو الأعظم.»

ـ «إنه ينتظرك، يا زعيمي.»

فقال الكولونيل: «فلنوفرّ عليه الانتظار، يا جاكسون. في استطاعتك أن تمضي إلى الردهة، مع هذا السيد، وتطلب إليهم أن يسجلوني بين نزلائهم.» ثم التفت إلى الحمال وقال: «حاول أن تؤمّن للرقيب (السرجانت) حجرة. إننا سنقضي هذه الليلة فقط في هذا المكان.»

ـ «كان البارون آلفاريتو يبحث عنك هنا.»

ـ «سوف التقيه في حانة هاري.»

ـ «حسن، يا زعيمي.»

ـ «أين المايسترو الأعظم؟»

ـ «سوف أبحث لك عنه.»

ـ «قل له إنه يستطيع أن يجدني في المشرب.»

[7]

وكان المشرب يقع عبر ردهة الـ «غريتي» مباشرةً، على الرغم من أن لفظة «ردهة» ـ قال الكولونيل في نفسه ـ لم تكن هي التعبير الملائم لوصف ذلك المدخل الأنيق. وفكّر: ألم يصف غييوتو دائرة؟ لا، لقد كان ذلك في الرياضيات. وكان خير ما تذكره وأحبّه من النوادر المتصلة بذلك الرسام قول غييوتو، وهو يرسم الدائرة الكاملة: «لقد كانت سهلة». من الذي قال ذلك ـ بحق الجحيم ـ وأين؟

ـ «طاب مساؤك، أيها المستشار الخاص.» كذلك قال للساقي الذي لم يكن عضواً في المنظمة مدفوع الراتب على نحو كامل، والذي لم يكن الكولونيل راغباً مع ذلك في إغضابه. «أية خدمة أستطيع أن أسديها إليك؟»

ـ «اشرب يا زعيمي.»

وأطل الكولونيل من نوافذ المشرب وبابه وسرّح بصره في مياه «القناة الكبرى.» كان في استطاعته أن يرى مَربَط الغناديل الكبير الأسود، وظلال أضواء الأصيل المتأخر الشتوية على صفحة الماء الذي عبثت به الريح. وعَبْرَ القناة كان القصر العتيق، وكان مركب شراعي أسود عريض من مراكب نقل الخشب يصعّد في القناة، وكان مجذافاها الأماميان العريضان يناضلان ضد موجة ما، على الرغم من أن الريح كانت تدفع المركب من خلف.

فقال الكولونيل: «إسقني كأساً من المارتيني المزّا إلى أبعد حد. مارتيني مزدوج.»

في تلك اللحظة وفد المايسترو الأعظم من الحجرة. كان يرتدي ملابسه الرسمية كنادلٍ أكبر، وكان وسيماً حقاً كما ينبغي للرجل أن يكون، وكانت انفعالاته الباطنية مسطورة على محيّاه، فابتسامته تنبعث من فؤاده، أو من أيما مكان يمكن اعتباره مركز جسده، وتطفو في صراحة وجمال على السطح، الذي هو وجهه.

كان ذا وجه وسيم وأنف طويل مستقيم كالذي يتميز به أبناء ذلك الجزء من فينيتو[1] الذي هو موطنه. وكانت له تانك العينان الرقيقتان البهيجتان الصادقتان وذلك الشعر الأبيض الوقور المتناسب مع سنّهِ، وكانت أعلى من سنّ الكولونيل بسنتين اثنتين.

تقدّم متبسّماً، ودوداً، وعلى نحو تآمري برغم ذلك كله، إذ كان كل منهما يشارك الآخر كثيراً من أسراره، وبسط يده التي كانت يداً ضخمة طويلة، قوية، ذات أصابع شبيهة بِمبْسَط[2] الصيدلي، مصونةً في عناية على نحو لائق بمركزه، أو قل على نحو يحتمه مركزه. وبسط الكولونيل، بدوره، يده التي أصابها الرصاص مرتين فشوهها تشويهاً طفيفاً. وهكذا تمت المصافحة بين اثنين من سكان «فينيتو» السابقين، وكلاهما أخ للآخر بوصفه عضواً في الجنس البشري، ذلك النادي الوحيد الذي يدفعان الرسوم إليه دون أيّ نادٍ آخر، وكلاهما أخ للآخر أيضاً في حبه لبلدٍ عريق كثيراً ما يتقاتل الناس من أجل الاستيلاء عليه فيخرج دائماً منتصراً في هزيمته، بلدٍ كانا كلاهما قد دافعا عنه في شبابهما.

وكانت مصافحتهما طويلة إلى حد كافٍ لإشعارهما، في قوة،

---

(1) Veneto مقاطعة في شمال شرقي إيطالية. (المعرب)

(2) أداة أشبه بسكين عريضة يبسط بها الصيدلي عقاقيره ويخلطها.

متعة اللقاء وحرارته. قال رئيس النُذُل: «يا زعيمي!»

فقال الكولونيل: «أيها المايسترو الأعظم!»

ثم إن الكولونيل سأل المايسترو الأعظم أن يشاركه الشراب، ولكن المايسترو الأعظم قال إنه لا يستطيع لإنشغاله في أداء عمله. كان ذلك متعذراً، وكان محظوراً أيضاً.

فقال الكولونيل: «. . . .[1] المحظور!»

فقال المايسترو الأعظم: «طبعاً. ولكن على كل امرئ أن يذعن لأحكام واجبه، والقواعد هنا معقولة، وعلينا جميعاً أن نعمل وفقها؛ أنا على الخصوص. إنها مسألة وصية.»

فقال الكولونيل: «إنهم لم يجعلوك مايسترو أعظم لغير ما سبب».

ـ «أعطني كأساً صغيرة من «الكاربانو»، كذلك قال المايسترو الأعظم للساقي الذي كان لا يزال خارج المنظمة لسبب صغير غير محدّد وغير منصوص عليه. «لكي أشربه على صحة المنظمة.»

وهكذا كرع الكولونيل والمايسترو الأعظم كأسيهما في سرعة خاطفة مخالفين في ذلك الأوامر، منتهكين مبدأ الوصية والمثل في القيادة. لم يتعجلا ذلك، والقلق لم يعصف بالمايسترو الأعظم. لقد اصطنعا السرعة في ذلك بكل بساطة.

قال الكولونيل: «والآن فلنناقش شؤون المنظمة.»

فقال المايسترو الأعظم: «إننا نفعل هذا. وإلاّ أعلنت أن ذلك كذلك.»

فقال الكولونيل: «تابع.»

وكانت المنظمة، وهي جمعية خياليةٌ محض، قد انشئت إثر

---

(1) هنا موضع شتيمة مقذعة محذوفة في الأصل الإنكليزي أيضاً. (المعرب)

سلسلة من المحادثات بين المايسترو الأعظم، والكولونيل، وكان اســـمـــهـــا El Ordine Militar, Nobile y Espirituoso de los Caballeros de Brusadelli أي المنظمة العسكرية النبيلة والمقدسة لفرسان بروساديلي. وكان كل من الكولونيل ورئيس النُدُل يتكلم الإسبانية، وإذ كانت هذه اللغة خير اللغات لإنشاء منظمات الفرسان فقد استخدماها في تسمية هذه المنظمة التي دُعيت على اسم رجل ميلاني متكالب على الربح المحرم، من أصحاب البليارات المتهربين من دفع الضرائب، الرديئي السمعة إلى أبعد الحدود. رجل كان ـ خلال نزاع على الملكية ـ قد اتهم زوجته الشابة، على نحو علنيّ وأمام هيئة المحكمة، بأنها حرمته القدرة على التمييز من طريق مطالبها التناسلية المتطرفة إلى حد استثنائي.

فقال الكولونيل: «أيها المايسترو الأعظم، هل جاءتك أية رسالة من قائدنا، قائدنا الموقر؟»

ـ «ولا كلمة. إنه صامت في هذه الأيام.»

ـ «لا ريب في أنه يفكر.»

ـ «لا ريب.»

ـ «لعله يضع الخطة لأعمال جديدة أشد إمعاناً في الخزي والعار.»

ـ «لعله. فهو لم يكتب إليّ أية كلمة.»

ـ «ولكن في ميسورنا أن نثق به.»

ـ «إلى أن يموت.» كذلك قال المايسترو الأعظم. «وبعد ذلك سيكون في ميسوره أن يتحمّص في جهنم، ولسوف نمجّد ذكراه.»

وقال الكولونيل: «جييورجي! قدِّم إلى المايسترو الأعظم كأساً صغيرة أخرى من الكاربانو.»

وقرعا الكأس بالكأس.

وصاح الكولونيل: «جاكسون، أنت الآن على أرض المدينة، وفي استطاعتك أن توقع هنا من أجل الطعام. أنا لا أريد أن أراك حتى الساعة الحادية عشرة، غداً، في الردهة إلاّ إذا أصابك بلاء ما. هل لديك مال؟»

ـ «نعم يا سيدي» كذلك قال جاكسون ثم أضاف في ما بينه وبين نفسه: إن ابن العاهرة هذا مخبول كما يقولون، من غير ريب. لقد كان في استطاعته أن يناديني بدلاً من أن يعمد إلى الصياح.

كان جاكسون قد دخل الحجرة ووقف أمامه متظاهراً بالانتباه.

وقال الكولونيل: «لا أريد أن أراك. لقد سئمتُ النظر إليك، لأنك مستسلم للهمّ، ولأنك لا تعرف المرح. امرح بعض الشيء اكراماً للمسيح!»

ـ «سمعاً وطاعة، يا سيدي.»

ـ «هل تفهم ما قلت؟»

ـ «نعم يا سيدي.»

ـ «أعِذه على مسمعي!»

ـ «رونالد جاكسون، ت 5، الرقم المتسلسل 100678، سوف يثبت وجوده في ردهة فندق غريتي هذا في الساعة 11,00 غداً صباحاً، ولست أدري التاريخ يا سيدي، ولسوف يغرب عن وجه الكولونيل، ويأخذ بأسباب المرح. أو،» كذلك أضاف، «سوف يبذل كل جهد ممكن لبلوغ هذه الغاية.»

ـ «أنا متأسف، يا جاكسون.» كذلك قال الكولونيل. «إني . . .[1]»

فقال جاكسون: «أرجو أن أخالف الكولونيل في رأيه بنفسه.»

---

(1) موضع شتيمة مقذعة محذوفة في الأصل طبعاً.

فأجابه الكولونيل: «شكراً، يا جاكسون. ربما لم أكن كذلك. أرجو أن تكون على صواب. والآن اخلع عن نفسك أدرانها. إن لك حجرة هنا، أو يجب أن يكون لك، وفي استطاعتك أن توقّع من أجل الطعام. والآن حاول أن تمرح بعض الشيء.»

فقال جاكسون: «سمعاً وطاعة، يا سيدي.»

حتى إذا انصرف قال المايسترو الأعظم للكولونيل: «مَن الغلام؟ أهو أحد أولئك الأميركيين المحزونين؟»

فأجابه الكولونيل: «نعم. وحق المسيح إن لدينا عدداً منهم كبيراً. إنهم محزنون، منافقون، متخمون، يعوزهم التدريب. وإذا كان التدريب يعوزهم فالذنب في ذلك ذنبي أنا. ولكن لدينا نفراً من الممتازين، أيضاً.»

- «هل تعتقد أن في استطاعتهم أن يخوضوا غمار معارك الـ «غرابا»، والـ «باسوبيو»، والـ «باسّو بيافا» كما خضناها نحن؟»

- «الممتازون منهم يستطيعون. وربما على نحو أفضل. ولكنك تعرف أنهم، في جيشنا، لا يذهبون إلى حد إطلاق النار لإحداث الجراح المتعمدة إحداثاً ذاتياً.»

فقال المايسترو الأعظم: «يا للمسيح!» لقد تذكّر هو والكولونيل أولئك الجنود الذين قرروا أنهم لا يريدون أن يموتوا، غير مفكرين أن من يموت يوم الثلاثاء غير مضطر إلى أن يموت الجمعة، وكيف كان أحد أولئك الجنود يلف بكيس رمل رِجل زميل له مطوّقةً بعصابة ساق لكي لا يترك أي أثر لحروق بارود، ثم يطلق النار على صديقه من مسافة يعتقد أن في استطاعته أن يصيب منها رَبلة ساقه من غير أن يصيب العظم، ثم يطلق النار مرتين فوق المتراس تبريراً لتلك الإصابة. كان كل منهما يعرف ذلك، ومن أجلِ هذا وبسبب من كرهٍ حقيقي عميق لكل الذين افادوا من الحرب وربحوا المغانم من ورائها عمدا إلى إنشاء تلك المنظمة.

لقد عرفا كلاهما ـ وهما اللذان أحبّ كل منهما الآخر واحترمه ـ كيف كان الفتيان الفقراء الذين لم يكونوا راغبين في الموت يقتسمون محتويات علبة من أعواد الثقاب لإيذاء أنفسهم على نحو ينجيهم من المشاركة في الهجوم الدموي التالي على خط النار.

لقد عرفا أشياء عن الفتيان الآخرين الذين كانوا يضعون قطع العشرة سنتيمات النقدية تحت آباطهم لكي يصابوا باليرقان. وعرفا، أيضاً أشياء عن الفتيان الأثرياء الذين كانوا يعمدون في مختلف المدن إلى حَقن البارافين تحت رَضفات رُكبهم لكي يجتنبوا الذهاب إلى الحرب.

لقد عرفنا كيف كان الثوم يُصطنع لإحداث بعض الآثار التي تمكّن المرء من التخلف عن القيام بهجوم ما، وعرفا جميع الحيل الأخرى أو الكثرة العظمى من الحيل الأخرى. ذلك بأن أحدهما كان رقيباً (سرجانت) والآخر كان ملازماً ثانياً في سلاح المشاة، وكانا قد حاربا في المواقع الرئيسية الثلاثة، على الـ «باسوبيا» والـ «غرابا» والـ «بيافا»، حيث كان ذلك كله مفهوماً.

وكانا قد شاركا، أيضاً، في المجزرة الحمقاء الأقدم عهداً والتي دارت رحاها في الـ «ايزونزو» والـ «كارسو». ولكنهما كانا كلاهما خجلين بأولئك الذين أمروا بأحداث تلك المجزرة ولم يفكرا بها إلاّ كشيء أحمق مُخزٍ يجب أن يُنسى، وتذكرها الكولونيل تقنياً كشيء يتعلم منه أشياء وأشياء. وهكذا أنشأ الآن منظمة فرسان بروساديلي، تلك المنظمة النبيلة المقدسة، وكانت تضم خمسة أعضاء ليس غير.

وسأل الكولونيل المايسترو الأعظم: «ما أنباء المنظمة؟»

ـ «لقد رقينا الطاهي في الـ «ماغنيفيشانت» Magnificent إلى رتبة كومانداتور[1] لقد تصرّف تصرُّف رجُلٍ ثلاث مرات في عيد

(1) فارس عالي الرتبة.

ميلاده الخمسين. ولقد قبلتُ تقريره من غير تحقيق. فهو لم يكذب طوال عمره.»

ـ «أجل، إنه لم يكذب طوال عمره. ولكنها مسألة يجب عليك أن لا تطلق العنان فيها لنزعتك إلى التصديق.»

ـ «لقد صدقته، كان يبدو منهوك القوى.»

ـ «في استطاعتي أن أتذكره يوم كان غلاماً طياشاً، ولقد دعوناه آنذاك الرجل الضخم ذا اللون الكرزيّ.»

ـ «وأنا أيضاً.» Anch'io

ـ «هل لديك أية خطط بعينها تستطيع المنظمة أن تقوم بتنفيذها خلال الشتاء؟»

ـ «لا، أيها القائد الأعلى.»

ـ «هل تعتقد أن علينا أن نرفع آيات الولاء لباسياردي المبجل؟»

ـ «كما تشاء؟»

فقال الكولونيل: «فلنرجئ ذلك.» وفكّر الكولونيل لحظة ثم طلب كأساً آخر من المارتيني الصرف.

ـ «هل تعتقد أن في إمكاننا أن ننظم مظاهرة ولاء في موقع تاريخي ما، مثل سان ماركو (القديس مرقص) أو الكنيسة العتيقة في تورشيلو تكريماً لشفيعنا العظيم، بروساديلي، الموقر؟»

ـ «لست واثقاً من أن السلطات الدينية سوف تجيز ذلك في هذه اللحظة.»

ـ «أذن فلنطرح كل فكرة تقول بالقيام بمظاهرات عامة خلال هذا الشتاء، ولنعمل ضمن نطاق ملاكاتنا العسكرية، لمصلحة المنظمة.»

فقال المايسترو الأعظم: «هذا هو الموقف الأسلم. سوف نعيد تنظيم قواتنا.»

ـ «وكيف أنت، شخصياً؟»

فقال المايسترو الأعظم: «هائل! إن لديّ ضغط دم واطئاً، وقُرَح معِدة، وعليّ ديون.»

ـ «هل أنت سعيد؟»

فقال المايسترو الأعظم: «دائماً. أنا أحب عملي حباً شديداً، لأني لألتقي شخصيات استثنائية ممتعة، وكثيراً من البلجيكيين أيضاً. إنهم ما نملكه هذا العام بدلاً من الجراد. أما في الأعوام السابقة فقد كان عندنا الألمان. ما العبارة التي قال فيها قيصر: «وأشجع هؤلاء هم البلجيكيون؟» ولكنهم ليسوا أفضلهم بزةً. ألا توافقني؟»

فقال الكولونيل: «لقد رأيتهم في بزّة حسنة، في بروكسل. عاصمةٌ بهيجة ممتلئة المعدة. انتصر، أو انكسر، أو انسحب.»

ـ «كان ينبغي لنا أن نقاتل في الفلاندر، في الأيام الخالية.»

فقال الكولونيل: «إننا لم نولد في الأيام الخالية. وهكذا لم يكن في استطاعتنا، أوتوماتيكياً، أن نقاتل آنذاك.»

ـ «لشدّ ما أتمنى لو استطعنا أن نقاتل مع الكوندوتييري[1]، عندما كان كل ما يتعين علينا أن نعمله هو أن نتفوق عليهم بحُسن الرأي فتستسلم قواتهم. إن في استطاعتك أن تقدح زناد الفكر، وفي استطاعتي أن أنقل أوامرك.»

ـ «لو تحققت أمنيتك إذن لكان علينا أن نستولي لهم على بضع مدن لكي نحترم مقدرتنا على قدح زناد الفكر.»

فقال المايسترو الأعظم: «ولكان خليقاً بنا أن ننهب تلك المدن، إذا ما دافعوا عنها. على أي المدن كنت تفضل أن تستولي؟»

فأجابه الكولونيل: «ليس على هذه. لقد كان خليقاً بي أن أوثر

---

(1) Condottieri في إيطالية وغيرها، وخصوصاً في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ضباط محترفون أو زعماء جنود مرتزقة، كانوا يعملون في خدمة الأمراء المتحاربين والدويلات المتحاربة. (المعرب)

الاستيلاء على «فيسينتزا»، و «بيرغامو»، و «فيرونا». وليس من الضروري أن التزم. هذا الترتيب.»

ـ «وعلى مدينتين أخريين أيضاً.»

فقال الكولونيل: «أدري». كان قد عاد، الآن، كولونيلاً كرة أخرى وكان سعيداً. «لقد تصورت أن من الخير لي أن أقوم بالتفاف حول «بريشيا»، وأنها لا بدَّ أن تسقط من تلقاء ذاتها.»

ـ «وكيف أنت، أيها القائد الأعلى؟» كذلك قال المايسترو الأعظم. ذلك بأن هذا الاستيلاء على المدن كان قد نقله إلى مجال لا يفهم من شؤونه شيئاً.

كان لا يستشعر الغربة في بيته الصغير في تريفيزو، المحاذي لمياه النهر المتدفقة تحت الأسوار العتيقة. لقد تماوجت الطحالب مع التيار، وتربصت الأسماك تحت ستار الطحالب ثم انقضّت على الحشرات التي لامست الماء عند الغسق. وكان لا يستشعر الغربة، أيضاً، في جميع العمليات التي لا تحتاج إلى أكثر من سرية واحدة فهو يفهمها على نحو واضح كمثل فهمه الوجه الأفضل لتقديم صحاف الطعام على مائدة صغيرة.

ولكن ما إن عاد الكولونيل كولونيلاً مرّة أخرى، كما قد كان من قبل، وشرع يفكّر بلغة بعيدة جداً عن فهمه، بُعدَ حساب التفاضل والتكامل عمن لا يعرف غير الحساب، حتى استشعر أنه غريب عن هذه الأجواء، وأن محادثتهما أمست متكلفة، وتمنى لو يرجع الكولونيل إلى الكلام على الأشياء التي عرفناها معاً يوم كانا ملازماً ثانياً ورقيباً.

سأله الكولونيل: «وما الذي كان خليقاً بك أن تفعله بشأن مانتوفا؟»

ـ «لست أدري، يا زعيمي. أنا لا أعرف من تقاتل، ولا القوى التي يملكونها، ولا القوى الخاضعة لإمرتك.»

ـ «لقد حسبت أنك قلت إننا كنا من جماعة الكوندوتييري، وأننا أقمنا قاعدتنا في هذه المدينة أو على الـ «بادوفا».

فقال المايسترو الأعظم، دون إحساس بالصِّغَر: «يا زعيمي، أنا لا أدري شيئاً، في الحق، عن الكوندوتييري. ولا كيف قاتلوا آنذاك. كل ما قلته هو أني كنت أتمنى لو أني قاتلت تحت إمرتك في تلك العهود.»

ـ «لم يعد ثمة شيء من مثل تلك العهود.» كذلك قال الكولونيل، وتحطمت الرُّقية.

يا للجحيم! ربما لم يكن ثمة أيما رقْيَةٍ البتّة، فكّر الكولونيل. وقال لنفسه: «إلى الجحيم بك! اقلع عن هذا التفكير، وكن مخلوقاً بشرياً بعد أن بلغت من العمر نصف قرن.»

قال للمايسترو الأعظم: «خذ كأساً أخرى من الكاربانو.»

ـ «أعتقد أنك سوف تجيز لي أن أرفض، يا زعيمي، بسبب قرحة المعدة، أليس كذلك؟»

ـ «أجل، أجل، طبعاً. يا غلام، ما اسمك، جييورجي؟ ايتني بكأس آخر من المارتيني الصِرْف». ثم أضاف بالإيطالية: «كأس آخر جد صِرْف. صرف ومضاعف.» Secco, molto secco e doppio

تحطيم الرقى، كذلك قال في نفسه. إن هذه ليست هي صناعتي. صناعتي هي قتل الرجال المسلحين. والرقية يجب أن تكون مسلحة إذا كان لي أن أحطمها. ولكننا قتلنا أشياء كثيرة لم تكن مسلحة. حسناً، يا محطم الرقى، اسحب كلامك.»

وقال: «أيها المايسترو الأعظم، أنت لا تزال مايسترو أعظم، وإلى الجحيم بالكوندوتييري!»

ـ «لقد ذهبوا إلى الجحيم منذ سنوات عديدة، أيها القائد الأعلى.»

فقال الكولونيل: «هذا صحيح تماماً.»

ولكن الرقية كانت قد تحطمت.

قال الكولونيل: «سوف أراك على العشاء. ما عندكم من ألوان الطعام؟»

ـ «سوف يكون عندنا كل ما ترغب فيه، فإذا أعوزنا شيء بعثنا بمن يأتيك به.»

ـ «هل لديكم شيء من الهليون الطازج؟»

ـ «أنت تعلم أننا لا نستطيع أن نحصل عليه في هذه الشهور. إنه يأتينا في نيسان، ومن باسّانو.»

فقال الكولونيل: «إذن فكّر لي بطعام ما، ولسوف آكله.»

فسأله كبير النُدُل: «كم شخصاً ستكونون؟»

أجاب الكولونيل: «سوف نكون اثنين. متى تقفلون المطعم؟»

ـ «سوف نقدّم إليك طعام العشاء في أيما ساعة متأخرة تودّ أن تتناول الطعام فيها.»

فقال الكولونيل: «سوف أحاول أن أكون هناك في ساعة معقولة. إلى اللقاء أيها المايسترو الأعظم». ابتسم وبسط للمايسترو الأعظم يده الشائهة.

فقال المايسترو الأعظم: «إلى اللقاء، أيها القائد الأعلى،» وعادت الرقية إلى الوجود، وكانت كاملة تقريباً.

ولكنها لم تكن كاملة تماماً، ولقد عرف الكولونيل ذلك وقال في ذات نفسه: لماذا اتصرف دائماً وكأنني نغل؟ ولماذا لا أستطيع أن أرجئ صناعة الحرب هذه، وانقلب إلى رجل كريم صالح كما وددت دائماً أن أكون؟

أنا أحاول دائماً أن أكون عادلاً، ولكني فظ، وإني لوحشيّ، وليس معنى هذا أني أقمت خطوط الدفاع ضد...... إن عليّ أن

أكون رجلاً أفضل يجري في عروقه مقدار من دم الخنازير أقلّ، في الفترة القصيرة التي بقيت لي على ظهر هذه الأرض. وقال لنفسه: «سوف نجرب ذلك الليلة.» ثم أضاف: «من؟ وأين؟ وليساعدني اللّه على أن لا أكون طالحاً.»

- «جييورجي!» كذلك قال للساقي، الذي كان ذا وجه أبيض كوجه المجذوم، ولكنه خلوٌ من الورم وعاطل عن البريق الفضيّ.

والواقع أن جييورجي لم يكن يحب الكولونيل كثيراً، أو لعله كان مجرد ابن من أبناء مقاطعة بييدمونت، فهو لا يحب أحداً حباً حقيقاً. وهو شيء غير مستغرب في الأقوام الباردين الوافدين من أرض واقعة على الحدود بين بلدين. إن أولئك الأقوام لا يثقون بأحد، ولقد عرف الكولونيل ذلك، وكان لا يتوقع من فاقد الشيء أن يعطيه.

- «جييورجي!» كذلك قال للساقي ذي الوجه الشاحب. «سجل هذه الأشياء على حسابي، من فضلك.»

وانصرف، ماشياً كما تعوّد دائماً أن يمشي، في ثقة مغالىً بها بعض الشيء، حتى في الأحوال التي كانت فيها تلك الثقة غير ضرورية. وبعزمه المجدَّد دائماً على أن يكون كريماً، محتشماً، وصالحاً، ألقى التحية على بواب الفندق، وكان صديقاً له، وعلى المدير المساعد، الذي كان يتكلم اللغة السواحلية، وكان في وقت ما أسير حرب في كينيا، وكان رجلاً من أشد الناس قرباً إلى القلب، فتى وسيماً يمور غضارةً ونضارةً، فتىً واسع التجربة، ولعله لم يكن بعد قد انضوى تحت راية «المنظمة».

سأله: «وكيف حال الفارس الرسمي cavaliere ufficiale الذي يدير هذا الفندق؟ صديقي؟»

فأجابه المدير المساعد: «إنه ليس هنا الآن» ثم أضاف: «مؤقتاً، طبعاً.»

فقال الكولونيل: «احمل إليه تمنياتي. وأبعث معي من يدلني على حجرتي.»

ـ «إنها الحجرة المعهودة. ألا تزال راغباً فيها؟»

ـ «نعم. هل احطت الرقيب (السرجانت) بعنايتك؟»

ـ «إنه ينعم بعناية حسنة.»

فقال الكولونيل: «حسن.»

ومضى الكولونيل إلى حجرته يصحبه الغلام الذي حمل حقيبته.

ـ «من هنا يا زعيمي!» كذلك قال الغلام عندما توقف المصعد في شيء من الاختلال الهيدروليّ (المائي) عند الدور الأعلى.

وسأله الكولونيل: «ألا تستطيع أن تسّير المصعد كما ينبغي له أن يسير؟»

فأجابه الغلام: «لا، يا زعيمي. إن التيار لا يستقر على حال.»

[8]

لم يقل الكولونيل شيئاً، وتقدم الغلام مجتازاً الرواق. كان رواقاً واسعاً، عريضاً، عالي السقف. وكان ثمة فسحة طويلة ظاهرة بين أبواب الحجرات على جانب «القناة الكبرى». وطبيعيّ، وقد كان قصراً، أن لا يكون ثمة حجرات خالية من المشاهد الفاتنة، ما خلا الحجرات المخصصة للخدم.

وجد الكولونيل المسافة طويلة، على الرغم من أنها قصيرة جداً. حتى إذا برز النادل المكلف بالسهر على الحجرة، قصيراً أسمر ذا عين زجاجية مستقرة في محجر عينه اليسرى، غير قادر على أن يبتسم ابتسامته الكاملة الحقيقية فيما كان يدير المفتاح الكبير في القفل. تمنى الكولونيل لو ينفتح الباب في سرعة أعظم.

قال: «إفتحه!»

فقال النادل: «سوف أفعل، يا زعيمي. ولكنك تعرف هذه الأقفال.»

أجل، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه. أنا أعرفها، ولكنني أتمنى لو يُوفّق إلى فتحه.

ـ «كيف حال أسرتك؟» قال هذا للساقي الذي كان قد فتح الباب على مصراعيه بحيث أمسى الكولونيل، وقد اجتاز العتبة، ضمن نطاق الحجرة ذات الخزانة العالية الداكنة، ولكن المزودة بمرايا حسنة،

وذات السريرين الجيدين، والثريا الضخمة، والاطلالة ـ من خلال النوافذ التي لا تزال مغلقة ـ على مياه «القناة الكبرى» التي عبثت بها الريح.»

كانت القناة الآن رمادية كالفولاذ، تحت ضوء الشتاء الخاطف الواهن. وقال الكولونيل: «آرنالدو، افتح النوافذ!»

ـ «ثمة رياح شديدة، يا زعيمي، والحجرة رديئة التدفئة بسبب من ندرة الطاقة الكهربائية.»

فقال الكولونيل: «بسبب من ندرة الأمطار. افتح النوافذ. افتحها كلها.»

ـ «كما تريد، يا زعيمي.»

وفتح النادل النوافذ، فاندفعت ريح الشمال إلى الحجرة.

ـ «أرجوك أن تتلفن لمكتب الإدارة وتسألهم أن يصلوني بهذا الرقم.» فتلفن النادل، فيما كان الكولونيل في الحمام.

وقال: «الكونتيسة ليست في البيت، يا زعيمي. إنهم يعتقدون أنك قد تجدها في حانة هاري.»

ـ «إنك تجد كل شيء معروف على سطح الأرض، في حانة هاري.»

ـ «أجل يا زعيمي، ما عدا السعادة، ربما.»

فأكد له الكولونيل قائلاً: «بل لأني لأجد فيها السعادة أيضاً. السعادة، كما تعلم، هي عيد غير ثابت التاريخ.»

فقال النادل: «أنا أعي ذلك. لقد جئتك بشراب كامباري مرير وبزجاجة غوردون جين. هل أُعِدّ لك كأس كامباري مع الجن والصودا؟»

فقال الكولونيل: «أنت غلام طيب. من أين جئت بها؟ من المشرب؟»

ـ «لا. لقد اشتريتها خلال غيبتك لكي لا تضطر إلى انفاق المال في المشرب. المشرب غال جداً.»

فأقرّه الكولونيل على هذا بقوله: «إني أوافقك. ولكن ليس ينبغي لك أن تنفق مالك الخاص على غرض كهذا.»

ـ «انتهزتُ فرصة. ولقد انتهزنا كلانا كثيراً من الفرص. إن زجاجة «الجن» كلفتني 3200 لير، وهي شرعية. أما الكامباري فكلفّني ثمانمئة.»

فقال له الكولونيل: «أنت غلام طيب جداً. كيف كانت البطّات؟»

ـ «إن زوجتي لا تزال تتحدث عنها حتى الآن. فنحن لم نفز في أيما يوم من الأيام بالبط البري، لأنه غال جداً ولا ينسجم مع طريقة حياتنا. ولكن واحداً من جيراننا علمّها كيف تطهوها، ولقد شاركنا أولئك الجيرانُ أنفسهم في أكلها. أنا لم أعرف من قبل قط أن هناك ما هو لذيذ الطعم إلى هذا الحد. فما أن تطبق أسنانك على شرحة صغيرة من اللحم حتى تستحوذ عليك بهجة تكاد أن تكون صعبة التصديق.»

ـ «ذلك هو رأيي، أيضاً. فليس ثمة ما هو ألذّ في الحلوق من ذلك البط السمين الآتي من وراء الستار الحديدي. وأنت تعلم أن خط طيرانه هو عبر حقول القمح الواسعة المنبسطة على الدانوب. إن ما لدينا هنا يمثل هجرة صغيرة من هجرات الطيور، ولكنها كانت ولا تزال، منذ ما قبل اختراع البنادق، تتخذ السبيل نفسه.»

فقال النادل: «أنا لا أعلم شيئاً عن إطلاق النار من أجل القنص. لقد كنا قوماً معدمين أكثر مما ينبغي.»

ـ «ولكن كثيراً من الناس الذين لا يملكون مالاً يخرجون للقنص في الـ «فينيتو.»

ـ «أجل. من غير ريب. إن المرء ليسمعهم يطلقون النار طوال

الليل. ولكننا كنا أفقر من أن نقدر على ذلك؛ لقد كنا أفقر مما تستطيع أن تعلم، يا زعيمي.»

ـ «أعتقد في استطاعتي أن أعلم.»

ـ «ربما،» كذلك قال النادل. «لقد احتفظت زوجتي بالريش كله، وقد سألتني أن أشكرك.»

ـ «إذا ما نعمنا بعد غدٍ بيوم محظوظ فلا بدَّ أن نفوز بمقدار وافر من البط الكبير ذي الرؤوس الخضراء. قل لزوجتك إننا، إذا واتانا الحظ، فسوف يكون لدينا بطّ شهيّ المذاق، جميل الريش، سمين كالخنازير بفضل ما أصابه عند الروس من غذاء.»

ـ «ما رأيك في الروس، إن لم يكن من قلة الذوق أن أسألك، يا زعيمي؟»

ـ «إنهم أعداؤنا المقبلون. وهكذا فإنني، كجنديّ، على استعداد لأن أقاتلهم. ولكني أحبهم كثيراً، ولم أعرف طوال حياتي شعباً أروع منهم ولا أشدّ شبهاً بنا.»

ـ «إن الحظ لم يُسعدني قط بمعرفتهم.»

ـ «سوف تسعد بمعرفتهم، أيها الغلام. إلاّ إذا أوقفهم باسياردي المبجل عند خط الـ «بيافا»، الذي هو نهر لم يعد يشتمل على شيء من الماء. لقد سَيْفنوه(1) للأغراض المائية الكهربائية. ولعل باسياردي المبجل أن يحارب هناك. ولكني لا أعتقد أنه سوف يواصل الحرب فترة طويلة.»

ـ «أنا لا أعرف باسياردي المبجل.»

فقال الكولونيل: «أنا أعرفه.»

ـ «اسألهم أن يتلفنوا إلى حانة هاري ويروا إذا كانت الكونتيسة هناك. فإن لم يجدوها اطلب أن يتلفنوا إلى البيت كرة أخرى.»

---

(1) Siphon أي سحبوا مياهه بطريقة السيفنة أو باستعمال السيفون.

تناول الكولونيل الكأس التي أعدّها آرنالدو، النادل الزجاجي العين، من أجله. كان غير راغب فيها، ولقد عرف أنه لن يستسيغها.

ولكنه تناولها... تناولها بشراسته الخنزيرية البرية القديمة كما سبق له أن تناول كل شيء طوال حياته، وتقدم بمثل خطى الهرّ ـ على الرغم من أنه الآن هرّ طاعن في السن ـ نحو النافذة المفتوحة، وأطلّ على «القناة الكبرى» التي كان لونها قد أخذ يستحيل الآن إلى رمادي غامق، فكأنّ «ديغا»[1] كان قد رسمها في يوم من أشد أيامه إمعاناً في الكآبة.

ـ «أشكرك على الشراب شكراً جزيلاً،» كذلك قال الكولونيل، فهزّ آرنالدو ـ الذي كان يتحدث بالتلفون ـ برأسه، وافترت شفتاه عن ابتسامته الزجاجية العين.

قال الكولونيل في ذات نفسه: ليته لم يضطر إلى وضع تلك العين الزجاجية. إنه لم يحب ـ كذلك قال في ذات نفسه ـ إلاّ أولئك الذين قاتلوا أو الذين شُوِّهوا.

لقد كان الناس الآخرون رائعين، ولقد أحببْتَهم وشدّتك إليهم أواصر صداقة متينة. ولكن لم تكن تستشعر الحنان والحب الحقيقيين إلاّ نحو أولئك الذين كانوا هناك، والذين تلقّوا العقاب الذي يتلقاه كل من يلبث هناك فترة طويلة.

إذن فأنا مولع بالمشوّهين، كذلك قال في ذات نفسه، وهو يرتشف الشراب غير المرغوب فيه. وكل ابن عاهرة مصاب إصابة قاسية ـ وهو مصير كل من يلبث هناك ـ خليقٌ بأن يحظى بحبي.

أجل، كذلك قال الجانب الآخر، الطيب، من شخصيته. أنت تحبهم.

---

(1) Degas رسام فرنسي 1834 ـ 1917. (المعرب)

وقال في ذات نفسه: إني لأوثر أن لا أحب أحداً. إني لأوثر أن أمرح وألهو.

فقال له الجانب الآخر الطيب من شخصيته: «ولكنك لن توفق إلى المرح واللهو ما دمت لا تحب.»

حسن جداً. أنا أحب أكثر من أي ابن عاهرة على قيد الحياة، كذلك قال الكولونيل ولكن ليس بصوت عال.

أما بصوت عال فقال: «إلى أين وصلت في هذه المخابرة التلفونية، يا آرنالدو؟»

فقال النادل: «سيبرياني لم يأت بعد. إنهم يتوقعون مجيئه في كل لحظة، ولقد أبقيت الخطّ مفتوحاً انتظاراً له.»

فقال الكولونيل: «إجراء باهظ النفقة. احصل لي على بيان بالموجودين هناك، لكي لا نضيع الوقت. أنا أريد أن أعرف على وجه الضبط من يوجد هناك.»

فتحدث آرنالدو، باحتراس، من خلال فم التلفون.

وغطى فم التلفون بيده وقال: «أنا أتحدث إلى إيتور. هو يقول إن البارون آلفاريتو ليس هناك. الكونت آندريا هناك، وهو مخمور بعض الشيء، يقول إيتور، ولكنه ليس مخموراً إلى حد لا يمكّنكما من اللهو معاً. ومجموعة السيدات اللواتي يُقبلن كل أصيل هنّ هناك، وثمة أميرة يونانية أنت تعرفها وأناس كثيرون لست تعرفهم. وحثالة من القنصلية الأميركية، ما برحوا هناك منذ الظهر.»

ـ «قل له أن يتلفن لك عندما تنصرف الحثالة وعندئذ أفِدُ عليهم.»

وتحدث آرنالدو بالتلفون، ثم التفت إلى الكولونيل الذي كان يطل من النافذة على قبة الـ «دوغانا» وقال: «إيتور يقول إنه سوف يحاول أن يزحزحهم عن مواقعهم، ولكنه يخشى أن لا يرتاح سيبرياني إلى ذلك.»

ـ «قل له أن لا يصرفهم. فهم غير مضطرين إلى العمل هذا الأصيل، وليس ثمة أيّ سبب يقضي بأن لا يسرفوا في الشراب، حتى الثَمَل، مثل أي امرئ آخر. كل ما في الأمر أني لا أريد أن أراهم.»

ـ «إيتور يقول إنه سوف يتلفن لنا في ما بعد. لقد قال لي إن «الموقع» سوف يسقط من تلقاء ذاته.»

فقال الكولونيل: «أشكره على اتصاله التلفوني هذا.»

وراقب غندولاً يصعد في القناة في اتجاه معاكس للريح، وقال في ذات نفسه: ليس مع أميركيين يعاقرون الخمر. أنا أعرف أنهم ضحية السأم. في هذه المدينة، أيضاً. إنهم سئمون في هذه المدينة. أنا أعلم أن المكان بارد، ورواتبهم لا تكاد تكفيهم، وكم يكلفهم الوقود. إني لأكبِر زوجاتهم، للجهود الباسلة التي يبذلنها لنقل كيبوكوك[1] إلى البندقية، وقد أصبح أولادهم يتكلمون الإيطالية مثل صغار البنادقة. ولكن لا صور خاطفة اليوم، يا جاك. لقد أعطينا الصور الخاطفة، ومحادثات الحجرة ذات المشرب، والكؤوس الاخوانية غير الضرورية، وويلات الخدمات القنصلية المضجرة، إجازةً اليوم.

ـ «لا نائب قنصل ثان، أو ثالث، أو رابع اليوم، يا آرنالدو.»

ـ «إن بين رجال القنصلية نفراً جد محبَّبين إلى القلب.»

فقال الكولونيل: «أجل. لقد كان لديهم هنا قنصل رائع إلى حد جهنمي في عام 1918. كان الناس كلهم يحبونه. سوف أحاول أن أتذكر اسمه.»

ـ «أنت ترجع بالذاكرة إلى عهد بعيد جداً.»

ـ «أنا أغالي في الرجوع بالذاكرة إلى عهود بعيدة بحيث يصبح ذلك أمراً غير ممتع.»

---

(1) Keokuk مدينة في جنوب شرقي ولاية ايبووا، بالولايات المتحدة على نهر المسيسيبي. (المعرب)

ـ «هل تذكر كل شيء عن العهود السالفة؟»

فقال الكولونيل: «كل شيء. كان اسم ذلك الرجل هو كارول.»

ـ «لقد سمعت به.»

ـ «لم تكن قد ولدتَ آنئذٍ.»

ـ «هل تحسب أن من الضروري أن يكون المرء مولوداً في وقتٍ بعينه لكي يلمّ بالأشياء التي حدثت في هذه المدينة، يا زعيمي؟»

ـ «أنت محقّ في ذلك مئة بالمئة. قل لي، هل يلمّ كل امرئ دائماً بكل ما يحدث في هذه المدينة؟»

فأجابه النادل: «ليس كل امرئ. ولكن كل امرئ تقريباً. وعلى أية حال، فأغطية السُّرر هي أغطية السرر، ولا بدَّ لها من شخص يبدّلها ومن شخص يغسلها. طبعاً، أنا لا أشير إلى أغطية السّرر في فندق كهذا.»

ـ «لقد عرفت في حياتي فترات سعيدة إلى حد لعين من غير ما أغطية سرر.»

ـ «طبعاً. ولكن الغناديليين[1]، برغم أنهم من أكثر الناس تعاوناً وبرغم أنهم ـ عندي ـ أروع الناس في هذه المدينة، يتحدثون في ما بينهم.»

ـ «طبعاً.»

ـ «ثم هناك رجال الدين، برغم أنهم لا ينتهكون حرمة أسرار كرسي الاعتراف أبداً، يتحدثون أيضاً في ما بينهم.»

ـ «هذا أمرٌ متوقَّع.»

ـ «ومدبرات بيوتهم يتحدثن في ما بينهن.»

ـ «ذلك حق من حقوقهن.»

فقال آرنالدو: «وهناك النُدُل أيضاً. فالناس يتكلمون على المائدة

---

(1) الذين يجذفون في الغناديل (جمع غندول) Gondoliers (المعرب)

وكأن النادل مصابٌ بصمم كامل. والنادل، وفقاً لعلم الأخلاق الخاص به، لا يحاول أن يسترق السمع أبداً. ولكنه لا يستطيع أن يتجنب السماع في بعض الأحيان. ونحن طبعاً، لنا أحاديثنا الخاصة التي نديرها في ما بيننا. ليس في هذا الفندق البتة، طبعاً. وفي استطاعتي أن أواصل السرد.»

- «أعتقد أني فهمتُ المراد.»
- «هذا إذا لم تذكر المزيّنين والحلّاقين.»
- «وما الأنباء من ريالتو الآن؟.»
- «سوف تفوز بها كلها في حانة هاري، باستثناء ذلك الجزء الذي يخصّك أنت.»
- «وهل يخصّني أنا شيء في تلك الأنباء؟»
- «كل امرئ يعرف كل شيء.»
- «حسناً، إنها قصة ماتعة إلى حد لعين.»
- «بعض الناس لا يفهمون الجزء الخاص بتورشيلو.»
- «أكون ملعوناً إذا استطعت أنا فهمه في بعض الأحيان.»
- «كم لك من العمر، يا زعيمي، إن لم يكن من قلة الذوق أن أسأل؟»
- «خمسون سنة وسنة. لماذا لم تَسع إلى معرفة ذلك من طريق بواب الفندق؟ لقد ملأت هناك قصاصة من الورق ليُصار إلى تقديمها لرجال الشرطة.»
- «أردتُ أن أسمع ذلك من فمك أنت وأن أهنئك.»
- «لست أدري عن أيّ شيء تتكلم.»
- «دعني أهنئك على أية حال.»
- «لست أستطيع أن أقبل ذلك.»
- «أنت جدّ محبوب في هذه المدينة.»

ـ «شكراً، هذا ثناء عظيم جداً.»

وفي تلك اللحظة رن جرس التلفون.

فقال الكولونيل: «سوف أجيب أنا.» وسمع صوت إيتور يقول: «من الذي يتكلم؟»

ـ «الكولونيل كانتويل.»

ـ «لقد سقط الموقع، يا زعيمي.»

ـ «في أي اتجاه ذهبوا؟»

ـ «نحو البيازّا.»

ـ «حسن. سوف آتي في الحال.»

ـ «هل تريد مائدة؟»

فقال الكولونيل: «في الزاوية»، وأغلق الخط.

ـ «أنا ذاهب إلى حانة هاري.»

ـ «أتمنى لك صيداً طيباً.»

ـ «سوف أصيد البط بعد غد، قبل انبلاج الفجر في برميل في الأراضي السبخة.»

ـ «وسوف يكون الجو بارداً، أيضاً.»

ـ «هذا ما يخيَّل إليّ.» قال الكولونيل ذلك، وارتدى واقي المطر، ونظر إلى وجهه في صفحة المرآة الطويلة فيما كان يعتمر بقبعته.

ـ «وجه قبيح،» كذلك قال للمرآة. «هل رأيت قط، قبل اليوم، وجهاً أشنع؟»

فقال آرنالدو: «نعم. وجهي. كل صباح عندما أحلق لحيتي.»

ـ «إن علينا كلينا أن نحلق في الظلام، كذلك قال الكولونيل، وغادر الحجرة.

[9]

لم يكد الكولونيل كانتويل يغادر باب «فندق قصر غريتي» حتى استقبل الخيوط الأخيرة من أشعة شمس ذلك اليوم. كان لا يزال ثمة شيء من أشعة الشمس في الجانب الآخر من الساحة، ولكن الغناديليين آثروا اجتناب الريح الباردة من طريق التلكؤ في حمى «غريتي»، المحجوب عن الرياح، على الافادة من بقية حرارة الشمس الباقية على جانب الساحة الذي تتناوح فيه الريح.

وبعد أن لاحظ الكولونيل ذلك، استدار يمنةً واجتاز الساحة إلى الشارع المعبَّد الذي ينعطف نحو اليمين. وفيما هو يستدير وقف لحظة ونظر إلى كنيسة «سانتا ماريا ديل جيغلييو.»

يا لها من بناية رائعة، متماسكة، ومع هذا فهي مستعدة لأن تُنْقل على متون الطائرات، كذلك قال في ذات نفسه. أنا لم أدرك قط من قبل أن في استطاعة كنيسة صغيرة أن تبدو مثل «ب 47.». يجب أن أستطلع متى شُيِّدت ومن شيّدها. لعنها اللّه، لشد ما أتمنى لو أسير مطوِّفاً في هذه المدينة طوال حياتي. أجل طوال حياتي، كذلك قال في ذات نفسه: يا لها من شكيمة. شكيمة يُشْكم بها الفم. صمام خانقٌ. يضبط مقدار الوقود في ماكينتك. وقال في ذات نفسه: هيا، أيها الغلام. فلست أعرف أن فرساً اسمه «سوداويّ» قُدِّر له أن يكسب سباقاً ما في أي يوم من الأيام.

وإلى هذا ـ كذلك قال في ذات نفسه وهو ينظر إلى واجهات المحالّ المختلفة التي مرّ بها: دكان لحم الخنزير بما فيه من جُبْن «بارميزان» وأفخاذ الخنزير المملحة من «ساف دانييل» ونقانق «آلآكاسياتورا» وزجاجات الويسكي الاسكتلندي الجيدة و «جن» غوردون الحقيقي، ودكان بيع السكاكين والملاعق والشوكات، ودكان بيع التحف الأثرية بما فيه من نفائس ومن خرائط ومطبوعات قديمة، ومطعم الدرجة الثانية المتقنّع بقناع باهظ التكاليف كذلك الذي تصطنعه مطاعم الدرجة الأولى، وانتهى أخيراً إلى الجسر الأول عابراً قناة رافد من الروافد ذات درجات تُرَتَقى ـ وإلى هذا فأنا لا استشعر الضيق إلى هذا الحد. ليس ثمة غير الطنين. أنا أذكر متى بدأ ذلك، ولقد ظننت أن ذلك ربما كان جراداً سَبَّعَشرياً[1] في الأشجار ولم أحب أن أسأل «لاوري» الفتيّ ولكني فعلت. فأجابني: «لا، أيها الجنرال، أنا لا أسمع أية صراصير أو أي جراد سَبَّعشريّ. الليل ساكن سكوناً تاماً، وليس هناك ما يعكر صفوه غير الأصوات العادية.

ثم إنه استشعر وخز الألم الحاد، فيما هو يرتقي تلك الدرجات، حتى إذا هبط إلى الجانب الآخر رأى فتاتين بهيّتي الطلعة. كانتا جميلتين، حاسرتيّ الرأس، ترتديان ملابس هزيلة ولكنها أنيقة، وكانتا تتحادثان في تعجّل بالغ، وكانت الريح تعبث بشعرهما فيما هما تصعدان بأرجلهما الفينسية الطويلة الرشيقة الخطو، وقال الكولونيل في ذات نفسه: من الخير لي أن أقلع عن تسريح النظر في واجهات المحال القائمة على طول هذا الشارع، وأن أتقدم إلى الجسر التالي وبعد أن أجتاز ساحتين اثنتين أنعطف إلى اليمين مباشرة وأواصل السير في هذه الاتجاه حتى أبلغ حانة هاري.

---

(1) seventeen - year Locust جراد في أميركة يعيش سبعة عشر عاماً محتفظاً بطور الحوراء Nymph ثم يخرج خلقاً سوياً فلا يعيش إلاّ أسابيع قلائل. (المعرب)

ولقد فعل ذلك ليس غير، مستشعراً وخز الألم الحاد فوق الجسر، ولكنه ظل يمشي بخطواته القديمة نفسها، غير ناظر، على نحو خاطف، إلاّ لمن يمرّ بهم من الناس. إن في هذا الهواء مقداراً وافراً من الأوكسجين، كذلك قال في ذات نفسه وهو يواجه الريح ويتنفس في عمق.

ثم إنه انتهى إلى باب حانة هاري، فدفعه، فانفتح، فإذا هو في داخل الحانة. لقد اجتاز تلك المسافة كرة أخرى، وها هو ذا الآن في «بيته».

في الحانة قال رجل طويل، رجل فارع الطول، ذو وجه مرهق ينمّ عن حسن تهذيب، وعينين زرقاوين مرحتين، وجسد طويل يوقع في النفس فكرة الاستهتار والانغماس في الملذات شبيه بجسد ذئب جاموسيّ: «يا زعيمي القديم الفاجر!»

ـ «أهلاً بآندريا الخبيث!»

وتعانقا، واستشعر الكولونيل خشونة نسيج سترة آندريا الصوفية الأنيقة التي كانت، من غير شك، في سبيلها إلى الدخول في عامها الثاني عشر.

وقال الكولونيل: «أنت تبدو في عافية، يا آندريا.»

كانت كذبة، ولقد عرفا كلاهما ذلك.

فقال آندريا راداً على الكذبة بمثلها: «أجل أنا في عافية. بل يتعين عليّ أن أقول إني لم استشعر العافية في أيما يوم أكثر مما استشعرها الآن. وأنت نفسك تبدو في صحة ممتازة جداً.

ـ «شكراً، يا آندريا» نحن الأنغال[1] الأصحاء سوف نرث الأرض.»

---

(1) جمع نغل. وهو ولد الزانية الذي لا يُعرف أبوه.

- «فكرة جيدة جداً. يخيَّل إليَّ أني لن أمانع في وراثة أيما شيء في هذه الأيام.»

- «ليس لديك من القوة ما يمكنّك من الممانعة. إنك سوف ترث ما يزيد على ستة أقدام منها[1].»

فقال آندريا: «ستة أقدام وستة انشات، أيها الرجل الخبيث! ألا تزال تكدح كالعبد الرقيق في الحياة العسكرية؟»

فأجابه الكولونيل: «أنا لا أكدح فيها أكثر مما ينبغي. إني ذاهب للصيد في سان ريلاجو.»

- «أدري. ولكن لا تطلق النكات بالإسبانية في هذه الساعة. إن آلفاريتو كان يبحث عنك. لقد أوصانا بأن نخبرك إنه سيعود.»

- «حسن. هل زوجتك اللطيفة وأولادك بخير؟»

- «في أحسن حال. وقد سألوني أن أقدم أحسن تمنياتهم لك إذا ما رأيتك. إنهم الآن في رومة. ها هي ذي فتاتك. أو واحدة من فتياتك.» كان من الطول بحيث استطاع أن يستكشف الشارع الذي أمسى الآن شبه مظلم، ولكنَّ هذه كانت فتاةً تستطيع أن تتبيَّنها حتى ولو كانت الظلمة أشد من تلك التي رانت على الشارع في تلك الساعة.

- «سلها أن تشرب معنا كأساً قبل أن تنتقل بها إلى مائدة الزاوية تلك. أليست مليحة الوجه؟»

- «بلى. إنها لكذلك.»

ثم إنها دخلت الحجرة مشرقة في شبابها وجمالها الفارع المتهادي والفوضى التي أوقعتها الريح في شعرها. كانت ذات بشرة شاحبة تكاد تكون زيتونية اللون، ومظهرٍ جانبي (بروفيل) قادر على أن

---

(1) يعني القبر. (المعرب)

يُفطر قلبك أو قلب أيّ امرئ آخر، وكان شعرها الداكن، ذو النسيج الرشيق، يتدلى فوق كتفيها.

قال الكولونيل: «هالو، يا حسنائي الفاتنة!»

فقالت: «أوه، أوه، هالو! لقد حسبتُ أني سأفتقدك. أنا آسفة لتأخري.»

كان صوتها خفيضاً رقيقاً، وقد تكلمت الإنكليزية في احتراس.

ثم أضافت: «طاب مساؤك، يا آندريا. كيف إميلي وكيف حال الأولاد؟»

ـ «أغلب الظن أنهم في نفس الحال التي كانوا عليها حين أجبتكِ عن ذلك السؤال عينه عند الظهر.»

فقالت وقد احمرّ وجهها: «أنا آسفة أعظم الأسف. إني مضطربة، وأقول الأشياء المغلوطة دائماً. ما الذي يتعيّن عليّ أن أقوله؟ هل قضيت وقتاً طيباً، هنا، طوال الأصيل؟»

فقال آندريا: «نعم. مع صديقي القديم وناقدي الأقسى.»

ـ «ومن هو؟»

ـ «ويسكي اسكتلندي وماء.»

ـ «أحسب أنه إذا شاء أن يناكدني فلا بدَّ له من هذا.» كذلك قالت للكولونيل. «أما أنت فلا تناكدني، أليس كذلك؟»

ـ «خذيه إلى مائدة الزاوية تلك وتحدّثي إليه. لقد مللتُكما كليكما.»

فقال له الكولونيل: «أما أنا فلم أملّك. ولكني أعتقد أنها فكرة جيدة. ما رأيك في شيء من الشراب نتجرعه ونحن جالسان، يا ريناتا؟»

ـ «يسعدني ذلك إن لم يكن آندريا غاضباً.»

ـ «أنا لا أعرف الغضب أبداً.»

ـ «هل ترغب في ارتشاف كأس معنا، يا آندريا؟»

فقال آندريا: «لا. إمضِ إلى مائدتك. لقد سئمت من رؤيتها شاغرة.»

ـ «وداعاً، يا كارو. شكراً لك على الشراب الذي لم نفز به.»

ـ «وداعاً يا ريكاردو»، كذلك قال آندريا، وكان ذلك كل شيء.

وولاّهما ظهره الفارع الممشوق ونظر في المرآة الموضوعة خلف بعض القضبان لكي يستطيع المرء أن يتبيَّن نفسه حين يسرف في الشراب، واستقر رأيه على عدم الارتياح لما رآه هناك. فقال: «إيتور، أرجوك أن تسجل هذا الهراء في فاتورتي.»

ثم إنه مضى لسبيله بعد أن انتظر معطفه في أناة، ثم ارتداه متمايلاً ونفح الرجل الذي جاءه به بالبقشيش الواجب تقديمه إليه تماماً بالإضافة إلى عشرين في المئة أيضاً.

وعلى المائدة التي في الزاوية قالت ريناتا: «هل تعتقد أننا جرحنا أحاسيسه؟»

ـ «لا. إنه يحبك، ويحبني.»

ـ «آندريا لطيف جداً. وأنت لطيف جداً.»

ونادى الكولونيل النادل. ثم سألها: «هل ترغبين في كأس من المارتيني الصِرف أيضاً؟»

فقالت: «نعم، إني لأحب ذلك.»

فقال الكولونيل: «كأسين من المارتيني الصرف إلى أبعد الحدود. كأسين على الطريقة المونتغوميرية. خمسة عشر جزءاً مقابل جزء واحد.»

وابتسم النادل، الذي كان قد حارب في الصحراء[1]، ومضى لسبيله، والتفت الكولونيل إلى ريناتا.

---

(1) في ساحة القتال التي تولى فيها مونتغوميري قيادة قوات الحلفاء. (المعرب)

وقال: «أنت لطيفة. وأنت أيضاً جميلة جداً وقريبة إلى الفؤاد. وأنا أحبك.»

ـ «أنت تقول هذا دائماً، ولست أدري ما معناه ولكني أحب سماعه.»

ـ «ما سّنكِ الآن؟»

ـ «حوالي التاسعة عشرة. لماذا؟»

ـ «ولست تدرين ما معناه؟»

ـ «لا. وما الذي يدعوني إلى ذلك؟ الأميركيون يقولون لك هذه الكلمات، دائماً، قبل أن يغادروا البلاد. إنها تبدو شيئاً ضرورياً بالنسبة إليهم. ولكني أحبك أعظم الحب، أيضاً، أياً ما كان معنى ذلك.»

فقال الكولونيل: «فلننعم بلحظات سعيدة. دعينا لا نفكر في أيما شيء على الاطلاق.»

ـ «خليق بذلك أن يسرّني. أنا لا أحسن التفكير في مثل هذا الوقت من النهار على أية حال.»

فقال الكولونيل: «هو ذا الشراب. تذكّري أن عليك أن لا تقولي تشين تشين.»

ـ «أنا أذكر ذلك من المرات السابقة. أنا لا أقول تشين تشين البتة. ولن أقول على صحتك، أو فلنقلب الكأس رأساً على عقب.»

ـ «سوف نكتفي برفع كأسينا، وفي استطاعتنا ـ إذا رغبت ـ أن نقرع الحافة بالحافة.»

فقالت: «أنا راغبة في ذلك.»

كان شراب المارتيني بارداً كالجليد، وكان مُعدّاً على الطريقة المونتوغوميرية حقاً. وبعد أن قرعا الحافة بالحافة أحسّا به يتوهج على نحو سعيد في حنايا صدريهما كلها.

وسألها الكولونيل: «وماذا كنت تعملين؟»

ـ «لا شيء. أنا لا أزال أنتظر موعد العودة إلى المدرسة.»

ـ «أين هي مدرستك الآن؟»

ـ «اللَّه أعلم. حيثما أذهب لأتعلم الإنكليزية.»

ـ «أديري رأسك وارفعي ذقنك لي مرة واحدة.»

ـ «أنت تمزح، أليس كذلك؟»

ـ «لا. أنا لا أمزح.»

فأدارت رأسها، ورفعت ذقنها، في غير زَهْو ولا غنج. واستشعر الكولونيل أن فؤاده ينقلب في صدره، وكأنّ حيواناً هاجعاً دار على نفسه في حُجره فروَّع، على نحو عذب، الحيوان الآخر الهاجع على مقربة دانيةٍ منه.

وقال: «أوه ما أروعك! ألا تحبين أن تدخلي في يوم من الأيام مباراة لانتخاب ملكة السماء؟»

ـ «خليق بذلك أن يكون تدنيساً للمقدسات.»

فقال: «هذا صحيح. أحسب أنه سوف يكون كذلك. وإني لأسحب الاقتراح.»

فقالت: «ريتشارد. لا، أنا لا أستطيع أن أقولها.»

ـ «قوليها.»

ـ «لا.»

وقال الكولونيل في ذات نفسه: أنا آمركِ بأن تقوليها. وقالت: «أرجوك أن لا تنظر إليّ هكذا أبداً.»

فقال الكولونيل: «أنا آسف. لقد انزلقت إلى صناعتي على نحوٍ لا شعوري.»

ـ «ولو قد كنا متزوجين أو شيئاً من هذا القبيل فهل تنزع إلى ممارسة صناعتك في البيت؟»

ـ «لا، وأقسم لك على ذلك. أنا لم انزع إلى هذا في حياتي قط. في أعمق أعماقي على الأقل.»

ـ «لم تنزع إلى هذا مع أحد البتة؟»

ـ «لا. أعني مع واحدة من بنات جنسك.»

ـ «أنا لا أحب لفظة «جنس» هذه. إنها تخيّل إليَّ أنك كنت تمارس صناعتك.»

ـ «إني أقذف بصناعتي من تلك النافذة اللعينة إلى القناة العظمى.»

فقالت: «ها! أرأيت مبلغ اندفاعك إلى ممارستها؟»

فقال: «حسن جداً. أنا أحبك، وفي استطاعة صناعتي أن تنصرف في رفق.»

فقالت: «دعني ألمس يدك. إنها بخير. في استطاعتك أن تضعها على المائدة.»

قال الكولونيل: «أشكرك.»

فقالت: «أرجوك أن لا تفعل. لقد أردت أن ألمسها لأني طوال الأسبوع الماضي ـ كل ليلة أو كل ليلة تقريباً في ما أعتقد ـ رأيتها في ما يراه النائم وكان حلماً مشوَّشاً وحلمتُ أنها كانت يد المسيح.»

ـ «هذا رديء. ما كان ينبغي لك أن تفعلي ذلك.»

ـ «أدري. لقد كان ذلك ما رأيته في المنام ليس أكثر.»

ـ «أنتِ لستِ على متن السفينة الصينية، أليس كذلك؟»

ـ «لست أدري ما تعني، وأرجوك أن لا تمزح حين أقول لك شيئاً حقيقياً. لقد رأيت في نومي ما أقوله تماماً.»

ـ «وماذا فعلت اليد؟»

ـ «لا شيء. أو ربما ليس هذا صحيحاً. أغلب الظن أنها كانت مجرد يد.»

ـ «مثل هذه؟» كذلك سألها الكولونيل، ناظراً في تفور إلى اليد المشوهة، ومتذكراً الإصابتين اللتين جعلتاها على تلك الشاكلة.

ـ «ليس مثلها. لقد كانت هذه اليد ذاتها. أتسمح لي أن أمسّها بأصابعي في رفق إذا كانت لا تؤلمك؟»

ـ «إنها لا تؤلمني. ما يؤلمني هو في الرأس، والرجلين، والقدمين. أنا لا أعتقد أن في هذه اليد أيّ احساس.»

فقالت: أنت مخطئ، يا ريتشارد.. إن هذه اليد مفعمة بالاحساس.»

ـ «لست أحب أن أنظر إليها كثيراً. أنت لا تعتقدين أن في استطاعتنا أن نُغفلها.»

ـ «من غير ريب. ولكنك غير مضطر إلى أن تراها في منامك.»

ـ «لا. إن لديّ أحلاماً أخرى.»

ـ «أجل. في استطاعتي أن اتخيل ذلك. ولكني حلمتُ بهذه اليد منذ قريب. أما وقد لمستها الآن في رفق ففي ميسورنا أن نتحدث عن أشياء مسلية إذا شئت. ما عندك من الموضوعات المسلية التي نستطيع أن نخوض فيها؟»

ـ «دعينا ننظر إلى الناس ونضعهم في ميزان النقد.»

فقالت: «هذا جميل. ولن نفعل ذلك بخبث. بروح دعابتنا الفضلى ليس غير. دعابتك ودعابتي.»

ـ «حسن» كذلك قال الكولونيل. ثم نادى النادل وأضاف: «كأسان من المارتيني أيضاً.» Ancora due Martini

إنه لم يستحسن أن يقول له «كأسان على الطريقة المونتغوميرية» في نبرة يمكن أن يسمعها الآخرون، إذ كان يجلس إلى المائدة المحاذية شخصان لم يكن ثمة ريب في أنهما بريطانيان.

لعل الذكَر كان ممن جُرحوا في الحرب، كذلك قال الكولونيل

في ذات نفسه، برغم أن ملامحه تجعل هذا الظن بعيد الاحتمال. ولكن فليساعدني الربّ على اجتناب القسوة الوحشية. فلأنظر الآن إلى عيني ريناتا، كذلك أضاف في ذات نفسه. لعلهما أجمل ما فيها من جمالات بأهدابهما البريئة التي لم أرَ أطول منها في حياتي، والتي لا تستعملها لغير النظر إليَّ في صدق وعفّة. أيّ فتاة رائعة هي، وما الذي أفعله هنا على أية حال؟ ذلك آثم من الإثم. وقال في ذات نفسه: إنها آخر محبوبة سوف تعرفها، بل إن حبك هذا هو حبك الصادق الوحيد. وليس هذا بالإثم. إنه شاهدٌ على سوء حظك ليس غير. لا، كذلك قال في ذات نفسه، إنه يمور بالسعادة إلى حد لعين، وإنك به لجدّ سعيد.

لقد جلسا إلى مائدة صغيرة في زاوية الحجرة، وإلى يمينها جلست أربع نساء إلى مائدة أكبر. كانت واحدة من أولئك النساء في ثوب الحداد؛ ثوب حداد مسرحيّ إلى درجة ذكرت الكولونيل باللايدي ديانا مانرز وقد مثلت دور الراهبة في رواية «المعجزة» لماكس راينهارد. كانت تلك المرأة ذات وجه جذاب ريان مبتهج بالفطرة، وكان ثوب حدادها متنافراً مع هذا كله.

وكانت بين الجالسات إلى تلك المائدة امرأة أخرى كان شعرها أشدّ شيباً، بثلاثة أضعاف، مما يستطيع الشعر أن يشيب ـ كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه. وكانت هي الأخرى ذات وجه مليح. أما المرأتان الأخريان فإن وجهيهما لم يعنيا شيئاً بالنسبة إلى الكولونيل.

وسأل الفتاة: «أتعتقدين أنهن كلهن سحاقيات.»

فقالت: «لست أدري. إنهن كلهن من فضليات النساء.»

ـ «أنا أميل إلى الاعتقاد بأنهن مساحقات. ولكن ربما كنّ مجرد صديقات حميمات. أو ربما كن مساحقات وصديقات في آن معاً. ذلك شيء لا يهمني البتة، ولم يكن ما قلته انتقاداً.»

ـ «أنت رائع حين تكون دمثاً.»

ـ «هل تحسبين أن لفظة جنتلمان Gentleman منحوتة من لفظتي الرجل Man والدمث Gentle؟»

ـ «لست أدري،» كذلك قالت الفتاة، وأمرَّت أصابعها في رقة بالغة فوق اليد الحافلة بالندوب. «ولكني أحبك حين تكون دمثاً.»

فقال الكولونيل: «سوف أبذل غاية الجهد لكي أكون دمثاً. من يكون، في اعتقادك، ابن العاهرة ذاك الجالس إلى المائدة التي خلفهنّ؟»

فقالت الفتاة: «أنت لا تعتصم بالدماثة فترة طويلة. فلنسأل إيتور.»

ونظر إلى الرجل الجالس إلى المائدة الثالثة. كان ذا وجه غريب أشبه بوجه ابن عِرْس أو ابن مُقرض[1] مخيب الآمال مُضخَّم تضخيماً شديداً. لقد بدا مجدوراً شائهاً مثل جبال القمر حين تُرى من خلال مِرقب (تلسكوب) رخيص، وبدا ـ كذلك فكر الكولونيل ـ مثل وجه غوبلز، لو أن الهر غوبلز قُدّر له ذات يوم أن يكون في طائرة احترقت ولم يوفّق إلى النجاة بنفسه منها قبل أن تدركه النار.

وفوق وجهه ـ الذي كان يحدق على نحو موصول، وكأن الجواب يمكن أن يُكتشف بالاسراف في تشديد النظرات وبالشكوك وعلامات الاستفهام ـ كان شعرٌ أسود بدا وكأن ليس بينه وبين الجنس البشري أية صلة. لقد بدا الرجل وكأن جلدة رأسه قد سُلخت ثم أعيد الشعر إلى مكانه. شيء ممتع جداً، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه. أمن الممكن أن يكون مواطناً من مواطنيّ؟ نعم، لا ريب أنه مواطن من مواطنيّ.

وتجمّع شيء من الرضاب في زاوية فمه وهو يتجاذب أطراف الحديث ـ مُحدّقاً ـ مع المرأة المسنة، البادية العافية، التي كانت

---

(1) ابن مقرض Ferret حيوان من اللواحم أشبه بابن عرس.

معه. إنها تبدو مثل أيّ أمّ من الأمهات اللواتي يزينون بها صفحات مجلة «ذي لايديز هوم جورنال،» كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه. كانت مجلة «ذي لايديز هوم جورنال» إحدى المجلات الواردة عى نحو نظامي إلى نادي الضباط في تريستا، وكان الكولونيل يتصفحها كلما وردت. إنها مجلة رائعة، كذلك فكّر، لأنها تجمع ما بين السكسولوجيا[1] والأطعمة الشهية. إنها تثير جوعي إلى الأمرين جميعاً.

ولكن من ذلك الرجل يا ترى؟ إنه يبدو مثل صورة كاريكاتورية لرجل أميركي أُدخل في آلة تنعيم اللحم، ثم غُليَ في الزيت غلياً طفيفاً. أنا لا أتعلق بأسباب الدماثة كثيراً، كذلك قال في ذات نفسه.

وأقبل إيتور، بوجهه الهزيل وبحبّه للمزاح وبما فُطر عليه من قلة احترام الآخرين. فسأله الكولونيل: «من هذه الشخصية الروحية؟»

فهز إيتور رأسه.

كان الرجل قصيراً داكن البشرة ذا شعر أسود صقيل بدا وكأنه لا يتلاءم وذلك الوجه الغريب. لقد بدا، كذلك فكّر الكولونيل، وكأنه نسي أن يغير لِمَّته المستعارة بعد أن طعن في السن. ولكن له، برغم ذلك، وجهاً رائعاً، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه.

إنه يبدو أشبه ببعض الهضاب المحيطة بـ «فيردان». ولست أحسب أن من الممكن أن يكون هو غوبلز، وإنه اتخذ ذلك الوجه في الأيام الأخيرة عندما كانوا كلهم يشاركون في تمثيل الـ «غوتر دامورونغ»[2] تعالَ أيها الموت العذب Komm' Susser كذلك قال

(1) العلم الباحث في الشؤون الجنسية أو التناسلية.
(2) Gotterdammerung، أو «غسق الآلهة»، سلسلة من الدرامات الموسيقية مؤلفة من أربعة أجزاء، بدأ «واغنر» في وضعها عام 1861 ولم يتمها إلاّ عام 1876. (المعرب)

في ذاته نفسه. حسناً، لقد اشتروا لأنفسهم قطعة كبيرة ممتازة من «الموت العذب Susser في النهاية.

ـ «هل ترغبين في ساندويشة شهية من «الموت العذب» يا آنسة ريناتا!»

فقالت الفتاة: «لا أظن ذلك. برغم أني أحب «باخ»، وبرغم ثقتي من أن سيبريياني قادر على إعدادها.»

فقال الكولونيل: «لم أكن أهاجم باخ.»

ـ «أدري.»

فقال الكولونيل: «يا للجحيم! لقد كان باخ ـ عملياً ـ محارباً في صفوفنا.» ثم أضاف: «كما كنتِ أنت.»

ـ «لست أحسب أننا مضطران إلى الغمز من قناتي.»

فقال الكولونيل: «متى ستتعلمين، يا بنيّتي، أن في استطاعتي أن أمازحك لأني أحبك؟»

فأجابت: «الآن. لقد تعلمته. ولكنك تعلم أن من الجميل أن لا يقسو المرء في مزاحه أكثر مما ينبغي.»

ـ «حسن. لقد تعلمته.»

ـ «كم مرة تفكر بي خلال الأسبوع؟»

ـ «طوال الوقت.»

ـ «لا. قل لي كم مرة تفكر بي على وجه الضبط.»

ـ «طوال الوقت. على وجه الضبط.»

ـ «هل تحسب أن الهيام يبلغ بكل امرئ هذا المبلغ؟»

فقال الكولونيل: «لست أدري. هذا واحد من الأمور التي لا أعرفها.»

ـ «أرجو أن لا يبلغ الهيام بكل امرئ هذا المبلغ. لم أكن أتصور أن في إمكانه أن يبلغ هذا المبلغ.»

ـ «حسناً، أنت تعرفين ذلك الآن.»

فقالت الفتاة: «أجل أنا أعرفه الآن. أنا أعرفه الآن وأعرفه إلى الأبد. أهذه هي الصيغة الصحيحة للتعبير عن ذلك؟»

فقال الكولونيل: «قولك أنا أعرفه الآن كافٍ. إيتور، هذه الشخصية ذات الوجه الملهم والمرأة المليحة التي معه لا يقيمان في فندق غريتي، أليس كذلك؟»

فأجابه إيتور: «لا، إنه يقيم في المبنى المجاور، ولكنه يفِدُ في بعض الأحيان إلى غريتي ليتناول الطعام.»

فقال الكولونيل: «حسن، ولسوف يكون من الرائع أن أراه إذا ما ألمّ به القنوط في يوم من الأيام. من المرأة التي معه؟ زوجته؟ أمه؟ بنته؟»

فأجابه إيتور: «لقد غلبتني. إننا لم نتعقب آثاره في البندقية. وهو لم يُثر لا حبّاً، ولا بغضاً، ولا كرهاً، ولا خوفاً، ولا ارتياباً. هل تريد، فعلاً أن تعرف أيما شيء عنه؟ في استطاعتي أن أسأل سيبريياني.»

فقالت الفتاة: «دعنا نُغفله. أليس هذا هو التعبير الذي تستخدمونه؟»

فقال الكولونيل: «دعنا نغفله.»

ـ «ما دمنا لا نجد متسعاً من الوقت، يا ريتشارد. إننا في الواقع نضيّع وقتنا في الكلام عليه.»

ـ «كنت أنظر إليه كما ينظر المرء إلى لوحة من لوحات غويا. الوجوه صورٌ أيضاً.»

ـ «أنظر إلى وجهي ولسوف أنظر إلى وجهك. أرجوك أن تُغفل الرجل. إنه لم يأت إلى هنا لكي يؤذي أحداً.»

ـ «دعيني أنظر إلى وجهك من غير أن تنظري أنت إلى وجهي.»

فقالت: «لا. هذا غير عادل. إن عليّ أن أتذكر وجهك طوال الأسبوع.»

فسألها الكولونيل: «وماذا أفعل أنا؟»

وأقبل إيتور ـ غير قادر على اجتناب الرغبة في الكيد، بعد أن جمع معلوماته في سرعة وكما ينبغي لرجل بندقيّ أن يفعل ـ وقال:

ـ «زميلي الذي يعمل في هذا الفندق يقول إنه يشرب ثلاث كؤوس ويسكي أو أربع كؤوس ثم يكتب في اسراف وفي تدفق حتى ساعة متأخرة من الليل.»

ـ «يخيل إليّ أن قراءة ما يكتبه لا بدَّ أن تكون حافلة بالمتعة.»

فقال إيتور: «يخيَّل إليَّ ذلك. ولكن طريقة دانتي كانت مختلفة جداً عن هذه الطريقة.»

فقال الكولونيل: «لقد كان دانتي ملعوناً عجوزاً آخر. بوصفه رجلاً أعني، لا بوصفه كاتباً.»

فقال إيتور: «أنا أوافق. وأحسب أنك لن تجد، خارج فيرينز[1] أيما امرئ درس حياته لا يوافق على ذلك.»

فقال الكولونيل: «فلتنتهك حرمة فلورنسة!»

فقال إيتور: «تلك عملية عسيرة. لقد حاولها كثيرون، ولكن قلة منهم نجحت في ذلك. لماذا تبغضها، يا زعيمي؟»

ـ «هذا أعقدُ من أن أشرحه لك. ولكنها كانت مركز التدريب depot وقد لفظها deposito لفرقتي العسكرية القديمة عندما كنت غلاماً.»

ـ «في استطاعتي أن أفهم هذا. إن لديّ أسبابي الخاصة التي تدعوني إلى بغضها أيضاً. هل تعرف مدينة طيبة؟»

---

(1) Firenze الاسم الإيطالي لمدينة فلورنسة. (المعرب)

فقال الكولونيل: «نعم. هذه المدينة، وجزء من ميلانو، وبولونيا، وبيرغامو.»

- «إن لدى سيبريياني ذخيرة كبيرة من الفودكا في حال مجيء الروس،» كذلك قال إيتور. وقد نزع إلى المزاح القاسي.

- «إنهم سوف يجيئون بفودكاهم الخاصة، غير الخاضعة للرسوم.»

- «ومع ذلك فأنا أعتقد أن سيبريياني مستعد لاستقبالهم.»

فقال الكولونيل: «إذن فهو الشخص الوحيد المستعد لذلك. قل له أن لا يقبل أي شيكات من الضباط الصغار على بنك اوديسًا، وأشكرك على المعلومات التي زودتني بها عن مواطني. أنا لن آخذ من وقتك أكثر مما فعلت.»

وانصرف إيتور، واستدارت الفتاة نحو الكولونيل ونظرت إلى عينيه الفولاذيتين العتيقتين، ووضعت كلتا يديها على يده المشوّهة وقالت: «لقد كنت غايةً في اللطف والدماثة.»

- «وأنت غاية في الجمال، وإني لأحبك.»

- «من الجميل سماع ذلك على أية حال.»

- «ما الذي سنفعله بخصوص بطعام العشاء؟»

- «سوف اتفلن إلى بيتي وأستطلع ما إذا كان في ميسوري أن أغادره لهذا الغرض.»

- «لماذا تبدين محزونة الآن؟»

- «وهل أبدو محزونة؟»

- «نعم.»

- «لست محزونة في الواقع. أنا الآن أسعد مني في أيما وقت مضى. تلك هي الحقيقة. أرجوك أن تصدقني، يا ريتشارد، ولكن ماذا تتوقع من فتاة في التاسعة عشرة متيمّة بحب رجل تجاوز الخمسين، رجل عرفت جيداً أنه أشرف على الموت؟»

فقال الكولونيل: «أنت تصورين الوضع في شيء من الفظاعة. ولكن الجمال يقطُر منك حين تقولين ذلك.»

فقالت الفتاة: «أنا لا أبكي البتة. البتة. لقد عقدت العزم على أن لا أفعل. ولكني سوف أبكي الآن.»

فقال الكولونيل: «لا تبكي. أنا الآن دمث الأخلاق، وإلى الجحيم بكل ما سوى ذلك.»

ـ «قل مرة أخرى إنك تحبني.»

ـ «أنا أحبك، وأحبك، وأحبك.»

ـ «هل ستبذل غاية جهدك كي لا تموت؟»

ـ «نعم.»

ـ «ماذا قال الطبيب؟»

ـ «بين بين.»

ـ «ألم يقل ما هو أسوأ؟»

ـ «لا.» لقد كذب.

ـ «إذن فلنأخذ كأساً أخرى من المارتيني. أنت تعلم أني لم أشرب كؤوس المارتيني قط قبل التقائنا.»

ـ «أدري. ولكنك تشربينها في استمتاع رهيب.»

ـ «ألا يجب عليك أن تأخذ الدواء؟»

ـ «بلى» كذلك قال الكولونيل. «يجب عليّ أن آخذ الدواء.»

ـ «هل أستطيع أن أقدمه إليك؟»

فقال الكولونيل: «نعم، تستطيعين أن تقدميه إليّ.»

وظلا جالسين إلى المائدة التي في الزاوية، وانصرف بعض الناس وأقبل آخرون. واستشعر الكولونيل ببعض الدوار من جراء الدواء وتركه يأخذ سبيله في حرية. وقال في ذات نفسه: تلك هي الحال دائماً. إلى الجحيم بهذا كله.

ورأى الفتاة تراقبه، وابتسم لها. كانت ابتسامةً عجوزاً اصطنعها طوال خمسين سنة، منذ أن قدِّر له أن يبتسم أول مرة، وكانت لا تزال سليمة مثل «بارودة الخردق» من طراز بوردي Purdey التي كانت لجدك. حسناً، لقد كان دائماً أبرع مني في الرماية، وهو بذلك جدير.

وقال: «اسمعي، يا بُنيّة. لا يأخذك الجزع عليّ.»

ـ «لستُ جزعة. لا، على الاطلاق. أنا أحبك ليس غير.»

ـ «إنها ليست بالمهمة المستساغة، أليس كذلك؟ واستخدم لفظة oficio بدلاً من لفظة «مهمة»، لأنهما كانا يتكلمان الإسبانية أيضاً كلما تركا الفرنسية، وكلما رغبا عن الكلام بالإنكليزية أمام الآخرين. إن الإسبانية لغة قاسية، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه، أقسى من قولحة الذُّرة[1] في بعض الأحيان. ولكن في استطاعتك أن تعبّر بها عن المعنى الذي تريد، وأن ترسِّخَهُ.

وكرر قائلاً: «إن حبك لي مهمة رديئة إلى حدّ غير يسير. Es un oficio bastante malo»

ـ «أجل، ولكنه الحب الوحيد الذي أملكه.»

ـ «ألا تزالين تنظمين الشعر؟»

ـ «لقد كان ما نظمته شعر فتاة في مقتبل العمر. مثل لوحات فتاة في ميعة الصبا. كل امرئ يكون موهوباً في سنٍّ بعينها.»

في أيّ سن تصبح شيخاً في هذه البلاد. كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه. إن أحداً لا يشيخ في البندقية، ولكن الصغار يشبّون عن الطوق في سرعة بالغة. ولقد شبَبْتُ أنا عن الطوق في سرعة بالغة في الـ «فينيتو»، ولم أكن في أيما يوم أكثر كهولة مما كنت في الحادية والعشرين.

---

(1) الجزء الخشبي من كوز الذرة المصفوفة عليه حباتها.

وسألها في محبة: «كيف أمك؟»

- «في خير وعافية. إنها لا تستقبل أحداً، وتكاد لا ترى أحداً بسبب من حزنها وأساها.»

- «هل تعتقدين أنها تعارض لو أنجبنا ولداً؟»

- «لست أدري. إنها ذكية جداً، كما تعلم. ولكني مضطرة إلى الزواج من امرئ ما، في ما أحسب. وإن كنت لا أرغب في ذلك في الواقع.»

- «في استطاعتنا أن نتزوج.»

فقالت: «لا. لقد فكرت في هذا، فرأيتُ أنه ليس ينبغي لنا أن نفعل. ذلك مجرد قرار كالقرار اتخذتُهُ في مسألة البكاء.»

- «لعلك تتخذين قرارات خاطلة. والمسيح يعلم أني اتخذت بضعة قرارات خاطلة، ولقد قضى كثير من الناس حتفهم بسبب أخطائي.»

- «يخيل إليَّ، في أغلب الظن، أنك تبالغ. أنا لا أعتقد أنك اتخذت كثيراً من القرارات الخاطلة.»

فقال الكولونيل: «لم تكن قراراتي الخاطلة كثيرة. ولكنها كانت كافية. إن ثلاثة قرارات خاطلة تعتبر شيئاً كثيراً، ولقد اتخذت هذه القرارات الثلاثة كلها.»

- «بودّي لو أعرف هذه القرارات!»

فقال لها الكولونيل: «لو حدثتك عنها إذن لأوقعت الضجر في نفسك. إنها تضنيني كلما تذكرتها. فما ظنك بالاثر الذي يجدر بها أن تخلّفه في نفوس الغرباء؟»

- «وهل أنا غريبة؟»

- «لا، أنت حبي الصادق. حبي الأخير، الوحيد، الصادق.»

- «هل اتخذتها في عهد مبكر أم في فترة متأخرة؟ القرارات أعني.»

ـ «لقد اتخذتها في عهد مبكر. وفي عهد متوسط. وفي عهد متأخر.»

ـ «ألا تحب أن تحدثني عنها؟ لشدّ ما أتوق إلى أن يكون لي في صناعتك الكئيبة نصيب.»

فقال الكولونيل: «تباً لتلك القرارات! لقد اتخذتها، ولقد دفعتُ ثمنها غالياً. كل ما في الأمر أنك لا تستطيعين أن تدفعي الثمن بسببها.»

ـ «هل تقوى على تحديثي عن ذلك ولماذا؟»

فقال الكولونيل: «لا». وكان هذا نهاية ذلك.

ـ «إذن فلنمرح.»

فقال الكولونيل: «فلنفعل. ما دمنا لا نملك غير حياة واحدة، وحيدة.»

ـ «ربما كان ثمة غيرها. حَيوات أخرى أعني.»

فقال الكولونيل: «لست أظن ذلك. أديري وجهك مجانبة يا مثال الجمال.»

ـ «هكذا؟»

فقال الكولونيل: «هكذا، هكذا تماماً.»

وعلى هذا النحو، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه، وصلنا إلى الجولة الأخيرة ولست أدري حتى مجرد رقم الجولة. أنا لم أحب غير ثلاث نساء ولقد خسرتهن جميعاً.

أنت تخسرهن بمثل الطريقة التي تخسر بها كتيبة من الجند؛ بالخطأ في الحكم على الأشياء؛ بالأوامر المتعذّر تنفيذها وبواسطة الشروط المستحيلة. وبواسطة الوحشية أيضاً.

لقد خسرتُ ثلاث كتائب في حياتي وثلاث نساء، وها أن لديّ الآن رابعة هي أملحهن كلهن، ومن يدري بحق الجحيم أين ستكون نهاية ذلك؟

قل لي أيها الجنرال. وبالمناسبة ـ ما دمنا نناقش المسألة، وهي مناقشة صريحة للوضع وليست بأية حال مجلساً عسكرياً، كما ألمعتَ لي أيها الجنرال في كثير من الأحيان ـ أجل قل لي، أيها الجنرال، أين هم فرسانك؟

لقد طاف في خلدي هذا السؤال نفسه، كذلك قال الكولونيل. إن القائد لا يعرف أين فرسانه، وفرسانه لا يعلمون علم اليقين شيئاً لا عن وضعهم ولا عن رسالتهم، وهكذا فإنهم ـ أو بعضهم. . . عدداً كافياً منهم ـ يفرون من ميدان المعركة كما تعوّد سلاح الفرسان أن يفرّ في جميع الحروب منذ أن كان لسلاح الفرسان أفراس ضخام.

وقال: «يا مثال الجمال! يا عزيزتي الغالية ومحبوبتي الأثيرة Ma trés Chére et bien aimée. أنا مضجر جداً، وإني لآسف.»

ـ «أنا لا استشعر الضجر معك البتة. وإني أحبك، ولست أطمع في غير الأخذ بأسباب البهجة هذه الليلة.»

فقال الكولونيل: «سوف نأخذ بأسباب البهجة من غير ريب. هل تعرفين أيما شيء خصوصي نستطيع أن نبتهج بسببه؟»

ـ «في استطاعتنا أن نبتهج بحالنا، وأن نبتهج بهذه المدينة. فطالما كنت مستسلماً للبهجة.»

فأقرها الكولونيل: «أجل.» طالما كنت.

ـ «ألا تعتقد أن في ميسورنا أن نفعل ذلك كرة أخرى؟»

ـ «من غير ريب. طبعاً. ولم لا؟»

ـ «هل ترى الغلام ذا الشعر المتموج، الطبيعي، فهو لا يزيد على أن يرده إلى الوراء بعض الشيء، وفي حذق، لكي يبدو أملح وأحلى؟»

فقال الكولونيل: «أجل أراه.»

ـ «إنه رسام بارع جداً، ولكن له أسناناً أمامية زائفة لأنه كان في

يوم ما ينزع منازع أصحاب الحب الشاذ بعض الشيء، ولقد هاجمه نفرٌ من هؤلاء ذات ليلة في «الليدو» حين كان القمر بدراً.»

ـ «ما سنّكِ؟»

ـ «سوف أدخل عما قريب، في سن التاسعة عشرة.»

ـ «وكيف تعرفين هذا؟»

ـ «لقد عرفته من الغناديليين. إن هذا الغلام هو الآن رسام بارع جداً. ونحن نفتقر في هذه الأيام إلى الرسامين البارعين حقاً. ولكن يا لمشهده، الآن، بهذه الأسنان الزائفة، وهو لما يتجاوز الخامسة والعشرين!»

فقال الكولونيل: «أنا أحبك أصدق الحب.»

ـ «وأنا أحبك أصدق الحب أيضاً. أياً ما كان معنى ذلك باللغة الأميركية. وأنا أحبك أيضاً بالإيطالية، برغم حصافتي كلها، وأمنياتي كلها.»

فقال الكولونيل: «ليس من حقنا أن نسترسل في الأمنيات أكثر مما ينبغي. لأننا عرضة دائماً للفوز بها.»

فقالت: «أوافقك على هذا. ولكني أوثر أن أفوز بما أتمناه الآن.»

ولم يقل أي منهما شيئاً، ثم إن الفتاة قالت: «ذلك الغلام (لقد أمسى الآن رجلاً طبعاً، وهو يلازم كثيرات من النساء لكي يخفي حقيقته) قد رسمني مرة. في استطاعتي أن أقدم إليك تلك اللوحة إذا شئت.»

فقال الكولونيل: «شكراً. ولسوف أحبها.»

ـ «إنها رومانتيكية جداً. وشعري فيها أطول، إلى حد مضاعف، مما كان في أي وقت مضى، وهي تُظهرني وكأني كنت انبثق من الماء ولكن من غير أن يصيب البلل رأسي. والواقع أنك تنبثق من الماء

وشعرك مسرف في التسطح والاستواء، . . . إنك تبدو، أو تكاد، مثل هرة على قاب قوسين من الموت. ولكن والدي دفع إليه ثمن اللوحة في سخاء. صحيح أنها ليست أنا حقاً، ولكنها الوجه الذي تودّ أنت أن تراني فيه.»

ـ «إني لأتصورك منبثقة من البحر أيضاً.»

ـ «طبعاً. بشعة جداً. ولكنك قد ترغب في الاحتفاظ بهذه على سبيل الذكرى.»

ـ «ألن تعترض أمك الفاتنة على ذلك؟»

ـ «إن أمي لن تعترض. بل إني لأحسب أنها سوف تكون سعيدة بالتخلص منها. إن عندنا في البيت صوراً أفضل.»

ـ «أنا أحبك وأحب أمك حباً عظيماً.»

فقالت الفتاة: «يتعيّن عليّ أن أخبرها.»

ـ «هل تحسبين أن ذلك الغِر، المجدور الوجه، كاتبٌ فعلاً؟»

ـ «أجل، إذا قال إيتور ذلك، إنه يحب أن يمزح، ولكنه لا يكذب. ولكن ماذا تعني لفظة «غِرّ»، يا ريتشارد؟ أصدقني القول.»

ـ «من العسير، بعض الشيء، ايضاح ذلك. ولكني أحسب أنها تعني الرجل الذي لم يتمرّس في صناعته (واستعمل لفظة oficio الإسبانية) ممارسة فعلية، والرجل المغرور بطريقة مزعجة.»

ـ «يتعين عليَّ أن أتعلم لكي استعمل التعبير على وجهه الصحيح.»

فقال الكولونيل: «لا تستعمليه.»

ثم إنه سألها: «متى ستقدمين إليّ اللوحة؟»

ـ «الليلة إذا شئت. سوف أكلف أحد بلفّها. وبإرسالها إليك من البيت. أين ستعلقها؟»

ـ «في حجرتي.»

ـ «ولن يأتي أحد ويبدي بعض الملاحظات ويقول فيّ مقالة سوء؟»

ـ «لا. إنهم لن يفعلوا ذلك. ثم إني سوف أقول لهم إنها صورة ابنتي.»

ـ «هل كانت لك في يوم من الأيام بنت؟»

ـ «لا. ولكني رغبت دائماً في أن تكون لي بنت.»

ـ «أستطيع أن أكون بنتك كما أستطيع أن أكون أيّ شيء آخر.»

ـ «سيكون ذلك نوعاً من مضاجعة المحارم.»

ـ «لست أعتقد أن هذا سوف يكون فظيعاً جداً في مدينة عتيقة كهذه المدينة... مدينة شهدت ما شهدته هذه المدينة.»

ـ «اسمعي، يا بنيّتي.»

فقالت: «حسن. هذا رائع. إني أحب ذلك.»

ـ «حسن جداً.» كذلك قال الكولونيل وقد غدا صوته خشناً بعض الشيء. «وأنا أحبه أيضاً.»

ـ «أرأيت الآن لماذا أحبك على الرغم من أني أعقل من أن أقدم على ذلك!»

ـ «اسمعي، يا بنيتي. أين تريدين أن نتناول طعام العشاء؟»

ـ «حيثما يحلو لك.»

ـ «هل تريدين أن تتعشّي في الغريتي؟»

ـ «طبعاً.»

ـ «إذن تلفني إلى البيت وأطلبي الإذن.»

ـ «لا. لقد عقدت النية على أن لا أطلب الإذن مكتفية بأعلامهم أين اعتزم أن أتناول طعام العشاء. وهكذا لن يساورهم القلق عليّ.»

ـ «ولكن هل تفضلين «الغريتي» فعلاً؟»

ـ «أجل. لأنه مطعم لطيف، ولأنه الفندق الذي تنزل فيه، وهناك يستطيع من يشاء النظر إلينا أن ينظر إلينا.»

ـ «من أي عهد أصبحت هكذا؟»

ـ «لقد كنت هكذا طوال عمري. أنا لم أبال قط، في أي يوم، بالذي قد يقوله الناس. ولم أباشر قط أي عمل كنت خجلة به ما خلا الكذب حين كنت فتاة صغيرة ومخاشنة الناس.»

قال الكولونيل: «لشد ما أتمنى لو نتزوج وننجب خمسة أولاد.»

فقالت الفتاة: «هذا ما أتمناه أنا أيضاً. وأن نبعث بهم إلى زوايا العالم خمس.»

ـ «وهل للعالم خمس زوايا؟»

فقالت: «لست أدري. لقد بدا لي وكأن له خمس زوايا حين قلت ذلك. والآن، لقد استعدنا مرَحَنا، أليس هذا صحيحاً؟»

فقال الكولونيل: «نعم، يا بنيّتي.»

ـ «قلها مرة ثانية. تماماً كما قلتها الآن.»

ـ «نعم، يا بنيّتي.»

فقالت: «أوه، لا ريب في أن الناس جدّ معقدين. أتسمح لي بأن ألمس يدك؟»

ـ «إنها بشعة إلى حد لعين وأني لأكره النظر إليها.»

ـ «أنت لا تقدر يدك حق قدرها.»

فقال: «هذه مسألة رأي. إني لأميل إلى القول بأنك مخطئة، يا بنيّتي.»

ـ «ربما كنت مخطئة. ولكننا أخذنا بأسباب المرح من جديد، وأياً كان الشيء الرديء فقد انقشع الآن.»

ـ «لقد انقشع كما ينقشع الضباب عن الأودية في الأرض المحروثة عندما تطلع الشمس،» كذلك قال الكولونيل: «وما الشمس إلاّ أنت.»

ـ «أودّ أن أكون القمر أيضاً.»

فقال الكولونيل: «وأنت القمر. وأيما كوكب سيّار ترغبين في أن تكونيه أيضاً، ولسوف أحدّد لك موقع الكوكب تحديداً دقيقاً. وحق المسيح، يا بنيّتي، إن في استطاعتك أن تكوني كوكبة نجوم ثابتة (Constellation) إذا شئت. ولكن هذه طائرة[1].»

ـ «سوف أكون القمر. إن للقمر متاعبه الكثيرة أيضاً.»

ـ «نعم. إن أحزانه لتتواتر على نحو نظاميّ. ولكنه يكتمل دائماً قبل أن ينمحق[2].»

ـ «إنه ينظر إليّ نظرات جدّ محزونة، أحياناً، عبر القناة؛ وليس في استطاعتي احتمال تلك النظرات.»

فقال الكولونيل: «لقد تطاول تطوافه في السماء.»

ـ «هل تستحسن أن نحتسي كأساً أخرى على الطريقة المونتغوميرية؟» كذلك سألته الفتاة. ولاحظ الكولونيل أن البريطانيين قد انصرفا.

لم يكن يلحظ شيئاً غير وجهها المليح. وقال في ذات نفسه: سوف أقضي نحبي في يوم ما إن استرسلت في ذلك. ومن ناحية أخرى، فهذا ضرب من التركيز في ما أحسب. ولكنه استهتار لعين.

وقال: «أجل. ولم لا؟»

فقالت الفتاة: «إن الكؤوس المونتغوميرية تنعش نفسي كثيراً. إنها تخلّف في نفسي أثراً ما، أيضاً، بالطريقة التي يعدّها سيبرياني بها.»

ـ «سيبرياني ذكي جداً.»

---

(1) لكي يفهم القارئ هذه السطور نشير هنا إلى أن اسم كرنستالايشين Constellation، أو كوكبة النجوم الثابتة، يطلق على نوع من الطائرات أيضاً. (المعرب)

(2) انمحق الهلال: لم يكد يرى في آخر الشهر.

ـ «هو أكثر من ذلك. إنه بارع.»

ـ «سوف يأتي يوم يمتلك فيه مدينة البندقية كلها.»

فخالفها الكولونيل في الرأي: «ليس كلها تماماً. إنه لن يمتلكك أبداً.»

فقالت: «لا. ولن يمتلكني أيما امرئ، إلاّ إذا أردتني أنت.»

ـ «أنا أريدك، يا بنيّتي. ولكني لا أريد أن امتلكك.»

فقالت الفتاة: «أنا أعلم ذلك، وهذا سبب آخر يضاف إلى مجموعة الأسباب التي تجعلني أحبك.»

ـ «فلننادِ إيتور، ونكلّفه أن يتلفن لأهلك. في استطاعتك أن تحدثيهم حديث اللوحة.»

ـ «أنت على حق تماماً. إذا كنت راغباً في الحصول على اللوحة، الليلة، فسوف أطلب إلى كبير الخدم أن يرزمها ويبعث بها إليك. ولسوف أسأله أيضاً أن يصلني بماما لأخبرها أين سنتناول طعام العشاء، وإذا شئت ذلك التمستُ منها إذنها.»

ـ «لا.» كذلك قال الكولونيل، ثم أضاف: «أيتور، كأسين مونتغوميريين... كأسين مونتغوميريين من الطراز الأعلى، مع شيء من الزيتون المتوَّم، ولتكن حباته غير كبيرة. وأرجوك أن تتصل تلفونياً ببيت هذه السيدة وتُعلمها حين يتم هذا الاتصال. وأفعل هذا كله بأسرع ما تستطيع.»

ـ «سمعاً وطاعة، يا زعيمي.»

ـ «والآن، يا بنيَّتي، فلنستأنف الأخذ بأسباب المرح.»

فقالت: «لقد استأنفناه حين تكلمتَ.»

[10]

كانا يتمشيان الآن على الجانب الأيمن من الشارع المفضي إلى فندق غريتي. وكانت الريح تهب من ورائهما، ولقد عبثت بشعر الفتاة ودفعته إلى أمام. لقد فَرَقَتْ مؤخر شعرها وعصفت به فتدلّى على وجهها. كانا ينظران إلى واجهات المحالّ التجارية، ووقفت الفتاة قبالة واجهة مضاءة لمحل من محالّ بيع المجوهرات.

كانت في الواجهة روائع من المجوهرات القديمة، ووقفا، وأنهما النظر إليها، وأشار كل منهما بدوره إلى ابدَعِها، مفلتاً يد رفيقه لكي يفعل ذلك.

ـ «هل ترغبين في أي من هذه رغبة حقيقية؟ إن في استطاعتي أن اشتريها غداً صباحاً. ولسوف يقرضني سيبريياني ثمنها.»

فقالت: «لا. لست أريد أيما شيء، ولكني الاحظ أنك لا تقدّم إليّ هدايا البتة.»

ـ «أنتِ أغنى مني بكثير. إني أحمل إليك أشياء صغيرة من مخازن الجيش، واشتري لك أشربة كحولية وضروباً من الأطعمة.»

ـ «وتأخذني في الغناديل وإلى المواطن الفاتنة في البلاد.»

ـ «لم يخطر ببالي قط أنك راغبة في هدايا من الحجر الصلد.»

ـ «لا، لست راغبة في ذلك. إنه مجرد التفكير في العطاء ثم ينظر المرء إلى المجوهرات ويفكر فيها حين تُلْبَس.»

فقال الكولونيل: «إني أتعلّم. ولكن ما الذي أستطيع براتبي العسكري أن أشتريه لك مما يضاهي زمرّداتك المربعة؟»

ـ «ولكن ألا ترى، لقد ورثتُها. لقد تحدرت إليّ من جدتي، وكانت جدتي قد ورثتها عن أمها التي ورثتها بدورها عن أمها أيضاً. هل تعتقد أن الأمر لا يختلف حين تكون الحجارة الكريمة التي تتزين بها موروثة عن أناسٍ أموات؟»

ـ «أنا لم أفكر بذلك قط قبل اليوم.»

ـ «في استطاعتك أن تأخذها، إذا كنت تحب الحجارة الكريمة. فهي لا تعدو أن تكون عندي شيئاً ألبسه مثل ثوب من أثواب باريس. أنت لا تحب أن تلبس ثوبك العسكري الرسمي، هل تحب ذلك؟»

ـ «لا.»

ـ «ولا تحب أن تتقلد سيفاً، هل تحب ذلك؟»

ـ «لا، لا.»

ـ «أنت لست من ذلك الضرب من الجند، وأنا لست من ذلك الضرب من الفتيات. ولكن قدِّم إليَّ في بعض الأحيان شيئاً باقياً أستطيع أن ألبسه وأن استشعر السعادة كلما لبستُهُ.»

ـ «لقد فهمت.» كذلك قال الكولونيل. «ولسوف أفعل.»

فقالت الفتاة: «أنت تتعلم بسرعة أشياء لا تعرفها. وإنك لتتخذ قرارات ظريفة عاجلة. أنا أريدك أن تأخذ أحجار الزمرد وأن تحتفظ بها في جيبك كما يحتفظ المرء بما يجلب الحظ السعيد، وأن تلمسها حين تكون متوحداً.»

ـ «أنا لا أُكثِر من وضع يديّ في جيوبي أثناء العمل. إن من عادتي أن ألوي عصاً، أو شيئاً ما، أو أن أشير إلى الأشياء بقلم رصاصي.»

ـ «ولكن في ميسورك أن تضع يدك في جيبك مرة واحدة ليس

غير، كلما انقضت فترة طويلة، وأن تلمسها.»

ـ «أنا لا أكون متوحداً في أثناء العمل. ذلك بأني استغرق خلال ذلك في تفكير عميق يجعلني دائماً في نجوة من التوحّد.»

ـ «ولكنك لا تعمل الآن.»

ـ «لا. إني أُعِد الطريقة الفضلى للانهزام، ليس غير.»

ـ «سوف أقدمها إليك على أية حال. وأنا واثقة من أن ماما سوف تتفهَّم الدافع الذي حفزني إلى ذلك. وفوق هذا فلن اضطر إلى إعلامها بذلك قبل انقضاء فترة طويلة. فهي لا تتحرى أشيائي تحرياً موصولاً. وأنا على يقين أن وصيفتي لن تخبرها أبداً.»

ـ «لست أعتقد أنه ينبغي لي أن آخذها.»

ـ «خذها، أرجوك، لكي توقع في نفسي البهجة.»

ـ «لست واثقاً من أنه عمل مشرّف.»

ـ «ذلك أشبه ما يكون بقولك إني غير واثق من أني بِكر. إن كل عمل تقوم به إبهاجاً لشخص آخر تحبه هو عمل مشرِّف إلى أبعد الحدود.»

فقال الكولونيل: «حسن. سوف آخذها على أية حال.»

ـ «والآن قل أشكرك»، قالت الفتاة ذلك ودست الحجارة الكريمة في جيبه بمثل رشاقة لص من لصوص المجوهرات. «لقد جئتك بها لأني أمضيت الأسبوع كله في التفكير في ذلك وعقد النية عليه.»

ـ «لقد حسبت أنك أمضيتِهِ بالتفكير في يدي.»

ـ «لا تكن فظاً، يا ريتشارد. ويتعين عليك أن لا تكون أحمق البتة. إن اليد التي ستلمسها بها هي يدك. ألم تفكر في ذلك؟»

ـ «لا، ولقد كنت أحمق. ما الذي ترغبين فيه من معروضات هذه الواجهة؟»

ـ «أنا أرغب في ذلك الزنجي الصغير ذي الوجه الأبنوسي والعمامة المصوغة من ماسات صغيرة، والمزدانة قمتُها بتلك الياقوتة الصغيرة. ولسوف أعلقه على صدري مثل دبوس تزييني. كان كل امرئ في هذه المدينة يعلق أمثاله على صدره في الأيام الخوالي، ولقد كانت الوجوه هي وجوه خدمهم المتمتعين بثقتهم. إني اشتهيت ذلك منذ عهد بعيد ولكني أردتك أن تقدمه إليّ.»

ـ «سوف أبعث به إليك صباح غد.»

ـ «لا، قدّمه إليّ حين نتناول طعام الغذاء قبل رحيلك.»

فقال الكولونيل: «حسن.»

ـ «والآن يتعين علينا أن نمشي وإلاّ فاتنا طعام العشاء.»

وشرعا يمشيان، متشابكي الذراعين، حتى إذا بلغا الجسر الأول جلدتهما الريح بسياطها. وحين استشعر وخز الألم الحادّ قال الكولونيل في ذات نفسه: إلى الجحيم بهذا.

وقالت الفتاة: «ريتشارد، ضع يدك في جيبك لكي تبهجني والمسها.»

فنزل الكولونيل عند رغبتها.

وقال: «إن ملمسها لبديع.»

[11]

ومن الريح والبرد تقدَّما خلال المدخل الرئيسي لـ «غريتي بالاس أوتيل،» نحو ضياء الردهة ودفئها.

ـ «طاب مساؤك، أيتها الكونتيسة» كذلك قال بواب الفندق. «طاب مساؤك، يا زعيمي. لا بدَّ أن يكون البرد قارساً في الخارج.»

فقال الكولونيل: «إنه لكذلك» ولم يُضف أياً من العبارات الجافية أو البذيئة عن مدى البرد، وقوة الريح، التي كان من دأبه قولها في الأحوال العادية رغبة في الاستماع المتبادل كلما تحدَّث منفرداً إلى بواب الفندق.

وفيما هما يدخلان البهو الطويل المفضي إلى السلم العريض وإلى المصعد، مخلِّفاً ـ إلى يمينك ـ المدخل إلى المشرب (البار)، والمعبر المطل على القناة العظمى، والمدخل إلى حجرة الطعام، انبثق المايسترو الأعظم من المشرب.

كان يرتدي سترة بيضاء رسمية، طويلة، ولقد ابتسم لهما وقال: «طاب مساؤك، يا كونتيستي. طاب مساؤك، يا زعيمي.»

فقال الكولونيل: «أهلاً بالمايسترو الأعظم!»

وابتسم المايسترو الأعظم وقال وهو لا يزال منحنياً تحيةً لهما: «نحن نقدِّم طعام العشاء في المشرب في الطرف الأقصى. فليس ههنا أحد الآن في فصل الشتاء، وحجرة الطعام أضخم مما ينبغي. لقد احتفظت لكما بمائدتكما. إن لدينا جرادة بحر ممتازة جداً، إذا كنتما تحبَّانها، كاستهلال.»

ـ «أهي طازجة حقاً؟»

ـ «لقد رأيتها هذا الصباح عندما جاءت من السوق في سلة. كانت لا تزال على قيد الحياة وكانت خضراء داكنة، مشاكسة إلى أبعد حد.»

ـ «هل تحبين أن تستهلي عشاءك بجرادة بحر، يا بُنيَّتي؟»

كان الكولونيل خجلاً بهذه الكلمة، وكذلك كان المايسترو الأعظم، وكذلك كانت الفتاة. ولكن الكلمة عنت عند كل منهم شيئاً مختلفاً.

ـ «كنت انوي الاحتفاظ بها لكما في حال مجيء أيّ من الأثرياء المتهالكين على الربح المحرّم. لقد ذهبوا الآن ليقامروا في «الليدو». كنت أحاول أن لا أبيعها.»

فقالت الفتاة: «يسرني أن أطعَمَ شيئاً من جراد البحر. بارداً مع المايونيز. وأن يكون المايونيز كثيفاً.» لقد قالت هذا بالإيطالية.

ثم قالت للكولونيل، في نبرة جدية: «أليس جراد البحر غالياً أكثر مما ينبغي؟»

فقال الكولونيل: Az hija mia

فقالت: «إلمس جيبك الأيمن.»

فقال المايسترو الأعظم: «سوف أتأكد من أن تلك الجرادة ليست غالية أكثر مما ينبغي. وإلاّ اشتريتها أنا. في استطاعتي أن أفوز بها في يسر بالغ لقاء أجري الأسبوعي.»

ـ «سوف تباع للتروست Trust» كذلك قال الكولونيل، وكانت لفظة «تروست» هذه هي اللقب المختصر الذي أطلقوه على القوات العسكرية المحتلة مدينة تريستا. «إنها لن تكلفني غير أجرة يوم واحد.»

فقالت الفتاة: «ضع يدك في جيبك الأيمن واستشعر أنك موسر جداً.»

وأدرك المايسترو أن هذه نكتة شخصية ومضى لسبيله، معتصماً بالصمت. كان سعيداً بالفتاة، التي احترمها وأعجب بها، وكان سعيداً لما نعِمَ به الكولونيل من متعة وبهجة.

وقال الكولونيل: «أنا غنيّ. ولكن إذا ناكدتني بالإشارة إلى تلك الأحجار على نحو موصول، أعدتها إليك، بأن أضعها على غطاء المائدة، وعلى مرأى من الناس جميعاً.»

كان قد شرع هو يناكدها بدوره، على نحو خشن، رادّاً على الهجوم بهجوم معاكس من غير أن يفكر في ذلك مجرد تفكير.

فقالت: «لا، لن تفعل ذلك لأنك شرعت تحب تلك الأحجار.»

ـ «إني لمستعد لأن أمسك بأيما شيء أحبه وأقذف به من أعلى شاطئ صخري قُدِّر لعينيك أن ترياه، وأن لا أنتظر حتى أسمعه يرتطم بالأرض.»

فقالت الفتاة: «لا، لن تفعل. إنك لن تقذف بي من أيما شاطئ صخري عالٍ.»

فأقرها الكولونيل قائلاً: «لا. واغفري لي حديثي الجافي هذا.»

فقالت الفتاة له: «إن حديثك لم يكن جافياً جداً، وأنا لم أصدّقه على أية حال. والآن هل أمضي إلى حجرة النساء لتسريح شعري وأظهار نفسي بمظهر لائق أم أمضي معك إلى حجرتك؟»

ـ «أيّ الخطتين تؤثرين؟»

ـ «أن أمضي إلى حجرتك، طبعاً، وأرى كيف تعيش فيها وكيف يجري كل شيء هناك.»

ـ «وأهل الفندق؟»

ـ «كل شيء أمسى معروفاً في البندقية على أية حال. ولكن الناس يعرفون أيضاً من هي أسرتي وأني فتاة صالحة. وهم يعرفون أيضاً أن المجتمِعَيْن أنا وأنت. إن لنا رصيداً نستطيع أن نستنفده.»

فقال الكولونيل: «حسن. بالسلّم أم بالمصعد؟»

ـ «بالمصعد،» كذلك قالت، وسمع التغير الطارئ على صوتها. «في استطاعتك أن تنادي غلاماً، وإذا شئت شغّلناه نحن بنفسينا.»

فقال الكولونيل: «فلنُشغّله نحن بنفسينا. لقد تبحرتُ في شؤون المصاعد منذ عهد بعيد.»

كانت رحلة المصعد ناجحة يشوبها ارتطام طفيف، ثم اطّرد التيار الكهربائي آخر الأمر.

وقال الكولونيل في ذات نفسه: تزعم أنك تبحَّرت في هذا، ايه؟ من الخير لك أن تتبحر فيه من جديد.

لم يكن الرواق جميلاً الآن فحسب، بل كان مثيراً. ولم يكن ادخال المفتاح في القفل عملية عادية، بل كان طقساً من الطقوس.

ـ «ها هي ذي،» كذلك قال الكولونيل وهو يدفع الباب بعد أن فتحه. «كيف تجدينها؟»

فقالت الفتاة: «إنها فاتنة. ولكنها قارسة إلى حد رهيب بسبب من هذه النوافذ المفتوحة.»

ـ «سوف أغلقها.»

ـ «لا، أرجوك. دعها مفتوحة إذا كنت تحبّها هكذا.»

وقبّلها الكولونيل وأحسّ بجسدها الرائع الممشوق، الغض، اللدن، الحسن البناء يلامس جسده الذي كان قاسياً وحسناً ولكنه مضنىً. وفيما هو يقبّلها لم يفكر في شيء البتة.

وتبادلا القبلات فترة طويلة، وقد وقفا منتصبين، واستغرقا في التقبيل، غير حافلين ببرد النوافذ المفتوحة المطلة على القناة العظمى.

وقالت: «أوه!» ثم أضافت: «أوه!»

وقال الكولونيل: «لسنا مدينين بشيء. بشيء البتة.»

ـ «هل ستتزوجني وهل سننجب الأولاد الخمسة؟»

ـ «سوف أفعل! سوف أفعل!»

ـ «هل ستفعل حقاً؟»

ـ «من غير ريب.»

ـ «قبلني كرة أخرى، ودع أزرار سترتك العسكرية توجعني ولكن ليس أكثر مما ينبغي.»

ووقفا هناك وتبادلا قبلات حارة. وقالت: «عندي خيبة أمل لك. إن عندي، في كل مسألة من المسائل، خيبة أمل.»

قالت ذلك وكأنه رأي لا يحتمل الجدل. ولقد تناهى إلى الكولونيل كما تناهت إليه رسالة من إحدى الكتائب الثلاث، عندما نطق قائد الكتيبة بالحقيقة المطلقة ونقل إليه أسوأ الأنباء.

ـ «أواثقة أنت مما تقولين؟»

ـ «نعم.»

فقال: «يا بنيَّتي المسكينة!»

ولم يكن ثمة، الآن، أيما شيء قاتم في تلك الكلمة ولقد كانت بنته حقاً، ورثى لها وأحبها.

وقال: «لا بأس. سرِّحي شعرك، وجددي حمرة شفتيك وما إلى ذلك، ولسوف ننعم بعشاء شهيّ.»

ـ «قل كرة أخرى، أولاً، إنك تحبني واضغط بأزرارك على صدري ضغطاً محكماً.»

ثم إنه همس في أذنها على أرقّ نحو عرفه، همس مثل همسه يوم كانوا على مبعدة خمسة عشر قدماً وكان هو ملازماً غضّ الشباب يقوم بواجب الحراسة الليلية: أنا أحبكِ، يا حبي الأفضل والأخير والوحيد الصادق.»

فقالت: «حسن.» وقبلته في حرارة حتى لقد استطاع أن يستشعر ملحَ الدم العذبَ داخل شفته. وقال في ذات نفسه: وأنا أحب هذا أيضاً.

ـ «والآن سوف أسرح شعري وأجدّد حمرة شفتيّ وفي ميسورك أن تراقبني.»

ـ «هل تريدين أن أقفل لك النوافذ؟»
ـ «لا. سوف نفعل ذلك كله في غمرة البرد.»
ـ «من تحبين؟»
فقالت: «أنت. ولسنا ننعم بحظ عظيم، أليس كذلك.»
فأجابها الكولونيل: «لست أدري. ابدأي في تسريح شعرك.»
ومضى الكولونيل إلى الحمام ليغتسل استعداداً لتناول طعام العشاء. وكان الحمام هو الجزء الوحيد غير المُرضي في تلك الحجرة. ذلك بأن الـ «غريتي» شُيِّد أول ما شُيِّد ليكون قصراً، ومن هنا لم يكن في حجراته، عند بنائه حمامات، حتى إذا أضيفت إليه في ما بعد أقيمت في الرواق، فكان على الراغبين في استعمالها أن يحيطوا إدارة الفندق علماً بذلك على نحو مسبقٍ فتعمد إلى تسخين الماء وتقديم المناشف.
وكان هذا الحمام قد اقتُطع، اعتباطياً، من إحدى زوايا الحجرة. ولقد كان حماماً دفاعياً أكثر منه هجومياً، كذلك استشعر الكولونيل. وفيما كان يغتسل، مضطراً إلى النظر في المرآة ليمحو أيما أثر من آثار أحمر الشفاه، رأى الكولونيل إلى وجهه.
وقال في ذات نفسه: «إنه يبدو وكأنّ نجاراً غيرَ مبالٍ قَدَّهُ من خشب.»
ونظر إلى مختلف الندوب والأخاديد التي كانت قد ظهرت قبل أن تُعرَف الجراحة التجميلية، وإلى الخطوط الرفيعة، التي خلفتها الجراحات التجميلية البارعة بعد إصابة الرأس بجراح، والتي ما كان يلحظها غير المطلعين على سرّها.
حسناً، هذا كل ما أستطيع أن أقدّمه كشدق أو واجهة، كذك قال في ذات نفسه. وإنها لتقدمة هزيلة إلى حدٍ لعين. وخير ما فيها أنها مسفوعةٌ وهذا ما يجردها من بعض دمامتها. ولكن، يا للمسيح، أيّ رجل بشع أنا!

ولم يلاحظ فولاذ عينيه العتيق البالي، وغضون الضحك الصغيرة المتطاولة عند زوايا عينيه، لا ولم يلاحظ أن أنفه المكسور كان أشبه بأنف مصارع محترف في التماثيل الأشد إمعاناً في القِدَم. بل لم يلاحظ فمه الرقيق في جوهره والذي كان في إمكانه أن يصبح قاسياً لا يعرف الرحمة حقاً.

اذهبي إلى الجحيم، كذلك قال للمرآة. وأنت أيها البائس المقهور، هل يتعين عليّ وعليك أن نعاود الجلوس في حضرة السيدات؟

وغادر الحمام إلى الحجرة، وكان ناضر الشباب كعهده يوم شنّ هجومه العسكري الأول. لقد خلَّف في ذلك الحمام كل الأشياء التافهة الحقيرة كما هي الحال دائماً، هكذا قال في ذات نفسه. فذلك هو المكان الذي جُعلت له.

وقال بالفرنسية: أين ثلوج العام الماضي؟ ثلوج الأيام الغابرة؟ كل هذه الأشياء وأمثالها في المبولة ? Ou sont les neiges d'antan
Ou sont les neiges d'autrefois ? Dans le pissoir toute la chose comme ça.

وكانت الفتاة، التي كان اسمها الأول ريناتا، قد فتحت بابَيْ الخزانة الطويلة. وكان البابان مكسوَّين بكاملهما بالمرايا، من داخل، وكانت تسرِّح شعرها.

إنها لم تكن تسرِّحه زهواً منها وعُجباً، لا ولا لكي تُحدِث في نفس الكولونيل ما كانت تعلم أنِ في إمكان ذلك أن يحدثه وما كان خليقاً به أن يُحدثه. كانت تسرّحه في عسر ومن غير توقير. وإذ كان جدّ كثيف، نابضاً بالحياة كشعر الفلاحات أو كشعر الفاتنات من نساء طبقة النبلاء العليا، فقد قاوم المشط وتمرّد عليه.

فقالت: «لقد جعلته شديد التشابك والتعقيد. ألا تزال تحبني؟»

فقال الكولونيل: «بلى. هل تسمحين لي بأن أساعدك؟»

ـ «لا. لقد دأبت، طوال حياتي، على تسريحه بنفسي.»

ـ «في استطاعتك أن تقفي مجانَبَةً.»

ـ «لا. إن جميع خطوط جسمي الحدّية هي لأولادنا الخمسة ولرأسك أنت كي يستنيم إليها.»

فقال الكولونيل: «كنت أفكر في الوجه وحسب. ولكني أشكرك لتنبيهكِ إياي. لقد تردّى انتباهي في الخطأ كرة أخرى.»

ـ «أنا وقحة أكثر مما ينبغي.»

فقال الكولونيل: «إنهم في أميركة يصنعون هذه الأشياء من أسلاك ومطاط اسفنجيّ، كذلك الذي نستعمله في مقاعد الدبابات. والمرء لا يدري هناك، أبداً، ما إذا كان الأمر ينطوي على أي قدر من الحقيقة إلاّ إذا كان ولداً خبيثاً، مثلي أنا.»

ـ «أما هنا فالوضع غير ذلك.» قالت هذا وأدارت شعرها بالمشط ـ وكان الآن مفروقاً ـ إلى أمام حتى أمسى تحت خط وجنتها، ثم أمالته إلى الوراء فتدلىّ على منكبيها.

ـ «هل تجده أنيقاً؟»

ـ «إنه ليس مغالياً في الأناقة ولكنه جذاب إلى حد لعين.»

ـ «في استطاعتي أن أرفعه إلى أعلى وأن أفعل غير ذلك إذا كنت ممن يُعجبون بالأناقة ويقدّرونها. ولكني لا أحسن استعمال دبابيس الشعر، وإن ذلك ليبدو لي حماقة بالغة.» كان صوتها رخيماً جداً، ولقد ذكّره دائماً ببابلو كاسالز وهو يعزف على الفيولانسيلو بحيث جعله يستشعر وكأن به جرحاً لا يطيق له احتمالاً. ولكنك تستطيع أن تحتمل كل شيء، كذلك قال في ذات نفسه.

وقال الكولونيل: «أنا أحبك كما أنتِ حباً عظيماً. وأنتِ أجمل امرأة قُدِّر لي أن أعرفها، أو أراها، حتى في لوحات الرسامين الكبار.»

ـ «إني لأعجب لماذا لم تأتِ اللوحة.»

ـ «إن امتلاك تلك اللوحة شيء رائع،» كذلك قال الكولونيل، وقد عاد الآن جنرالاً كرة أخرى من غير أن يفكر في ذلك. «ولكنه أشبه بسَلْخ حصان ميت.»

فقالت الفتاة: «لا تكن فظاً، أنا لا استشعر البتة وكأنني فظة هذه الليلة.»

ـ «لقد انزلقتُ إلى عامية مهنتي القذرة sale métier»

فقالت: «لا، أرجوك أن تطوقني بذراعيك، في رفق وإحكام. أرجوك، إنها ليست مهنة قذرة. إنها أقدم المهن وخيرها، برغم أن الكثرة الكبيرة من الذين يمارسونها تافهون.»

وطوّقها بأقصى ما استطاع من إحكام من غير أن يؤذيها، فقالت: «أنا لا أحبّ لك أن تكون محامياً أو كاهناً. لا، ولا أن تكون تاجراً يبيع الأشياء، أو رجلاً ناجحاً ذا ثروة طائلة. أنا أحب لك أن تكون كما أنت في مهنتك هذه، وإني لأحبك. أرجوك أن تهمس في أذني إذا شئت.»

وهمس الكولونيل في أذنها، فيما هو يضمها إليه في قوة، وبقلبه المنسحق انسحاقاً كاملاً في همسهِ الذي كاد أن لا يُسمع إلاّ كما تُسمع صفرة كلب صامتة على مقربة دانية من الأذن: «أنا أحبك، أيتها العفريتة وأنت بنيتي أيضاً. ولستُ أبالي بخسائرنا لأن القمر أمنا وأبونا. والآن فلنهبط لتناول العشاء.»

وهمس بهذه الجملة الأخيرة في صوت كان من الخفوت بحيث لا يستطيع سماعه غير المحب.

وقالت: «سمعاً وطاعة. أجل، ولكن قبلني مرّة أخرى أولاً.»

[12]

كانا الآن جالسين إلى مائدتهما في زاوية المشرب القصوى، حيث كان كلّ من جناحي الكولونيل مصوناً مغطىً، وحيث أسند ظهره في مَنَعة إلى زاوية الحجرة. ولم يغفل المايسترو الأعظم عن ذلك، فقد كان رقيباً ممتازاً في سرية مشاة صالحة، في فرقة عسكرية من الطراز الأول، فخليق به أن لا يُجلس «زعيمه» في وسط حجرة بقدر ما كان خليقاً به أن لا يتخذ موقفاً دفاعياً أحمق.

وقال المايسترو الأعظم: «هي ذي جرادة البحر.»

كانت جرادة البحر مهيبة. وكان حجمها ضعف حجم جرادات البحر العادية، وكان تجهمها قد زال بفضل الغلي في الماء الحارّ، فهي تبدو الآن وكأنها نصبٌ تذكاري لنفسها الميتة. وكان لا ينقصها شيء حتى عيناها الجاحظتان، وحتى ملامسُها[1] الدقيقةُ البالغة الطول التي جُعلت لكي تمكِّنها من إدراك ما قد تعجز العينان الحمقاوان عن إعلامها به.

إن هذه الجرادة البحرية تبدو شبيهة بعض الشيء بجورجي باتون[2]، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه. بيد أنها لم تبك قط، في أغلب الظن، عندما أخرجت من موضعها.»

(1) الملامس: قرون الحشرة التي بها تتلمس طريقها.

(2) patton جنرال أميركي 1885 ـ 1945 لعب دوراً هاماً في الحرب العالمية الثانية. (المعرب)

فسألته الفتاة بالإيطالية: «أتظن أنها سوف تكون قاسية؟»

ـ «لا،» كذلك أكد لها المايسترو الأعظم وهو لا يزال منحنياً بالجرادة البحرية. «إنها ليست قاسية البتة. إنها ضخمة وحسب. أنتما تعرفان هذا النوع.»

فقال الكولونيل: «حسن جداً. ضعها على المائدة.»

ـ «وما الذي ستشربانه؟»

ـ «ماذا تريدين أن تشربي، يا بنيتي؟»

ـ «ماذا تريد أنت؟»

فقال الكولونيل: «كابري بيبانكو. ولتكن صرفةً جد مثلوجة.»

فقال المايسترو الأعظم: «وهي جاهزة لديّ.»

فقالت الفتاة: «نحن نأخذ بأسباب المرح. لقد عدنا إلى ذلك من غير ما أسىً. أليست جرادة بحرية مهيبة؟»

ـ «من غير ريب.» كذلك أجابها الكولونيل. ومن الخير لها أن تكون رقيقة الحاشية.»

فقالت الفتاة له: «سوف تكون كذلك. المايسترو الأعظم لا يكذب. أليس من الرائع أن يكون ثمة أناس لا يكذبون؟»

فقال الكولونيل: «ذلك شيء رائع جداً، ونادرٌ جداً. لقد كنت أفكّر اللحظة برجل يدعى جورجي باتون... رجل ربما لم يعرف الصدق طوال حياته.»

ـ «هل تعمد أنت إلى الكذب في بعض الأحيان؟»

ـ «لقد كذبت أربع مرات. ولكني كنت في كل مرة مُرهقاً جداً.» قال ذلك ثم أضاف: «هذا ليس بمبرّر على أية حال.»

ـ «أما أنا فقد كذبت كثيراً حين كنت فتاة صغيرة. ولكن ذلك كان في الغالب من أجل اختلاق القصص. أو هذا ما أرجوه. ولكني لم أكذب في حياتي قط رغبةً في نفع ذاتيّ.»

فقال الكولونيل: «لقد كذبتُ أنا أربع مرات.»

ـ «هل كنت تصبح جنرالاً لو لم تكذب؟»

ـ «لو كذبتُ كما تعوّد الآخرون أن يكذبوا لأصبحت جنرالاً بثلاث نجوم.»

ـ «هل كان خليقاً بك أن تستشعر قدراً من السعادة أعظم لو أصبحت جنرالاً بثلاث نجوم.»

فقال الكولونيل: «لا، من غير ريب.»

ـ «ضع يدك اليمنى، يدك الحقيقية، في جيبك مرةً وقل لي ما شعورك.»

ونزل الكولونيل عند رغبتها.

وقال: «شيء رائع. ولكن عليَّ أن أعيدها إليك كما تعلمين.»

ـ «لا. أرجوك، لا.»

ـ «لن نخوض في هذا البحث الآن.»

وفي تلك اللحظة كانت الجرادة البحرية قد قُدّمت إليهما.

كانت رقيقة الحاشية، وكانت تتمتع بتلك اللطافة الزَلِقة الفريدة الخاصة بتلك العضلة الرافسة التي هي ذيلها. وكانت براثنها ممتازة: إنها لم تكن هزيلة أكثر مما ينبغي، ولم تكن بدينة أكثر مما ينبغي.

وقال الكولونيل للفتاة: «الجرادة البحرية تبلغ كمالها مع القمر. فحين يكون القمر قائماً تكون الجرادات البحرية غير جديرة بأن تؤكل.»

ـ «لم أكن أعرف ذلك.»

ـ «أحسب أن مرّد هذا إلى أنه، حين يكون القمر بدراً، تغتذي الجرادات البحرية طوال الليل. أو ربما كان مرد هذا إلى أن البدر يسوق إليها ما تغتذي به.»

ـ «إنها تُقبل من الشاطئ الدالماسي، أليس كذلك؟»

فقال الكولونيل: «بلى. ذلك هو شاطئكم الغني بالسمك. ولعله يتعيّن عليّ أن أقول شاطئنا نحن الغني بالسمك.»

فقالت الفتاة: «قلها. أنت لا تدري مبلغ أهمية الأشياء التي تقال.»

ـ «إن أهميتها تصبح أعظم إلى حد لعين حين تخطّها على الورق.»

فقالت الفتاة: «لا، لست أقرّك على هذا. الورق لا يعني شيئاً إلاّ إذا قُلت الكلمات المسطورة عليه في قلبك.»

ـ «وماذا إن لم يكن لك قلب أو كان قلبك تافهاً لا قيمة له؟»

ـ «إن لك لقلباً، وهو ليس بتافه لا قيمة له.»

لشدّ ما أتمنى لو استبدل به قلباً جديداً، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه. أنا لا أفهم لماذا يتعين على هذه العضلة بالذات، من دون سائر العضلات، أن تخذلني. ولكنه لم ينطق بشيء من هذا ووضع يده في جيبه.

وقال: «إن ملمسها رائع. وإنك لتبدين رائعة.»

فقالت: «شكراً. سوف أتذكر هذا طوال الأسبوع.»

ـ «في استطاعتك دائماً أن تكتفي بالنظر إلى المرآة ليس غير.»

فقالت: «المرايا تضجرني. إنّ وضع أصبع الحمرة على الشفتين وتحريك إحداهما فوق الأخرى لجعلها تنتشر على الوجه الأفضل وتسريح الشعر الكثيف أكثر مما ينبغي... إن هذا كله ليس حياة جديرة بامرأة، بل ليس حياة جديرة بفتاة متوحدة، تحب شخصاً ما. فحين تريد أن تكون القمرَ ومختلف النجوم وأن تحيا مع بعلك وأن تنجب خمسة أولاد لا يكون النظر في المرآة واصطناعُ الخدع النسوية على اختلافها مثيراً جداً.»

ـ «إذن فلنتزوج في الحال.»

فقالت: «لا. لقد تعيّن عليّ أن اتخذ قراراً في هذه المسألة، كشأني في المسائل الأخرى. إني أقضي أيام الأسبوع كلها في اتخاذ القرارات.»

فقال لها الكولونيل: «وأنا اتخذ القرارات أيضاً. ولكني لا أقوى على التزام هذه القرارات دائماً.»

ـ «دعنا نكفّ عن الحديث في هذا الموضوع. إن ذلك قد يحدث جرحاً عذباً، ولكني أعتقد إن من الخير لنا أن نكتشف أي أنواع اللحم موجودة عند المايسترو الأعظم. احتسِ خمرك، أرجوك. إنك لم تمسّها بعد.»

ـ «سوف امسّها الآن.» كذلك قال الكولونيل. ومسَّ الخمر، فإذا هي هزيلة باردة مثل خمور اليونان، وغير راتنجيَّة، ولكن جسدها كان في مثل امتلاء جسد ريناتا وجماله.

ـ «إنها شديدة الشبه بك.»

ـ «أجل. أدري. وهذا هو السبب الذي من أجله أردتك أن تذوقها.»

فقال الكولونيل: «إني أذوقها. ولسوف اتجرع الآن كأساً مترعة.»

ـ «أنت رجل طيب.»

ـ «شكراً.» كذلك قال الكولونيل. «سوف أتذكر هذا طوال الأسبوع، وأحاول أن أكون رجلاً طيباً.» ثم أضاف: «أيها المايسترو الأعظم.»

وحين أقبل المايسترو الأعظم، سعيداً، نزاعاً إلى التآمر، متجاهلاً قرحته المعِدية سأله الكولونيل: «أي ضرب من اللحم عندك يستحق أن نلتهمه؟»

فقال المايسترو الأعظم: «لست أعلمِ ذلك علم اليقين، ولكني

سوف أستطلع. إن مواطنك قاعد هناك على مبعدة تمكّنه من السماع. لقد أبى عليَّ أن أجلِسَهُ في الزاوية القصوى.»

فقال الكولونيل: «حسن. سوف نقدِّم له موضوعات يكتب فيها.»

ـ «إنه يكتب كل ليلة، كما تعلم. لقد سمعت ذلك من أحد زملائي في الفندق الذي ينزل فيه.»

فقال الكولونيل: «حسن. هذا يدل على أنه مُجِدٌّ برغم أنه عمّر أكثر من مواهبه.»

فقال المايسترو الأعظم: «إننا كلنا مجدّون.»

ـ «بطرائق مختلفة.»

ـ «سوف أمضي وأستطلع أيّ نوع من اللحم موجود فعلاً.»

ـ «استطلع في عناية.»

ـ «أنا مُجدّ.»

ـ «وأنت أيضاً فطنٌ إلى حدّ بعيد.»

وانصرف المايسترو الأعظم، وقالت الفتاة: «إنه رجل ظريف، ويسعدني أن يكون مولعاً بك هذا الولوع كله.»

فقال الكولونيل: «نحن صديقان حميمان. وأرجو أن يجد لك شريحة لحم بقر جيدة.»

ـ «هناك شريحة لحم بقر جيدة جداً.» كذلك أعلن المايسترو الأعظم حين عاد.

ـ «خذيها يا بُنيّتي. أنا أفوز بأمثالها دائماً على مائدتنا المشتركة مع زملائي من الضباط. هل تحبينها قليلة النضج؟»

ـ «قليلة النضج جداً، أرجوك.»

فقال الكولونيل: «كلها دم Al sangue، كما قال جون حين تحدَّث إلى النادل بالفرنسية. نيئة، زرقاء، Crudo, bleu، أو اجعلها قليلة النضج ليس غير.»

فقال المايسترو الأعظم: «إنها قليلة النضج. وأنت، يا زعيمي؟»

ـ «محار السكالوبين مع المارسالا، وشيء من القُنّبيط المدمَّس بالزبدة. مع خرشوفة بالخلّ إذا وجدتَ واحدة. ماذا تريدين، يا بُنيّتي؟»

ـ «بعض البطاطا المهروسة وسلطة بسيطة.»

ـ «أنت فتاة في طور النمو.»

ـ «أجل. ولكن عليّ أن لا أنمو أكثر مما ينبغي، وأن لا أنمو في الاتجاهات المغلوطة.»

فقال الكولونيل: «أحسب أن هذا يضبط النموّ ويوجهه. ما رأيك في ألفيّة من الفالبوليشيلاّ؟»

ـ «ليس عندنا ألفيّات. هذا فندق راقٍ كما تعلم. إنها تأتينا معبأة بزجاجات.»

فقال الكولونيل: «لقد نسيت. هل تذكر عندما كان ثمن الليتر الواحد منها ثلاثين سنتيماً؟»

ـ «ويوم كنا نلقي الألفيات الفارغة على حرس المحطة من قطارات الجند الحديدية؟»

ـ «وكنا نسفح كل ما تبقى فيها على القنابل اليدوية ثم نقذف بها إلى سفح الهضبة ونحن عائدون من مرتفعات الغرابّا؟»

ـ «وكانوا حين يرون الانفجارات يحسبون أن ثمة هجوماً واقتحاماً للخطوط، وكنت لا تحلق لحيتك أبداً، وكنا نرتدي الـ Fiamme nere فوق السترات الرمادية المفتوحة والكنزات الرمادية؟»

ـ «وشربتُ أنا شراب الغرابا ولم أجد لها مذاقاً؟»

فقال الكولونيل: «لا ريب في أننا كنا بالغي الطيش آنذاك.»

ـ «أجل، كنا بالغي الطيش آنذاك،» كذلك قال المايسترو الأعظم. «لقد كنا فتيان سوء آنذاك، وكنت أنت أسوأنا جميعاً.»

فقال الكولونيل: «أجل. أحسب أننا كنا فتيان سوء إلى حد ما. أنت تغفرين لي هذا، أليس كذلك.»

ـ «أحسب أنه ليس لديك صورة ترقى إلى ذلك العهد... هل لديك؟»

ـ «لا، لم يكن ثمة رسوم إلاّ وسيظهر فيها دانونزيو. وفوق هذا فإن معظم الرفاق انتهوا إلى نهاية فاجعة.»

فقال المايسترو الأعظم: «ما عدانا. والآن يتعيَّن عليَّ أن أمضي وأرى أين وصلوا في إعداد الشريحة.»

واستسلم الكولونيل ـ الذي عاد الآن ملازماً ثانياً، ممتطياً متن شاحنة، وقد كسا الغبار وجهه فلم يتبدَّ غيرُ عينيه المعدنيتين، وكانتا حمراوَي الحواشي محتقنتين ـ أقول استسلم الكولونيل للتفكير.

المواقع الرئيسية الثلاثة، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه. جبل «الغرابَّا» وفيه «آسالون» و «بيرتيكا»، والهضبة التي لا أذكر اسمها والتي تقوم إلى ناحية اليمين. ذلك كان المكان الذي ترعرعت فيه، كذلك قال في ذات نفسه، وكل ليلة كنت أفيق والعرق يتصبب مني، حالماً بأنني لن أستطيع إخراجهم من الشاحنات. وليس من ريب في أنه ما كان ينبغي لهم أن يُخرجوا منها أبداً. ولكن يا لها من مهنة!

وقال للفتاة: «جيشنا كما تعلمين، يستطيع المرء أن يقول إن الجنرالات، أو الكثرة الكبرى منهم، لم يقاتلوا في أيما يوم قط. هذا غريب جداً، والهيئة العليا تبغض أولئك الذين قاتلوا.»

ـ «وهل يقاتل الجنرالات فعلاً؟»

ـ «أوه، نعم. حين يكونون برتبة رئيس (كابتين) وملازم أول أو ثانٍ. أما في ما بعد فالقتال ـ إلاّ في حالات الانكفاء والانسحاب ـ يكون عملاً أقرب إلى الحمق.»

ـ «وهل قاتلت كثيراً؟ أنا أعلم أنك فعلتَ، ولكن قل لي ذلك بنفسك.»

ـ «لقد قاتلت إلى حدّ جدير بأن يحمل المفكرين الكبار على تصنيفي في عداد الحمقى.»

ـ «حدثني عن ذلك.»

ـ «حين كنت غلاماً قاتلت ضد أروين رومل[1] نصف المسافة من كورتينا إلى الغرابًا حيث صمدنا. كان رئيساً (كابتن) آنذاك، وكنت أنا مرشح رئيس. ملازماً ثانياً في الواقع.»

ـ «هل عرفته؟»

ـ «لا. لم أعرفه إلاّ بعد انقضاء الحرب حين أمسى في ميسورنا أن نتحدث معاً. كان قريباً إلى القلب جداً، ولقد أحببته. كنا نتزلج معاً.»

ـ «هل أحببت كثيراً من الألمان؟»

ـ «كثيراً جداً. وكنت كلفاً أكثر ما يكون بـ «ارنست يودت»

ـ «ولكنهم كانوا على ضلال.»

ـ «طبعاً. ولكن من الذي لم يكن على ضلال؟»

ـ «أنا لا أستطيع أن أحبهم، أو أن اتخذ منهم موقفاً متسامحاً كما تفعل أنت بعد أن قتلوا أبي وأحرقوا دارتنا في الـ «برينتا»، وبعد أن رأيت ضابطاً ألمانياً يطلق النار من «بارودة خردق» على الحمام في ساحة كاتدرائية القديس مرقص.»

فقال الكولونيل: «لقد فهمت. ولكن أرجوك، يا بنيّتي، أن تحاولي فهم موقفي أيضاً. حين يقتل المرء هذا العدد الكثير من الناس يصبح في ميسوره أن يكون سمحاً.»

---

(1) Erwin Rommel قائد القوات الألمانية في شمال إفريقية خلال الحرب العالمية الثانية. (المعرب)

ـ «كم رجلاً قتلت؟»

ـ «مئة واثنين وعشرين مؤكّدين. ولست أذكر الاحتمالات.»

ـ «ولم يبكّتك ضميرك؟»

ـ «البتة.»

ـ «ولم يتمثّل لك ذلك على صورة كوابيس؟»

ـ «لا. لم أرَ أية كوابيس. ولكني أرى، عادة، أحلاماً غريبة. أحلاماً متصلة بالمعركة، دائماً، بعد فترة من انقضاء المعركة. أما بعد ذلك فالكثرة الكبرى مما أراه أحلام غريبة عن المَوَاطن والأماكن. نحن نحيا على أحداث أرض المعركة،، كما تعلمين. وأرض المعركة هي ما يبقى في الجزء الحالم من عقولنا.»

ـ «ألا تراني، البتة، في ما يراه النائم؟»

ـ «أنا أحاول ذلك. ولكني لا أستطيع.»

ـ «لعل اللوحة أن تساعدك.»

فقال الكولونيل: «أرجو ذلك. لا تنسي، من فضلك، أن تذكريني بإعادة أحجار الزمرد إليك.»

ـ «أرجوك أن لا تكون قاسياً عليّ.»

ـ «إن لديّ ضروراتي الصغيرة الخاصة بالشرف بنفس النسبة التي يشدّنا بها حبنا العظيم الغامر. إننا لا نستطيع أن نمتلك أحدهما ونتخلى عن الآخر.»

ـ «ولكن في إمكانك أن تمنحني بعض الامتيازات.»

فقال الكولونيل: «لقد منحتك ذلك. إن أحجار الزمرد لفي جيبي.»

عندئذ أقبل المايسترو الأعظم بشريحة لحم البقر وبمحار السكالوبين والخُضر. لقد حملها غلام صقيل الشعر لا يؤمن بشيء، ولكنه كان يسعى جاهداً لأن يصبح نادلاً ثانياً ناجحاً. كان عضواً في

«المنظمة». وسكب المايسترو الأعظم الطعام في رشاقة، وفي احترام للطعام وللذين كانا على وشك أن يتناولاه.»

وقال: «إشرعا الآن في الأكل.»

ـ «انزع سدادة الفالبوليسيلاّ،» كذلك قال للغلام ذي العينين غير المصدّقتين الشبيهتين بعيني كلب صغير طويل الشعر والأذنين.

ـ «ما عندك من معلومات عن تلك الشخصية؟» كذلك سأله الكولونيل، مشيراً إلى مواطنه المجدور الجالس إلى المائدة يمضغ طعامه، فيما كانت رفيقته المسّنة تأكل في كياسة تذكّر بكياسة أبناء الضواحي.

ـ «عليك أنت أن تخبرني. وليس العكس.»

فقال الكولونيل: «أنا لم أره قط قبل اليوم. إنه أعسر من أن يُهضم مع الطعام.»

ـ «إنه يلاطفني. وهو يتكلم إيطالية رديئة، على نحو مثابر. ويذهب إلى كل مكان في «بيديكير»[1] وليس له أي ذوق لا في الطعام ولا في الشراب. المرأة ظريفة. وأحسب أنها عمته. ولكني مفتقر إلى المعلومات الحقيقية.»

ـ «إنه يبدو وكأنه شيء نستطيع الاستغناء عنه.»

ـ «أحسب أن في إمكاننا ذلك، عند الاقتضاء.»

ـ «هل يتحدث عنا؟»

ـ «لقد سألني من أنتما؟ ولم يكن اسم الكونتيسة غريباً بالنسبة إليه. لقد زار ـ على صفحات الكتاب ـ عدداً من القصور التي كانت الأسرة تملكها في الأيام الخالية. ولقد أعجب باسمك، يا سيدتي، وكنت قد ذكرته له لكي أثير مشاعره.»

---

(1) Baedeker سلسلة كتب وضعها لإرشاد السياح ناشر ألماني يحمل هذا الاسم. (المعرب)

ـ «هل تحسب أنه سوف يُنزلنا في مؤلف من مؤلفاته؟.»

ـ «أنا واثق من ذلك. إنه يُنزل كل شيء في كتاب.»

فقال الكولونيل: «ينبغي لنا أن نُنزل في كتاب. هل تمانعين، يا بنيَّتي؟.»

ـ «طبعاً لا،» كذلك قالت الفتاة. «ولكني أوثر أن يكون دانتي هو المؤلف.»

فقال الكولونيل: «دانتي ليس بيننا.»

فسألته الفتاة: «هل تستطيع أن تخبرني أيّ شيء عن الحرب؟ أيّ شيء يجازُ لي أن أعرفه؟»

ـ «من غير ريب. أستطيع أن أخبرك بكل ما يروق لك منها.»

ـ «كيف كان الجنرال آيزنهاور؟»

ـ «كان يمثل عصبة ايبوورث[1] خير تمثيل. ولعل هذا حكم ظالم أيضاً. وكان خاضعاً فوق هذا لمؤثرات أخرى مختلفة. سياسي ممتاز. جنرال سياسي. عظيم البراعة في هذا الحقل.»

ـ «والزعماء الآخرون؟»

ـ «فلنتجنب الكلام عنهم. لقد تكلموا عن أنفسهم، إلى حدّ كاف، في مذكراتهم. ومعظمهم كان موضع الثقة القصوى بسبب من شيء لم تسمعي به قط يدعى «نادي الروتاري». ففي هذا النادي لديهم أزرار مطلية بالميناء تحمل اسماءهم الأولى، وإنك لتغرَّم أذا ما دعوتهم باسمائهم العادية. إنهم لم يقاتلوا البتة. البتة.»

ـ «ألم يكن ثمة قادة بارعون؟»

ـ «بلى كان ثمة كثير. برادلي، المدرّس، وكثير آخرون. أنا

(1) Epworth League منظمة دينية للشبان الميتوديين انشئت عام 1889 في كليفلند بولاية أوهيو في الولايات المتحدة. وقد استمدت اسمها من مسقط رأس جون ويزلي Wesley ايبروث، لينكولنشاير في إنكلترة. (المعرب)

أعطيك برادلي مثالاً على القائد البارع. البارع جداً.»

ـ «من كان هو؟»

ـ «كان قائد الجيش السابع عندما كنت أنا هناك. إنه راجح الفكر جداً. خفيف الحركة. دقيق، وهو اليوم رئيس الأركان العامة.»

ـ «ولكن ما رأيك في القادة الكبار الذين سمعنا عنهم كثيراً، مثل الجنرال مونتغوميري والجنرال باتون؟»

ـ «إنسيهما، يا بنيتي. فقد كان «مونتي» قائداً لا يستطيع أن يتحرك إلا إذا كانت نسبة رجاله إلى رجال العدو كنسبة خمسة عشر إلى واحد. ولم يكن ليتحرك بعد ذلك إلاّ في بطء وتوانٍ.»

ـ «لقد حسبت دائماً أنه كان جنرالاً عظيماً.»

فقال الكولونيل: «لا، لم يكن. وأسوأ ما في الأمر أنه كان يعرف ذلك. لقد رأيته يفد إلى أحد الفنادق فيخلع بذلته العسكرية الخاصة ويرتدي كسوة تجذب إليها أبصار الغوغاء لكي يخرج بعد ذلك ليلاً فيستثير همة جمهور العامة.»

ـ «هل تبغضه؟»

ـ «لا. كل ما أفكر فيه هو أنه جنرال بريطاني. أياً ما كان معنى هذا. ولا تستعملي أنتِ ذلك الاصطلاح.»

ـ «ولكنه قهر الجنرال رومل.»

ـ «أجل. ولكن ألا تعتقدين أن شخصاً آخر قد أسعفه؟ ومن ذا الذي لا يستطيع أن ينتصر حين تكون نسبة رجاله إلى رجال العدو كنسبة خمسة عشر إلى واحد؟ عندما قاتلنا هنا، أنا والمايسترو الأعظم، يوم كنا غلامين، أحرزنا النصر طوال عام كامل ونسبة رجالنا إلى رجال العدو كنسبة ثلاثة أو أربعة إلى واحد، ولقد انتصرنا في كل معركة. في ثلاث معارك رئيسية ضارية. ولذلك نستطيع أن نرسل النكات ولا نعرف التجهم. لقد قُتِل في ذلك العام أكثر من مئة

وأربعين ألف رجل. وهذا هو السبب الذي من أجله نستطيع أن نتحدث في مرح ومن غير مباهاة.»

فقالت الفتاة: «إنه لعلمٌ ملعون إلى أبعد الحدود؛ إذا جاز لنا أن ندعوه علماً. أنا أكره النّصب الحربية التذكارية، برغم أني احترمها.»

ـ «وأنا لا أحبها أيضاً. ولا أحب العملية التي أفضت إلى إقامتها. هل قُدِّر لكِ أن تشهدي نهاية تلك العملية؟»

ـ «لا. ولكني أودّ لو أعرف.»

فقال الكولونيل: «من الخير لك أن لا تعرفي. كلي شريحتك قبل أن تبرد، واغفري لي تحدُّثي عن مهنتي.»

ـ «أنا أبغضها ولكني أحبها.»

فقال الكولونيل: «أحسب أني اشاركك العواطف نفسها. ولكن فيمَ يفكر مواطني المجدور عند مبعدة ثلاث موائد؟»

ـ «في كتابه القادم، أو في ما تقوله صفحات دليل السيّاح.»

ـ «ما رأيك في الذهاب وامتطاء متن غندول في الريح بعد أن تناولنا طعام العشاء؟»

ـ «إن ذلك سيكون رائعاً.»

ـ «هل نخبر الرجل المجدور أننا ذاهبان؟ أنا أحسب أن النُقَر نفسها تكسو قلبه، وتكسو روحه، وربما كسَتْ فضوله أيضاً.»

فقالت الفتاة: «لن نخبره بشيء. في استطاعة المايسترو الأعظم أن ينقل إليه أي نبأ نريد إبلاغه إياه.»

ثم إنها راحت تمضغ شريحتها في قوة وإحكام، وقالت: «هل تعتقد بصحة ما يقولون من أن الناس يصنعون وجوههم الخاصة بأنفسهم بعد الخمسين؟»

ـ «أرجو أن لا يكون ذلك صحيحاً. لأني غير مستعد لأن أقرّ وجهي وأعترف به.»

ـ «أنت.» كذلك قالت. «أنت.»

فسألها الكولونيل: «هل الشريحة جيدة؟»

ـ «إنها رائعة. وكيف محار السكالوبين؟»

ـ «طريّ جداً. والصلصة غير حلوة البتة. هل أعجبتك الخُضَر؟»

ـ «القُنَّبيطة تكاد تكون هشَّة. مثل الكرفس.»

ـ «ينبغي أن ننعم ببعض من الكرفس. ولكني لا أعتقد أن عندهم شيئاً منه، وإلاّ لجاءنا المايسترو الأعظم به.»

ـ «ألسنا نستمتع بطعامنا؟ تخيّل لو استطعنا دائماً أن نتناول الطعام معاً.»

ـ «لقد اقترحت عليك ذلك من قبل.»

ـ «فلنجتنب الكلام في هذا الموضوع.»

فقال الكولونيل: «حسن جداً. ولقد اتخذت أنا قراراً أيضاً. إني أعتزم أن أهجر الجيش وأقيم في هذه المدينة، ببساطة كلية، مستعيناً على ذلك براتب التقاعد.»

ـ «هذا رائع. كيف تبدو في الملابس المدنية؟»

ـ «لقد رأيتني من قبل.»

ـ «أدري، يا عزيزي. لقد قلت ذلك على سبيل المزاح. إنك تطلق في بعض الأحيان ضروباً من المزاح القاسي، أيضاً، كما تعلم.»

ـ «سوف أبدو في مظهر حسن. أعني إذا كان لديكم هناك خياط يحسن تفصيل الملابس.»

ـ «ليس ههنا مثل هذا الخياط، ولكن ثمة واحداً في رومة. هل نستطيع أن نركب متن السيارة ونمضي معاً إلى رومة لكي نفوز بالملابس؟»

ـ «نعم. ولسوف نقيم خارج المدينة في فيتربو، ولن نقصد إليها

إلاّ التماساً للأثاث وابتغاء تناول الطعام حين تهبط العتمة. وبعد ذلك نتقلب عائدين بالسيارة في موهن من الليل.»

- «وهل سنرى ممثلي السينما وممثلاتها، ونتحدث عنهم في صراحة، و.... نشرب معهم كأساً؟»

- «سوف نراهم بالآلاف.»

- «هل سنراهم يتزوجون مثنى وثُلاث، ونرى البابا يباركهم بعد ذلك؟»

- «إذا ذهبتِ لمثل هذا الغرض.»

فقالت الفتاة: «لن أفعل. وهذا واحد من الأسباب التي تجعلني غير قادرة على الزواج منك.»

فقال الكولونيل: «فهمت. أشكركِ.»

- «ولكني سوف أحبك، أياً ما كان معنى ذلك. وأنت وأنا نعرف ما معناه جيداً، ما بقي كل منا على قيد الحياة وبعد ذلك.»

فقال الكولونيل: «لست أظن أن في استطاعتك أن تحبي كثيراً بعد أن تصبحي، أنتِ نفسكِ، جثة هامدة.»

وشرع يأكل الخرشوف، متناولاً ورقة واحدة منه في كل لقمة، غامساً إياها في صُحَيْن صلصة الخل.

فقالت الفتاة: «ولست واثقة من أن في استطاعتك أنت أيضاً أن تفعل. ولكني سوف أحاول. ألا يرفع من معنوياتك عِلمُكَ بأنك محبوب؟»

فقال الكولونيل: «بلى. أنا أشعر وكأني منطلق في هضبة جرداء صخرية إلى حد يجعلها تمتنع على الحفر والحرث، وصخورها صلدة كلها، ولكنها خلوٌ من النتوءات والأورام، وفجأةً استبدل بالعري دروعاً سابغة. أجل استبدل بالعري دروعاً وقد ولىّ الأعداء هاربين.»

- «يتعين عليك أن تقول ذلك لصديقنا الكاتب ذي الوجه الشبيه

بأخاديد القمر، بحيث يكون في ميسوره أن يكتبه الليلة.»

ـ «يتعين عليّ أن أقوله لدانتي لو كان دانتي بيننا.» كذلك قال الكولونيل وقد غدا هائجاً، فجأة، كالبحر حين تهب عليه عاصفة من عواصف خط الاستواء. «وسوف أخبره ما الذي يجدر بي أن أفعله لو حُوِّلتُ في مثل تلك الظروف إلى عربة مدرّعة.»

وفي تلك اللحظة وفد البارون آلفاريتو على حجرة الطعام. كان يبحث عنهما؛ وإذ كان قناصاً فقد لمحهما في الحال.

وتقدم نحو المائدة، وطبع قبلة على يد ريناتا قائلاً «تشاو،[1] ريناتا.» كان أقرب إلى الطول حسن البنية في ملابسه المدينية، وكان أشد الرجال الذين عرفهم الكولونيل خجلاً واستحياء. إنه لم يكن حيياً بسبب من جهالة، أو بسبب من شعور بالضيق في حضرة الناس. لا، لقد كان حيياً بالفطرة، شأن بعض الحيوانات، من مثل الـ «بونغو» الذي لا تراه في الأدغال البتة، والذي يتعين عليك أن تقتنصه بواسطة الكلاب.

ـ «يا زعيمي،» كذلك قال. وابتسم كما يستطيع الرجل الحييّ حقاً أن يبتسم.

إنها لم تكن ابتسامة الواثق المطمئنة، ولا تلك الابتسامة السريعة اللاذعة التي يُطلقها المعمّرون والأشرار. لم تكن تمت بأية صلة إلى الابتسامة الرابطة الجأش التي تصطنعها الفاجرة أو رجل السياسة عن عمد. لقد كانت هي تلك الابتسامة الغريبة النادرة التي ترتفع من الحفرة العميقة القاتمة ـ الأعمق من بئر، العميقة كمثل منجم عميق ـ الغائرة في الجوف.

ـ «لن أستطيع البقاء غير لحظة. ولقد أقبلت لأخبرك أن الجو

---

(1) Ciao وتعني بالإيطالية «إلى اللقاء»، وقد استعملت هنا وكأنها تحية لقاء. (المعرب)

يبدو جد ملائم للقنص. فأسراب البط تُقبل من الشمال بكثرة بالغة. إن بينها كثيراً من البط الضخم الذي تحبّ.» وابتسم كرة ثانيةً.

ـ «اجلس، يا آلفاريتو. أرجوك.»

فقال البارون آلفاريتو: «لا؛ نستطيع أن نلتقي في المرآب، الساعة الثانية والنصف إذا شئت. معك سيارة؟»

ـ «نعم.»

ـ «هذا جميل جداً. إن انطلاقنا في تلك الساعة يتيح لنا متسعاً من الوقت لرؤية البط في الليل.»

فقال الكولونيل: «بديع.»

ـ «إلى اللقاء، إذن، يا ريناتا. إلى اللقاء يا زعيمي، في الساعة الثانية والنصف.»

وقالت الفتاة: «لقد عرف أحدنا الآخر منذ الطفولة. ولكنه كان أكبر مني بثلاث سنوات تقريباً. لقد وُلد طاعناً في السنّ.»

ـ «أجل. أدري. إنه من أصدقائي المخلصين.»

ـ «هل تعتقد أن مواطنك قد بحث عن اسمه في دليل السياح؟»

فأجابها الكولونيل: «لست أدري.» ثم سأل: «أيها المايسترو الأعظم، هل بحث مواطني الذائع الصيت عن اسم البارون في دليل السيّاح؟»

ـ «الواقع، يا زعيمي، أني لم أره يراجع دليله خلال تناوله العشاء.»

فقال الكولونيل: «أعطِهِ علامة كاملة. والآن اسمع. أنا أعتقد أن الفابوليسيلا تكون أجود، وهي جديدة. إنها ليست خمراً عظيمة Grand Vin وتعبئتها في زجاجات ثم تعتيقها طوال سنوات لا يعود عليها إلاّ بالرواسب. هل توافقني على هذا؟»

ـ «أوافقك.»

ـ «إذن ما الذي يتعين علينا أن نفعله؟»

ـ «أنت تعلم، يا زعيمي، أن الخمر في الفنادق الكبيرة يجب أن تكلف مالاً. فلست تستطيع أن تحصل على «بينار» في الـ «ريتز»[1]. ولكني أقترح أن نأتي بعدة ألفيّات من الفابوليسيلاّ الممتازة. وفي استطاعتك أن تقول إننا جئنا بها من أطيان الكونتيسة ريناتا، وأنها هدية. ولسوف أعبئها لك، بعد ذلك، في زجاجات. وبهذه الطريقة ستفوز بخمر أفضل، وتوفر مالاً كثيراً. ولسوف أشرح المسألة لمدير الفندق إذا شئت. إنه رجل طيب جداً.»

فقال الكولونيل: «إشرحها له. إنه ليس رجلاً يشرب البطاقات الملصقة على الزجاجات أيضاً.»

ـ «موافق.»

ـ «وفي غضون ذلك تستطيع أن تشرب من هذه. إنها جيدة جداً كما تعلم.»

ـ «هذا صحيح.» كذلك قال الكولونيل: «ولكنها ليست شامبيرتان[2].»

ـ «ما الذي كان من عادتنا أن نشربه؟»

فأجابه الكولونيل: «أيّ شيء. ولكني الآن ألتمس الكمال. أو، على الأصح، ليس الكمال المطلق. ولكن الكمال مقابل دراهمي.»

فقال المايسترو الأعظم: «وأنا ألتمسه أيضاً، ولكن على غير طائل في ما أحسب.»

ـ «بأي شيء ترغبان أن تختما عشاءكما؟»

فقال الكولونيل: «بشيء من الجبن. ماذا تريدين، يا بُنيّتي؟»

---

(1) الـ «بينار» pinard ضرب من الخمر. والـ «ريتز» Ritz فندق مشهور. (المعرب)

(2) Chambertin خمر حمراء فاخرة. (المعرب)

كانت الفتاة قد اعتصمت بالصمت، منذ أن رأت آلفاريتو، وانكمشت بعض الشيء. كان شيء ما، يدور في عقلها، ولقد كان عقلاً ممتازاً. ولكنها مؤقتاً على الأقل، لم تكن معهما.

وقالت: «جبن. أرجوك.»

ـ «أي نوع من الجبن؟»

فقال الكولونيل: «أيتِ بالأنواع كلها إلى هنا ولسوف نلقي نظرةً عليها.»

وانصرف المايسترو الأعظم، فقال الكولونيل: «ما بالك، يا بُنَيّتي؟»

ـ «لا شيء. لا شيء البتة. لا شيء دائماً.»

ـ «يحسنِ بكِ مع ذلك أن تطرحي هذا، فليس لدينا متسع من الوقت لمثل هذه المتارف.»

ـ «هذا صحيح. أنا أوافقك. سوف نكرّس نفسينا للجبن.»

ـ «هل يتعين عليّ أن أتناوله مثل قولحة ذُرَة؟»

ـ «لا،» كذلك قالت، غير فاهمة ذلك الاصطلاح العاميّ، ولكنها فهمت المراد تماماً، باعتبار أنها هي التي كانت تقوم بمهمة التفكير. «ضع يدك اليمنى في جيبك.»

فقال الكولونيل: «حسن. سوف أفعل.»

ووضع يده اليمنى في جيبه واستشعر ما كان فيها، أولاً برؤوس أصابعه، ثم بباطن أصابعه، ثم براحة يده ـ يده المشقوقة.

وقالت: «أنا آسفة. والآن، فلنستأنف الوقت الطيّب، كرة أخرى. سوف نكرس نفسينا للجبن في مرح وابتهاج.»

فقال الكولونيل: «ممتاز. تُرى أيّ أنواع الجبن عنده؟»

فقالت الفتاة: «حدثني عن الحرب الأخيرة. وبعد ذلك نمتطي متن غندولنا في الريح الباردة.»

فقال الكولونيل: «إنها لم تكن ماتعة جداً. إن هذه الأشياء هي، بالنسبة إلينا، ماتعة دائماً، من غير ريب. ولكن كان ثمة ثلاثة مظاهر فحسب، أو ربما أربعة مظاهر فحسب، أمتعَتْني فعلاً.»

ـ «لماذا؟»

ـ «كنا نقاتل عدواً مهزوماً دُمِّرت مواصلاته. لقد دمّرنا عدة فرق على الورق، ولكنها كانت فرقاً شَبَحية. لا فرقاً حقيقية. كان طيراننا الحربي قد دمّرها قبل أن تتحرك. ولم يكن الموقف صعباً حقاً إلاّ في نورماندیا، بسبب من طبيعة الأرض، وعندما أوقفنا الزحف لكي نمكّن مدرعات جورجي باتون من المرور وأبقينا طريقها مفتوحة من ناحيتيها الاثنتين.»

ـ «كيف توقفون الزحف لتمكين المدرعات من المرور؟ قل لي، من فضلك.»

ـ «عليكِ أولاً أن تقاتلي لاحتلال مدينة تسيطر على جميع الطرق الرئيسية. ولنسمِّ المدينة سانت لو. ثم عليكِ أن تبسطي سلطانكِ على الطرق باحتلال مدن أخرى وقرى أخرى. إن للعدو خط مقاومة رئيسياً، ولكنه لا يستطيع أن يحمل قواته على شن هجوم معاكس، لأن «المقاتلات ـ القاذفات» تصطادها على الطرق. هل يُضجرك هذا؟ إنه يُضجرني إلى حد لعين.»

ـ «ولكنه لا يضجرني، أنا. فأنا لم أسمع ذلك يقال بمثل هذا التبسيط الواضح من قبل.»

فقال الكولونيل: «شكراً. أواثقة أنتِ من رغبتك في مزيد من الكلام على هذا العلم الكئيب؟»

فقالت: «من فضلك. أنا أحبك، كما تعلم، وإني لأودّ لو شاركتك معرفتك به.»

فقال لها الكولونيل: «إن أحداً لا يشارك أحداً هذه الصّنعة. كل

ما أفعله هو أني أحدثكِ كيف تعمل. وفي استطاعتي أن اوشح الحديث ببعض الحكايات لكي أجعله ماتعاً أو مقبولاً في الظاهر.»

ـ «وشّح حديثك بشيء من ذلك، أرجوك.»

فقال الكولونيل: «إن الاستيلاء على باريس لم يكن شيئاً خطيراً. لقد كان مجرد خبرة عاطفية، لا عملية عسكرية. إننا قتلنا عدداً من الضاربين على الآلة الكاتبة وأفراد الدريئة التي كان الألمان قد خلفوها وراءهم، كدأبهم دائماً، لتغطية انسحابهم. وأحسب أنهم تصوَّروا أنهم لن يحتاجوا بعدُ إلى هذا العدد الضخم من موظفي المكاتب، فتركوهم خلفهم كجنود.»

ـ «ألم يكن الاستيلاء عليها عملاً عظيماً؟»

ـ «الواقع أن جماعة لوكليرك[1] ـ وهو غِرّ آخر من الدرجة الثالثة أو الرابعة، كنت قد احتفلتُ بموته بزجاجة كبيرة من خمر «بيرييه ـ جوويه بردت 1942» ـ أطلقت سيلاً من العيارات النارية لكي تضفي بعض الأهمية على ذلك الحادث، ولأننا كنا قد قدّمنا إليها ما تستطيع اطلاق العيارات النارية به. ولكنه لم يكن عملاً هاماً.»

ـ «هل شاركت أنت فيه؟»

فقال الكولونيل: «نعم. أحسب أن في ميسوري أن أقول نعم من غير أن أتجنّى على الحقيقة.»

ـ «ألم يخلّف ذلك في نفسك أية انطباعات عميقة؟ فقد كانت المدينة هي باريس على أية حال، ولم يكن كل امرئ قد استولى عليها.»

ـ «كان الفرنسيون، أنفسهم، قد استولوا عليها قبل أربعة أيام. ولكن ما دعوناه القيادة العليا ـ انتبهي إلى اللفظة الأخيرة ـ للقوات

---

(1) يقصد الجنرال الفرنسي لوكليرك Leclerc وقد شارك في انتزاع باريس من يد الألمان. (المعرب)

الحليفة الموجهة إلى أوروبة (SHAEF[1])، التي انتظمت جميع سياسيي المؤخرة العسكريين الذين كانوا يحملون شارة العار بشكل شيء ملتهب، في حين كنا نحمل نحن شارة تمثل برسيمةً ذات أربع ورقات، كرمز وكجالب للحظ، أقول إن القيادة العليا هذه كانت لديها خطة رئيسية لتطويق المدينة. وهكذا لم نستطع أن نستولي عليها.»

ـ «ليس هذا فحسب، بل لقد كان علينا أن ننتظر إمكانية وصول الجنرال أو الفيلد مارشال بيرنارد لو منتغوميري الذي كان عاجزاً حتى عن سدّ الثغرة في «فاليز» والذي وجد التقدم دَبِقاً بعض الشيء، ولم يستطع أن ينتهي إلى هناك في الموعد المحدّد.»

فقالت الفتاة: «لا ريب في أنكم قد افتقدتموه.»

فقال الكولونيل: «أوه، لقد افتقدناه. طوال فترة مديدة.»

ـ «ولكن ألم يكن ثمة في الاستيلاء على باريس أيما شيء نبيل أو سعيد حقاً؟

ـ «من غير ريب،» كذلك قال لها الكولونيل: «لقد قاتلنا من «با مودون» Bas Meudon، ثم من باب «سان كلو» porte de Saint Cloud خلال شوارع عرفتُها وأحببتُها، ولم نُصَبْ بأية خسارة في الأرواح، محدثين أقل قدر ممكن من الأذى والخراب. وعند «النجمة» Etoile أسرتُ كبير خدم ايلزا ماكسويل. وكانت هذه عملية معقدة جداً. وكان قد اتّهم بوصفه قنّاصاً يابانياً. شيء جديد. ولقد زُعِم أنه قتل عدداً من الباريسيين غير يسير. وهكذا أرسلنا ثلاثة رجال إلى السطح الذي التجأ إليه، ولقد كان غلاماً من أبناء الهند الصينية.»

ـ «بدأت أفهم بعض الشيء. ولكن هذا يخلع الفؤاد.»

ـ «إنه يخلع الفؤاد دائماً، إلى حد لعين. ولكن ليس من المفروض في المرء أن يكون له في هذه المهنة فؤاد.»

---

(1) Supreme Headquarters of the Allied Expeditionary Forces

ـ «ولكن هل تعتقد أن الأمر كان هكذا تماماً في أيام القادة العظام؟»

ـ «أنا على يقين من أنه كان أسوأ.»

ـ «ولكنك اوذيت في يدك على نحو مشرَّف.»

ـ «أجل على نحو مشرّف جداً. فوق هضبة صخرية جرداء.»

فقالت: «دعني ألمسها، أرجوك.»

فقال الكولونيل: «ولكن ترفقي بها عند وسطها. إنها مشقوقة هناك، وهي لا تزال تطقطق حين تُبسط.»

فقالت الفتاة: «يتعين عليك أن تؤلف. أنا أعني ما أقول جدياً. وهكذا يطّلع الناس على هذه الأشياء وأمثالها.»

فخالفها الكولونيل في هذا الرأي وقال: «لا، أنا لا أتمتع بالموهبة التي تؤهلني للتأليف، وأنا أعرف أكثر مما ينبغي. إن أيما كذّاب ليستطيع، أو يكاد، أن يكتب كلاماً ادعى إلى الاقناع مما يكتبه رجلٌ من أولئك الذين شهدوا الحرب.»

ـ «ولكن بعض الجنود الآخرين كتبوا وألفوا.»

ـ «نعم. موريس دو ساكس. فريدريك الكبير. مسار تسون سو.»

ـ «ولكني عنيت جنوداً من أهل عصرنا نحن.»

ـ «أنت تستعملين لفظة «نحن» في يسر بالغ. وأنا أحبها برغم ذلك.»

ـ «ولكن ألم يؤلف كثير من الجنود المعاصرين؟»

ـ «أجل، هذا صحيح. ولكن هل قرأتِ في أيما يوم شيئاً من آثارهم؟»

ـ «لا. لقد قرأت الآثار الكلاسيكية في الغالب، وأنا أقرأ الصحف المصورة للاطلاع على الفضائح. وأنا أقرأ، أيضاً، رسائلك.»

فقال الكولونيل: «أحرقيها، إنها تافهة لا قيمة لها.»

ـ «أرجوك. لا تكن فظاً.»

ـ «لن أكون. ما الذي أستطيع أن أحدثكِ عنه من غير أن أضجرك؟»

ـ «حدثني عنك يوم كنت جنرالاً.»

ـ «أوه، عن هذا.» قال ذلك وأومأ إلى المايسترو الأعظم لكي يأتيه بالشامبانيا. كانت من نوع روديرر بروت 42، ولقد أحبها.

ـ «حين تكون جنرالاً فإنك تحيا في عربة مقطورة، ويحيا قائد أركانك في عربة مقطورة، وتفوز بويسكي بوربون حين يُحرَم منها غيرك من الناس. أما الرموز المشيرة إلى الفرق الألمانية (Gs) فتحيا في «مركز الضغط» ولسوف أقول لك من هم الـ (Gs)، ولكن ذلك خليق به أن يُضجرك. سوف أحدثك عن الـ G1, G2, G3, G4, G5 وفي الناحية المقابلة هناك دائماً «الكراوتس[1] 6»، Krauts-6 ولكن هذا قد يضجرك. ومن ناحية ثانية، فإن لديك خريطة مكسوّة بمادة لدائنية (بلاستيكية) وفوق هذه الخريطة لديك ثلاث فرق عسكرية تتألف كل منها من ثلاث كتائب. وكلها معلّمة بقلم رصاصي ملوّن.

ـ «إن لديك تخوماً، بحيث أنه إذا تخطت الكتائب تخومها فعندئذ لا يقاتل بعضها بعضاً. وكل كتيبة مؤلفة من خمس سرايا. كلها يجب أن تكون جيدة، وبعضها ليست جيدة إلى هذا الحد. ليس هذا فحسب، بل إن لديك مدفعيةً وسرية مصفحات، وكثيراً من قطع التبديل. أنت تحيا بنظام الأحداثيات الرياضي.» وتمهل ريثما أفرغ المايسترو الأعظم محتويات الـ «روديرر بروت 42.»

ـ «ومن قيادة الجيش،» وترجم في جفاء فقال Guerpo

(1) الكراوتس Krauts هم النمساويون. (المعرب)

d'Armata، «يوعزون إليك بالذي يجب أن تعمله، ثم تقرّر أنت كيف تعمله. وتملي الأوامر، أو تعطيها ـ في أغلب الأحيان ـ بالتلفون. أنت «تَخْزُز» رجالاً تحترمهم لكي تجعلهم يفعلون ما تعرف أنه مستحيل كل الاستحالة، ولكنه مأمورٌ به. وإلى هذا، فإن عليك أن تفكر وتمعن في التفكير، وأن تذود عنك النعاس حتى ساعة متأخرة، وأن تفيق مع الفجر.»

ـ «ولن تكتب عن هذا؟ ولو من أجل ارضائي؟»

فقال الكولونيل: «لا. إن الغلمان الذين كانوا حسّاسين وحمقى والذين احتفظوا بكل الانطباعات الأولى الثابتة عن يومهم الأول في المعركة، أو عن أيامهم الثلاثة الأولى، وحتى عن أيامهم الأربعة فيها، يؤلفون كتباً. إنها كتب جيدة، ولكن من الجائز أن تكون مملّة بالنسبة إليك إذا كنت ممن شهد تلك المشاهدة. ثم هناك آخرون يضعون الكتب لكي يتعجلوا الربح من حربٍ لم يخوضوا غمارها البتة. أولئك هم الذين انقلبوا على أعقابهم لكي يرووا الأخبار. وهذه الأخبار نادراً ما تكون صحيحة. ولكنهم يهرعون لأذاعتها على الملأ. والكتاب المحترفون الذين تولوا وظائف حالت بينهم وبين القتال كتبوا عن معارك عجزوا عن فهمها، وكأنهم كانوا في خط النار. ولست أدري تحت أي باب من الاثم يقع صنيعهم هذا.»

ـ «ولقد عرفت كذلك رئيساً (كابتن) في البحرية ناعماً نعومة النايلون... رئيساً عاجزاً عن قيادة مركب وحيد السارية وضع مؤلفاً عن الجانب الحميم من «الفيلم الضخم» حقاً. إن كل امرئ سوف يضع مؤلّفه عاجلاً أو آجلاً. وفي ميسورنا نحن، حتى نحن، أن نضع كتاباً جيداً. ولكني لا أمارس الكتابة، يا بنيّتي.»

وأومأ إلى المايسترو الأعظم بأن يملأ الكأسين.

وقال: «أيها المايسترو الأعظم، هل تحب أن تقاتل؟»

ـ «لا.»

ـ «ولكنا قاتلنا؟»

ـ «أجل. أكثر مما ينبغي.»

ـ «كيف صحتك؟»

ـ «رائعة لولا القُرَح المعِدِية، ونوبة قلبية طفيفة.»

ـ «لا!» كذلك قال الكولونيل، وقفز فؤاده في صدره فأحسّ به يخنقه. «أنت لم تحدثني عن شيء غير القُرَح.»

ـ «حسناً، أنت تعرف الآن،» قال المايسترو الأعظم ذلك، ولم يُتم الجملة وابتسم ابتسامته الفضلى والأصفى التي انبثقت في مثل نصاعة الشمس المشرقة وصراحتها.»

ـ «كم مرة؟»

فرفع المايسترو الأعظم أصبعين اثنتين كما يفعل المرء حين يعطي خصمه في الرهان ميزةً عليه، حيث يملك رصيداً، وكان الرهان كله على غفوة.

فقال الكولونيل: «إني متقدم عليك. ولكن فلنَدَع التجهّم والعبوس. اسأل الدوَّنا ريتانا ما إذا كانت تريد مزيداً من هذه الخمر الممتازة.»

فقالت الفتاة: «ولكنك لم تخبرني أنك أصبت بأكثر من نوبتين قلبيتين. أنت مكلف بأخباري بذلك.»

ـ «أنا لم أصب بشيء منذ اجتمعنا آخر مرة.»

ـ «هل تعتقد أن النوبات تعفيك من زيارتها إكراماً لي؟ إذا كان ذلك، فسوف أجيء وأبقى معك بكل بساطة وأسهر على صحتك.»

فقال الكولونيل: «إنه مجرد عضلة. كل ما في الأمر أنها العضلة الرئيسية. وهي تعمل بمثله دِقة رولكس أويستر بيرباتيتشوويل[1]. والمشكلة هي أنك لا تستطيع أن تبعث بها إلى ممثل شركة رولكس

(1) ماركة ساعات معروفة. (المعرب)

عندما يلم بها خلل ما. وحين تكفّ عن الحركة تصبح أنت عاجزاً عن معرفة الوقت ليس غير. لأنك عندئذ تكون قد مِتّ.»

ـ «لاتحدثني عن ذلك، أرجوك.»

فقال الكولونيل: «إنك أنت التي سألتني.»

ـ «وذلك الرجل المجدور ذو الوجه الكاريكاتوري، هل عنده شيء كهذا؟»

فقال لها الكولونيل: «لا، من غير ريب. إذا كان كاتباً من الدرجة الثانية فإنه سوف يعيش إلى الأبد.»

ـ «ولكنك لست كاتباً، فكيف تعرف هذا؟»

فقال الكولونيل: لا. بنعمة اللّه، ولكني قرأت كثيراً من الكتب. إن لدينا، حين نكون عُزّاباً، متسعاً كبيراً من الوقت للمطالعة. ولكن ربما ليس بقدر ما لدى رجال الأسطول التجاري. ولكنه متّسعٌ كبير على أية حال. وفي ميسوري أن أميِّز كاتباً من كاتب، وإني لأقول لك إن كتاب الدرجة الثانية يعمرون طويلاً. ومن حقهم أن يفوزوا بمكافأة خاصة بالعمر الطويل.»

ـ «هل تستطيع أن تروي لي بعض الحكايات، وأن تكفّ عن الكلام على هذا الذي هو مبعث حزن حقيقيّ لي؟»

ـ «في استطاعتي أن أروي لك مئات منها. وكلها صحيحة.»

ـ «إروِ لي واحدةً ليس غير. وبعد ذلك نأتي على هذه الخمر ونمضي على متن الغندول.»

ـ «هل تعتقدين أنك سوف تنعمين بدفء كافٍ؟»

ـ «أوه، أنا واثقة من أني سوف أنعم بذلك.»

فقال الكولونيل: «لست أدري ما الذي يحسن بي أن أرويه لك. إن كل من يتصل بالحرب ليوقع الضجر في نفوس أولئك الذين لم يشنّوها. ما عدا الكذّابين.»

ـ «أود لو تحدثني عن الاستيلاء على باريس.»

ـ «لماذا؟ ألأني قلت لك إنكِ بدوتِ مثل ماري أنطوانيت في عربة النقل ذات الدولابين؟»

ـ «لا. لقد أطريتُ بتلك الملاحظة، وأنا أعلم أنني أشبهها بعض الشيء في المظهر الجانبي (بروفيل). ولكني لم أركب في حياتي أية عربة نقل ذات دولابين، وأني لأحب أن أسمعك تحدثني عن باريس. فأنت حين تحب امرءاً ويكون هو بَطَلك، يلذ لك أن تسمع شيئاً عن الأماكن والأشياء.»

فقال الكولونيل: «أرجوك أن تديري رأسك، ولسوف أحدّثك عنها. أيها المايسترو الأعظم، ألا يزال ثمة بقية في تلك الزجاجة البائسة؟»

ـ «لا.» كذلك أجابه المايسترو الأعظم.

ـ «إذن ايتِ بزجاجة أخرى.»

ـ «لديّ واحدة مثلوجة.»

ـ «حسن. إيتنا بها. والآن، يا بنيّتي لقد انفصلنا عن رَتْل الجنرال لوكليرك عند «كلامار». لقد مضَوا إلى مونروج Montrouge و «بورت دورليان» Porte d'Orleans، ومضينا نحن إلى «با مودون Bas Meudon مباشرة، وبلغنا جسر باب سان كلو. هل هذا الكلام تقنيّ أكثر مما ينبغي وهل يُضجرك سماعه؟»

ـ «لا.»

ـ «لو كان لديّ خريطة لاستطعت أن أوضح لك ذلك أكثر.»

ـ «تابع.»

ـ «لقد بلغنا الجسر، وأقمنا رأس جسر على الضفة الأخرى من النهر، وقذفنا بالألمان، الذين دافعوا عن الجسر... قذفنا بهم أحياء وأمواتاً إلى نهر السين.» وأمسك عن الكلام لحظة ثم أضاف: «كان

ذلك دفاعاً رمزياً طبعاً. ولقد كان يحسن بهم أن ينسفوا الجسر. وألقينا بجميع هؤلاء الألمان في نهر السين. وكانوا كلهم، تقريباً، موظفين مدنيين، في ما أحسب.»

ـ «تابع.»

ـ «وفي صباح اليوم التالي، أُعلمنا أن الألمان يسيطرون على مواقع قوية في أماكن مختلفة، وأن لهم مدفعية على جبل فاليريان، وأن الدبابات تطوف في الشوارع. وكان جزء من هذا صحيحاً. وطُلب إلينا أيضاً أن لا ندخل بأسرع مما ينبغي، باعتبار أن التدبير يقضي بأن يستولي الجنرال لوكليرك على المدينة. وامتثلتُ هذا الطلب، ودخلت المدينة بأكثر ما استطعت من بطء.

ـ «وكيف تفعل ذلك؟»

ـ «تكبح جماح هجومك ساعتين، ثم تحتسي الشامبانيا كلما قدمها إليك وطنيون، ومؤازرون، أو متحمسون للقضية.»

ـ «ولكن ألم يكن ثمة شيء رائع أو عظيم، كذلك الذي نقرأه في الكتب؟»

ـ «طبعاً كان هناك المدينة نفسها. كان الناس بالغي السعادة. وكان الجنرالات القدماء يتمشون هنا وهناك في بدلاتهم العسكرية المزودة بكُرات النفتلين وقاية لها من العث. وكنا نحن أيضاً بالغي السعادة، لعدم اضطرارنا إلى القتال.»

ـ «وهل تعيّن عليكم أن تقاتلوا على أية حال؟»

ـ «ثلاث مرات ليس غير. وبعد ذلك قاتلنا على نحو غير جدّي.»

ـ «ولكن هل كان هذا كل ما احتجتم إلى القيام به للاستيلاء على مدينة كهذه؟»

ـ «لقد قاتلنا، يا بُنيّتي، اثنتي عشرة مرة من رامبوييه

Rambouillet لكي ندخل المدينة. ولكن اثنتين من هذه المرات الاثنتي عشرة فحسب كانتا جديرتين بأن تُدعيا قتالاً. ولقد جرى القتال في أولى هاتين المرتين عند «توسّوس لو نوبل» Toussus Le Noble وجرى في ثانيتهما عند «لو بوك» Le Buc. أما ما تبقى فلا يمكن عدّه سوى زخرفة طبق من أطباق الطعام. والحق أني لم أضطرّ إلى القتال البتة إلاّ في هذين الموقعين.»

ـ «حدثني عن بعض الأشياء الحقيقية عن القتال.»

ـ «قولي لي إنك تحبينني.»

فقالت الفتاة: «أنا أحبك. باستطاعتك أن تنشر ذلك في صيحفة «غازيتينا» Gazzettina إذا شئت. أنا أحب جسمك الصلب، المستوي، وعينيك الغريبتين اللتين تروّعانني حين تغلب عليهما النزعة الشريرة. أنا أحب يدك، وأحب كل جرح من جراحك.»

فقال الكولونيل: «أنا أوثر أن أحدثك عن شيء حسن جداً. أولاً، أستطيع أن أقول لك إني أحبك قف.»

فسألته الفتاة فجأة: «لماذا لا تشتري بعض الآنية الزجاجية النفيسة؟ إن في إمكاننا أن نذهب إلى مورانو Murano معاً.»

ـ «لست أعرف أي شيء عن الآنية الزجاجية.»

ـ «في استطاعتي أن أعلمك، وسيكون ذلك متعةً من المتع.»

ـ «إن حياتنا ممعنة في البداوة إلى حد يجعلنا في غنىً عن الآنية الزجاجية النفيسة.»

ـ «وحين تتقاعد وتقيم هنا؟.»

ـ «سوف نشتري شيئاً من ذلك عندئذ.»

ـ «لشد ما أتمنى لو تفعل هذا الآن.»

ـ «وكذلك أنا، لولا أني اعتزم الخروج لصيد البط غداً. ولولا أن الليلة هي الليلة.»

ـ «هل أستطيع أن أذهب معك لصيد البط؟»

ـ «تستطعين في حال واحدة: إذا سألكِ الفاريتو أن تفعلي ذلك.»

ـ «في إمكاني أن أحمله على سؤالي.»

ـ «أنا أشك في هذا.»

ـ «ليس من اللطف أن تشكّ في ما تقوله بنتك بعد أن انتهت إلى سنٍّ تعصمها من الكذب.»

ـ «حسن جداً، يا بُنيّتي. أنا أسحب شكي ذاك.»

ـ «أشكرك. ومن أجل هذا لن أذهب وأكون مصدر ازعاج. سوف أبقى في البندقية، وأشهد القداس مع أمي وعمتي، وأزور فقرائي. أنا ابنة وحيدة، وهكذا فإن علي واجبات كثيرة.»

ـ «كنت دائماً اتساءل ماذا تعملين.»

ـ «هذا ما أعمله. وإلى ذلك فإن لديّ وصيفتي فهي تغسل وجهي وتقلّم أظافر يديّ ورجليّ وتصبغها لي.»

ـ «أنت لا تستطيعين أن تفعلي هذا لأن الصيد سوف يجري يوم الأحد.»

ـ «إذن فسوف أفعل ذلك يوم الاثنين. أما يوم الأحد فسأطالع جميع المجلات المصورة حتى الخليعة منها.»

ـ «ربما كانت تحمل صوراً لمسّ بيرغمان.[1] ألا تزالين راغبة في أن تكوني مثلها؟»

فقالت الفتاة: «لا، لم أعد راغبة في ذلك. أنا أريد أن أكون مثل نفسي ولكن على نحو أفضل، أفضل بكثير، وأنا أطمع في أن تحبني أنت.»

---

(1) يقصد انغريد بيرغمان، الممثلة السينمائية الشهيرة.

ـ «وإلى هذا،» كذلك قالت فجأة وفي غير تقنُّع، «فأنا أريد أن أكون مثلك. هل أستطيع أن أكون مثلك، بضع لحظات، هذه الليلة؟»

فقال الكولونيل: «طبعا. في أية مدينة نحن على أية حال؟»

فقالت: «البندقية. المدينة الفضلى، في ما أعتقد.»

ـ «إني أوافقك كل الموافقة. وأشكرك لعدم تكليفي أن أروي لك مزيداً من قصص الحرب.»

ـ «أوه، سوف يتعين عليك أن ترويها في ما بعد.»

ـ «يتعين عليّ؟» كذلك قال الكولونيل وتجلَّت القسوة والعزم في عينيه الغريبتين بمثل الوضوح الذي يتجليان به حين يتمايل نحوك خَطْمُ مدفع دبابةٍ مُقَلْنَسٌ[1].

ـ «هل قلتِ يتعين عيك، يا بُنيّتي؟»

ـ «لقد قلت هذا. ولكني لم أقصد به ذلك المعنى. وإذا أخطأت فإني آسفة. لقد أردت أن أقول: هل لك أن تروي لي مزيداً من القصص الحقيقية في ما بعد؟ وأن تشرح لي الأشياء التي لا أفهمها؟»

ـ «في استطاعتك أن تقولي يتعين عليك، يا بُنيّتي. إلى الجحيم بهذا التعبير.»

وابتسم، وشاعت الدماثة في عينيه كما لم تشعْ في يوم من الأيام، ولم تكن دماثة مغاليً فيها كما يعلم. ولكنه لم يجد مناصاً الآن من أن يحاول الأخذ بأسباب الدماثة واللطف نحو حبه الأخير... حبه الحقيقي والوحيد.

ـ «لست أجد في ذلك أي بأس، فعلاً، يا بُنيّتي. أنا أعرف إصدار الأوامر، ويوم كنت في مثل سنك كان من دابي أن استمتع بممارسة ذلك استمتاعاً عظيماً.»

---

(1) أي ذو قلنسوة. والكلمة نعت لخطم المدفع.

ـ «ولكنني لا أريد أن آمر،» كذلك قالت الفتاة. وعلى الرغم من قرارها القاضي بأن لا تبكي البتة، ترقرقت العبرات في عينيها. «إني أريد أن أخدمك.»

ـ «أدري. ولكنك تريدين أن تأمري أيضاً. وليس في هذا أيما بأس. فجميع الناس الذين هم في مثل حالنا ينزعون هذا المنزع.»

ـ «أشكرك على هذه الـ «في مثل حالنا.»

فقال الكولونيل: «لم يكن قولها عسيراً عليّ». ثم أضاف: «يا بُنيّتي.»

في تلك اللحظة تقدم بواب الفندق نحو المائدة وقال: «عفواً، يا سيدي. في الخارج رجل، أظنه خادماً من خدمك يا سيدتي، يحمل رزمة كبيرة جداً يقول إنها للكولونيل. فهل أبقيها في المستودع أم أبعث لك بها إلى حجرتك؟»

فقال الكولونيل: «إلى حجرتي.»

فقالت الفتاة: «أرجوك. ألا نستطيع أن نلقي عليها، ههنا، نظرة؟ نحن لا نبالي بأحد هنا، أليس كذلك؟»

ـ «جردها من غطائها وإيتنا بها إلى هنا.»

ـ «حسن جداً.»

ـ «في ما بعد سوف نعهد إلى بعضهم بنقلها في كثير من العناية إلى حجرتي ولفّها في إحكام، لأحملها معي حين أسافر ظهيرة غدٍ.»

ـ «حسن جداً يا زعيمي.»

فسألته الفتاة: «هل أنت متشوق إلى رؤيتها؟»

فقال الكولونيل: «جداً. أيها المايسترو الأعظم، هاتِ مزيداً من شراب روديرر ذاك. وأرجوك أن تضع كرسياً بطريقة تمكننا من إلقاء نظرة على لوحة فنية. نحن من المتعصبين للفنون التصويرية.»

فقال المايسترو الأعظم: «ليس عندي مزيد من زجاجات روديرر المثلوجة. ولكن إذا أردت شيئاً من شراب بيرييه ـ جوويه...»

ـ «ايتني بشيء منه،» كذلك قال الكولونيل ثم أضاف: «أرجوك.»

وقال لها الكولونيل: «أنا لا اتكلم مثل جيورجي باتون. أنا لست مضطراً إلى ذلك. وفوق هذا فهو لم يعد على قيد الحياة.»

ـ «مسكين!»

ـ «أجل، كان مسكيناً طوال حياته. برغم أنه كان يتمتع بثروة مالية كبيرة وبعدد عظيم من المدرعات.»

ـ «هل لديكم أيما شيء مضادّ للمدرعات؟»

ـ «نعم. معظم الجنود الذين في داخلها. إنها تحيل الرجال إلى قوم يستعملون قوتهم لإيذاء الضعفاء افتراء، وتلك هي أول خطوة نحو الجبن... الجبن الحقيقي أعني. ولعل «الخوف الجنوني من الأماكن المقفلة» (كلوستروفوبيا) يعقِّد ذلك بعض الشيء.»

ثم إنه نظر إليها وابتسم وعبَّر عن أسفه لذهابه بها إلى ما وراء طاقتها على الفهم كما قد تنقل سابحاً جديداً من شاطئ ضَحْلٍ إلى مياه عميقة أكثر مما ينبغي. وحاول أن يُطمئنها.

ـ «اغفري لي، يا بُنيّتي. إن كثيراً مما أقوله مُجحف ظالم. ولكنه أصدق من الأشياء التي سوف تقرئينها في مذكرات الجنرالات. فبعد أن يكسب الجندي نجمة، أو أكثر، يصبح من العسير عليه أن يبلغ الصدق بقدر ما كان بلوغ «الكأس المقدسة»[1] عسيراً في عهد أسلافنا.»

ـ «ولكنك كنت جنرالاً.»

فقال الكولونيل: «ليس لمدة طويلة أكثر مما ينبغي.» ثم أضاف الجنرال: «إن كل رئيس (كابتن) من الرؤساء يعرف الحقيقة أدق

(1) the Holy Grail، هي الكأس التي ذكروا أن السيد المسيح شرب منها في العشاء الأخير. (المعرب)

المعرفة، وفي استطاعة هؤلاء الرؤساء أن ينقلوها إليك، في الأعم الأغلب. أما إذا لم يفعلوا فعندئذ يكون في استطاعتك أن تعيد تصنيفهم.»

ـ «وهل ستعيد تصنيفي إذا كذبتُ؟»

ـ «ذلك رهنٌ بموضوع الكذبة التي تطلقينها.»

ـ «أنا لن أكذب في أيما أمر من الأمور. إني لا أريد أن يعاد تصنيفي. ذلك شيء يبدو لي رهيباً.»

فقال الكولونيل: «إنه لكذلك. وإنك لتردّهم بعدُ لكي يُجرى لهم ذلك مزوّدين بأحدى عشرة نسخة مختلفة تبيِّن السبب الذي من أجله يتحتم اتخاذ ذلك الاجراء في حقهم، وتذيِّل أنت كلاً من هذه النسخ بتوقيعك.»

ـ «وهل أعدت تصنيف كثير منهم؟»

ـ «أجل، كثير.»

ودخل بواب الفندق، باللوحة الزيتية، إلى الحجرة، وهو يحملها في اطارها الضخم، متهادياً كما يتهادى المركب حين يكون مثقلاً بالأشرعة أكثر مما ينبغي.

ـ «إيتِ بكرسيِّين،» كذلك قال الكولونيل للنادل الآخر، «وضَعْهما هناك. إحرص على أن لا يمسّ قماش اللوحة الكرسيين. وأمسِكْ بها بحيث لا تقع.»

ثم التفت إلى الفتاة وقال: «يتعين علينا أن نغيّر هذا الاطار.»

فقالت: «أدري. أنا لم اختره بنفسي. خذها معك غير مؤطَّرة ولسوف نختار لها اطاراً حسناً في الأسبوع القادم. والآن، أنظر إليها، لا إلى الإطار. أنظر إلى ما تقوله عني أو ما لا تقوله.»

كانت لوحة زيتية جميلة. لا باردة ولا متكلفة للعظمة، لا تقليدية ولا عصرية. كانت مُخرَجَةً بالطريقة التي تودّ أن تُرسم بها حبيبتك لو

أن تينتوريتو[1] على مقربة دانية منك، فإن لم يكن، كلفت فيلاسكيز[2] بتلك المهمة. إنها لم تُخرج على طريقة أي منهما. لقد كانت مجرد لوحة زيتية رُسِمَتْ، كما تُرسم اللوحات أحياناً، في عصرنا هذا.

فقال الكولونيل: «إنها رائعة. إنها ظريفة حقاً.»

كان بواب الفندق والنادل الثاني يمسكان باللوحة وينظران إليها من حول أطرافها. وكان المايسترو الأعظم يعبر عن إعجابه الكامل بها. وكان الأميركي، الجالس على مبعدة مائدتين اثنتين، ينظر إليها بعينين صحافيتين، متسائلاً بريشة من رُسِمَت.

ـ «إنها رائعة،» كذلك قال الكولونيل. «ولكنك لا تستطيعين أن تمنحيني إياها.»

فقالت الفتاة: «لقد منحتك إياها وانتهيت. أنا واثقة من أن شعري لم يكن منساباً، بمثل هذا الطول كله، على كتفيّ.»

ـ «أحسب أنه كان كذلك في أغلب الظن.»

ـ «في ميسوري أن أطلِقَهُ حتى يبلغ هذا الطول، إذا رغبتَ في ذلك.»

فقال الكولونيل: «حاولي، يا ذات الجمال الباهر. أنا أحبك أعظم الحب. أنتِ وشخصك المرسوم على القماش.»

ـ «قل للنُدُل إذا شئت. أنا واثقة من أنها لن تكون صدمة شديدة لهم.»

فقال الكولونيل لبواب الفندق: «احمل اللوحة إلى حجرتي في الطابق العلوي. أشكرك على حملك إياها إلى هنا شكراً جزيلاً. وإذا كان الثمن مناسباً اشتريتها.»

فقالت الفتاة: «الثمن مناسب. ألا ترى أن من واجبنا أن نكلف

---

(1) Tintoretto رسام من أهل البندقية 1518 ـ 1594. (المعرب)

(2) Velasquez رسام إسباني 1599 ـ 1660. (المعرب)

أحداً بنقلها وبنقل الكرسيين إلى حيث نستطيع أن نعرضها أمام عيني مواطنك عرضاً خاصاً؟ إن في استطاعة المايسترو الأعظم أن يعطيه عنوان الرسام، وباستطاعة مواطنك أن يقوم بزيارة للاستديو الفاتن.»

فقال المايسترو الأعظم: «إنها لوحة جد طريفة. ولكنها يجب أن تُنقل إلى الحجرة. يتعين على المرء أن لا يدع روديرر أو بيرييه - جوويه يقوم بمهمة الكلام.»

- «احملها إلى الحجرة، أرجوك.»

- «لقد قلت أرجوك من غير ما وَقْف قبلها.»

فقال الكولونيل: «شكراً. لقد تأثرتُ أعمق التأثر باللوحة، ولست اتحمل مسؤولية ما أقول تحملاً كاملاً.»

- «فليكن كلانا غير مسؤول عما يقول.»

فقال الكولونيل: «اتفقنا. المايسترو الأعظم رجل يتحمل مسؤولية كلامه إلى أبعد الحدود. ولقد كان هكذا دائماً.»

فقالت: «لا. أنا أعتقد أنه لم يقل ذلك بدافع من روح المسؤولية بل بدافع من الخبث. إننا كلنا، في هذه المدينة نتميز بضرب ما من الخبث، كما تعلم. وأحسب أنه ربما لم يُرِد لذلك الرجل أن ينعم حتى بنظرة صحافية إلى السعادة.»

- «أياً ما كان معنى ذلك.»

- «لقد تعلمتُ هذه العبارة منك، وها أنت ذا عاودت تعلُّمها مني.»

فقال الكولونيل: تلك هي سُنّة الأشياء. ما تكسبه في بوسطن تخسره في تشيكاغو.»

- «لست أفهم ذلك البتة.»

فقال الكولونيل: «إنه أصعب من أن يُشرح.» ثم أضاف: «لا، إنه ليس كذلك طبعاً. إن توضيح الأشياء هو صناعتي الرئيسية. إلى

الجحيم بكل ما هو أصعب من أن يُشرح. إنه أشبه بمباراة كرة قدم Calcie[1] يخوضها فريق محترف. ما تكسبه في ميلانو تخسره في تورينو.»

ـ «أنا لا أبالي بكرة القدم.»

فقال الكولونيل: «وكذلك أنا. ولا أبالي بخاصة بمباريات الجيش والأسطول، وبأحاديث كبار الضباط عندما يتكلمون بلُغَةِ كرة القدم الأميركية لكي يستطيعوا، هم أنفسهم، أن يفهموا ما يتحدثون عنه.»

ـ «أحسب أننا نستمتع بلحظات سعيدة، هذه الليلة. حتى في ظل هذه الظروف والملابسات، أياً ما كانت.»

ـ «أيحسن بنا أن ننقل معنا هذه الزجاجة الجديدة إلى الغندول؟»

فقالت الفتاة: «أجل. ولكن مع كأسين عميقين. سوف أخبر المايسترو الأعظم بذلك. فلنأخذ معطفينا ولننصرف.»

ـ «حسن. سوف آخذ شيئاً من هذا الدواء، وأوقِّع للمايسترو الأعظم، وعندئذ نمضي لسبيلنا.»

ـ «لشد ما أتمنى لو كنت أنا من يأخذ الدواء بدلاً منك.»

فقال الكولونيل: «أنا سعيد إلى حد جهنمي لأنك لا تأخذينه بدلاً مني. هل تختار غندولنا أم نطلب إليهم أن يستقدموا لنا غندولاً إلى المهبط المفضي إلى البحر؟»

ـ «فلنقامر قليلاً، ولنطلب إليهم أن يأتونا بواحد إلى المهبط. هل عندك ما تخسره؟»

ـ «أحسب أنه ليس عندي شيء. أغلب الظن أنه ليس عندي شيء.»

---

(1) لفظة إيطالية تعني كرة القدم أو مباراة في كرة القدم. (المعرب)

[13]

وخرجا من باب الفندق الجانبي إلى «المهبط» Imbarcadero، فصفعتهما الريح. والتمعت أضواء الفندق على سواد الغندول، وجعلت المياه خضراء. إنه يبدو ظريفاً مثل فرس أصيلة أو مثل مركب طويل ضيق من مراكب السباق، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه. لماذا لم أرَ من قبل قط أيَّ غندول؟ أية يد أو عين صاغت ذلك التناغم المقتَّم؟

وسألته الفتاة: «إلى أين سوف نمضي؟»

كان شعرها ـ في الضياء المنبعث من باب الفندق ونافذته، خلال وقوفها على حوض السفن في محاذاة الغندول ـ يتطاير إلى الوراء مع هبوب الريح، حتى لقد بدت أشبه ما تكون بتمثال زخرفيّ في سفينة. وما إلى ذلك أيضاً، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه.

وقال الكولونيل: «فلنجتزيء بالتنزه به خلال الحديقة العامة، أو خلال «الغابة» وقد قُلِبتا رأساً على عقب. دعيه ينطلق بنا إلى آرمينونفيل.»

ـ «هل سنذهب إلى باريس؟»

فقال الكولونيل: «من غير ريب. قولي له أن يمضي بك، طوال ساعة، حيث الانطلاق أسهل. أنا لا أريد أن أكلفه الجري بنا في وجه هذه الريح.»

فقالت الفتاة: «المدّ مرتفع جداً مع هذه الريح. ولقد عجز الغندول من قبل عن بلوغ بعض أماكننا بالمرور تحت الجسور. أتأذن لي في أن أدله إلى أين يحسن به أن يتجه؟»

ـ «من غير ريب، يا بُنيّتي.»

ـ «ضع دلو الجليد هذا فوق ظهر الغندول،» كذلك قال للنادل الثاني، الذي كان قد غادر الفندق برفقتهما.

ـ «لقد كلفني المايسترو الأعظم أن أقول لك، حين تركب البحر، إن هذه الزجاجة هي هدية منه.»

ـ «احمل إليه شكري العميق وقل له إنه لا يستطيع أن يفعل ذلك.»

وقالت الفتاة: «من الأفضل للغناديلي أن يواجه الريح بعض الشيء، أولاً، وبعد ذلك أعرف في أي اتجاه يتعين عليه أن يمضي.»

وقال النادل الثاني: «لقد أرسل المايسترو الأعظم هذه.»

كانت بطانية عتيقة مطوية. وكانت ريناتا تتحدث إلى الغناديلي، وقد عبث الريح بشعرها. وكان الغناديلي يرتدي كنزة زرقاء سميكة من كنزات رجال الأسطول، وكان حاسر الرأس أيضاً.

فقال الكولونيل: «أشكره باسمي.»

ووضع في يد النادل الثاني ورقة نقدية. ولكن النادل الثاني أعادها إليه قائلاً: «لقد سبق لك أن ملأت الشيك. وعلى أية حال، فليس أيّ منا، أنت أو أنا أو المايسترو الأعظم، بجائع.»

ـ «وزوجتك وأولادك؟»

ـ «ليس لديّ زوجة وأولاد. إن طائراتكم قد سحقت بيتنا في تريفيزو.»

ـ «أنا آسف لذلك.»

فقال النادل الثاني: «لا داعي للأسف فقد كنت جندياً في سلاح المشاة كما كنتُ أنا.»

ـ «اسمح لي أن أعبر عن أسفي.»

فقال النادل الثاني: «من غير ريب. ولكن هل يقدم ذلك أو يؤخر؟ ابتهج يا زعيمي، وابتهجي يا سيدتي.»

وامتطيا متن الغندول، وكان ثمة ذلك السحر المأثور نفسه، سحرُ المركب الخفيف، وتنحية الماء المفاجئة التي أحدثها ثقلك، ثم توزيعك ثقل المركب بحيث يتوازن فوق سطح الماء في تلك الخلوة القاتمة، وإعادة ذلك التوزيع كرة أخرى عندما شرع الغناديلي يجذّف بمجذاف واحد، مميلاً المجذاف على جانبه بعض الشيء لكي يكون أقدر على التحكم فيه.

فقالت الفتاة: «والآن، نحن في بيتنا، وأنا أحبك. أرجوك أن تقبلني، وأن تفرغ حبك كله في قبلتك هذه.»

وضمها الكولونيل إلى صدره في إحكام، وقد ارتدّ رأسها إلى وراء وقبّلها حتى لم يبق من القبلة غير القنوط.

ـ «أنا أحبك.»

فقاطعته: «أيا ما كان معنى ذلك.»

ـ «أنا أحبك، وأنا أعلم كل ما قد يعنيه ذلك. اللوحة الزيتية ظريفة، ولكن ليس ثمة لفظة تستطيع أن تصفك أنت.»

ـ «طائشة،» كذلك قالت، «أو مهملة، أو شعثاء.»

ـ «لا.»

ـ «إن اللفظة الأخيرة كانت من أوائل الألفاظ التي تعلمتها من مربيتي. إنها تعني إنك لا تسرح شعرك تسريحاً كافياً. أما لفظة «مهملة» فتطلق حين لا تمشط شعرك بالفرشاة مئة مرة في الليل.»

ـ «سوف أمِرّ يدي خلاله وأجعله أشدّ تشعثاً.»

ـ «يدك الجريح؟»

ـ «نعم.»

ـ «نحن جالسان في الجانبين غير الملائمين لهذا الغرض. فلنتبادل موضعينا.»

ـ «حسن. هذا طلب معقول بلغة بسيطة يسهل فهمها.»

وكان تبادلهما موضعيهما متعة من المتع، إذ كان عليهما أن لا يفسدا توازن الغندول، وأن يوزّعا ثقله كرة أخرى توزيعاً عادلاً في احتراس وعناية.

وقالت: «والآن أمسِكْ بي في قوّة بيدك الأخرى.»

ـ «هل تعرفين تماماً ماذا تريدين؟»

ـ «أنا أعرف من غير ريب. أهو عمل لا يليق بعذراء؟ لقد تعلمت هذا التعبير، أيضاً، من مربيتي.»

فقال: «لا إنه رائع. اسحبي البطانية جيداً واستشعري هذه الريح.»

ـ «إنها مقبلة من الجبال العالية.»

ـ «أجل، فإذا تجاوزت الجبال العالية فعندئذ تكون مقبلة من مكان آخر.»

وسمع الكولونيل اصطفاق الأمواج، واستشعر الريح وهي تهب عنيفة، وألفة البطانية الخشنة، ثم استشعر الفتاة مقرورةً ـ حارةً وحبيبةً إلى النفس وذات نهدين شامخين انزلقت يده اليسرى فوقهما انزلاقاً رفيقاً. وبعد ذلك أمرّ يده المشوهة خلال شعرها مرةً، ومرةً، ومرةً، ثم قبّلها، وكانت قبلتُهُ أسوأ من القنوط.

ـ «أرجوك،» كذلك قالت من تحت البطانية، «دعني أقبلك الآن.»

فقال: «لا. أريد أن أقبلك كرة أخرى.»

كانت الريح قارسة، وكانت تلهب وجهيهما بسياطها؛ أما تحت البطانية فلم يكن ثمة ريح أو أي شيء. لم يكن غير يده الخرِبة الباحثة

عن الجزيرة في النهر العظيم ذي الضفتين العاليتين الشديدتي الانحدار.

وقالت: «هو ذاك.»

وقبّلها عندئذ، وراح يبحث عن الجزيرة، مهتدياً إليها، مضيعاً إياها، ثم مهتدياً إليها نهائياً. نهائياً أو غير نهائيّ، كذلك قال في ذات نفسه، نهائياً وإلى الأبد.

وقال: «يا حبيبة نفسي. يا من اؤثرها بالحب. أرجوك.»

ـ «لا. حسبك أن تضمني إلى صدرك ضماً محكماً، وأن تتشبث بالأرض العالية أيضاً.»

ولم يقل الكولونيل شيئاً، لأنه كان يشهد، أو يتظاهر بأنه يشهد، السرّ القدسيّ الوحيد الذي كان يؤمن به بالإضافة إلى بسالة الإنسان العَرَضية.

وقالت الفتاة: «لا تتحرك، أرجوك. ثم أسرِفْ في الحركة.»

وواصلَ الكولونيل، مضطجعاً تحت البطانية في غمرة الريح، عالماً أن ما يفعله الرجل للمرأة هو كل ما يبقى له، باستثناء ما يفعله لوطنه الأبِ أو وطنه الأمّ، أياً ما كانت الصيغة التي تؤثِرُها.

وقالت الفتاة: «أرجوك، يا عزيزي. لست أفكر أني قادرة على احتمال ذلك.»

ـ «لا تفكري في شيء. لا تفكري في شيء البتة.»

ـ «لست أفعل.»

ـ «لا تفكري.»

ـ «أوه، أرجوك، فلنكفّ عن الكلام.»

ـ «هل هذا حسن؟»

ـ «أنت تعلم.»

ـ «أنت واثقة من ذلك.»

ـ «أوه، أرجوك أن لا تتكلم. أرجوك.»

أجل، كذلك قال في ذات نفسه. أرجوك وأرجوك كرة أخرى.

ولم تقل شيئاً، لا ولم يقل هو شيئاً. وحين انطلق الطائر الكبير من نافذة الغندول الموصدة وغاب عن الأنظار لم يقل أيّ منهما شيئاً. لقد أمسك رأسها بذراعه السليمة، في رفق، وأمسكت ذارعُهُ الأخرى ـ الآن ـ بالأرض العالية.

وقالت: «أرجوك أن تضعها حيث ينبغي أن توضع. يدك أعني.»

ـ «اضروري هذا؟»

ـ «لا. حَسْبك أن تضمني إليك في قوة، وحاول أن تحبني حباً صادقاً.»

فقال: «أنا أحبك حباً صادقاً.» وفي تلك اللحظة انعطف الغندول إلى اليسار، انعطافاً حاداً جداً، وكانت الريح على خده الأيمن، وقال وقد لمحت عيناه العتيقتان الخطوط الكبرى للقصر، والتفتا نحوه ولاحظاه: «أنت الآن في الجانب المحجوب عن الريح، يا بنيَّتي.»

ـ «ولكن هذا أسرع مما ينبغي الآن. ألا تعلم كيف يكون احساس المرأة؟»

ـ «لا. لست أعلم من ذلك إلاّ ما تخبرينني به أنتِ.»

ـ «أشكرك على أنتِ هذه. ولكن ألا تعلم فعلاً؟»

ـ «لا. أنا لم أسأل عن ذلك قط. في ما أحسب.»

فقالت: «احسبِ الآن. وأرجوك أن تنتظر ريثما نمرّ تحت الجسر الثاني.»

ـ «خذي كأساً من هذا.» كذلك قال الكولونيل باسطاً يده على نحو مصيب ملتمساً دلو الشامبانيا الحافل بالثلج، نازعاً غطاء الزجاجة التي كان المايسترو الأعظم قد نزع سدادتها ثم وضع مكانها فلينة خمر عادية.

ـ «هذه مفيدة لك، يا بُنيّتي. إنها تساعد على التخلص من جميع الأسواء التي تستبدّ بنا جميعاً، وتضع حداً لكل كآبة وتردد.

ـ «لست أشكو شيئاً من هذا كله،» كذلك أجابت بلغة فصيحة كما كانت مربيتها قد علّمتها. «أنا مجرد امرأة، أو فتاة» (سمِّني ما شئت) تقوم بكل ما يتعين عليها أن لا تقوم به. فلنعاود عمل ذلك، أرجوك، ما دمتُ الآن في الجانب المحجوب عن الريح.»

ـ «أين الجزيرة الآن وفي أيّ نهر؟»

ـ «إنك أنت الذي تستكشف. ولست أنا غير البلاد المجهولة.»

ـ «إنها ليست مجهولة أكثر مما ينبغي.»

فقالت الفتاة: «أرجوك أن لا تكون فظاً. وأرجوك أن تشن هجومك في رفق، وبمثل الطريقة التي قمت بها من قبل.»

فقال الكولونيل: «هو ليس هجوماً. إنه شيء آخر.»

ـ «أياً ما كان... أياً ما كان، ما دمت لا أزال في الجانب المحجوب عن الريح.»

ـ «أجل» كذلك قال الكولونيل. «أجل، إذا أردتِ، أو إذا كنت ستوافقين تكرُّماً.»

ـ «نعم، أرجوك.»

إنها تتكلم مثل هرةٍ بالغة اللطف، برغم أن الهررة البائسة لا تقوى على الكلام، كذلك قال الكولونيل. ولكنه سرعان ما أقلع عن التفكير، وظلّ مقلعاً فترة من الزمن طويلة.

كان الغندول الآن في إحدى القنوات الثانوية. وحين انعطفَ من القناة العظمى كانت الريح قد أمالته بحيث اضطرّ الغناديليّ إلى تحويل ثقله إلى الناحية الثانية وكأنه صابورة[1]، وحوَّل الكولونيل والفتاة

(1) bollast الصابورة، في منطاد أو سفينة، ثقل خاص يوضع في احدهما حفظاً لتوازنه. (المعرب)

ثقلهما أيضاً، تحت البطانية، وقد نفذت الريح إلى ما تحت حافة البطانية في ضراوة.

وكانا قد اعتصما بالصمت برهة طويلة، وكان الكولونيل قد لاحظ أن الغندول لم يكن يفصله عن الارتطام بأدنى الجسر الأخير غير بضع بوصات.

ـ «كيف أنت، يا بُنَيّتي؟»

ـ «في أحسن حال.»

ـ «هل تحبينني؟»

ـ «أرجوك أن لا توجه إليّ أسئلة سخيفة.»

ـ «المدّ مرتفع جداً ونحن لم نجَتزْ ذلك الجسر الأخير إلاّ منذ لحظات.»

ـ «أحسب أني أعلم إلى أين نحن ماضيان. لقد وُلدتُ ههنا.»

فقال الكولونيل: «لقد ارتكبتُ أنا بعض الأخطاء في نفس المدينة التي ولدتُ فيها. إن مجرد كون المرء «قد وُلد هناك» ليس هو كل شيء.»

فقالت الفتاة: «إنه شيء هام جداً. وأنت تعرف ذلك. أرجوك أن تضمّني إليك في شدة بالغة حتى ليصبح في إمكان كل منا أن يكون جزءاً من الآخر، برهةً قصيرة.»

فقال الكولونيل: «في ميسورنا أن نجرب.»

ـ «أليس في استطاعتي أن أكون أنت؟»

ـ «هذا معقد إلى حد رهيب. في إمكاننا أن نجرب طبعاً.»

فقالت: «أنا أنت الآن. ولقد استوليت منذ لحظات على مدينة باريس.»

فقال: «وحق المسيح، يا بُنيّتي، إن بين يديك الآن لمجموعة رهيبة من المشكلات. والشيء الذي سوف يلي هو أنهم سيستعرضون الفرقة الثامنة والعشرين في شوارعها.»

ـ «لست أبالي.»

ـ «أما أنا فأبالي.»

ـ «ألم يكونوا صالحين؟»

ـ «بلى كانوا صالحين، من غير ريب. وكان لهم قادة ممتازون أيضاً. ولكنهم كانوا «حرساً وطنياً» وحظاً سيئاً. ما ندعوه فرقة .T.S. أطلبي مقعدك الكنسيّ من القسيس.»

ـ «لست أفهم أياً من هذه الأشياء.»

فقال الكولونيل: «إنها غير جديرة بأن تُشرح.»

ـ «هل لك أن تخبرني بعض الأشياء الحقيقية عن باريس؟ أنا أحب ذلك كثيراً، وحين أفكر أنك قد استوليت عليها آنذاك يبدو لي وكأنني امتطي متن الغندول مع المارشال ناي[1].»

ـ «تلك مهمة غير صالحة،» كذلك قال الكولونيل: «وعلى أية حال، ليس بعد أن قام بجميع عمليات مؤخرة الجيش تلك في طريق عودته من المدينة الروسية الكبيرة. لقد كان من دأبه أن يقاتل عشر مرات، واثنتي عشرة مرة، وخمس عشرة مرة، في اليوم الواحد. ربما أكثر. وفي ما بعد لم يعد في ميسوره أن يتبيّن الناس ويميّز ما بينهم. أرجوكِ أن لا تركبي متن أيّ غندول من الغناديل برفقته.»

ـ «لقد كان دائماً، واحداً من أبطالي العظام.»

ـ «أجل. ومن أبطالي العظام أنا أيضاً. حتى كانت معركة «كاتر برا»[1]. لعلها لم تكن «كاتر برا». فالصدأ أخذ يلمّ بذاكرتي. اخلعي عليها لقب واترلو الشامل.»

ـ «وهل تكشّف هناك عن حماقة؟»

---

(1) Ney (1769 ـ 1815)، ماريشال فرنسة في عهد نابوليون بونابرت. (المعرب)

(1) Quatre Bras قرية في وسط بلجيكا على مقربة من بروكسل، حيث جرت معركة ممهدة لمعركة واترلو الشهيرة عام 1815. (المعرب)

فقال لها الكولونيل: «إلى حد رهيب. حاولي أن تنسي هذا. لقد قام بعدد من العمليات «المؤخرية» أكثر مما ينبغي في طريق عودته من موسكو.»

ـ «ولكنهم دَعوْه أشجع الشجعان؟»

ـ «إنكِ لا تستطيعين أن تعيشي على هذا. إن عليكِ أن تكوني هكذا، دائماً، وأن تكوني أذكى الأذكياء أيضاً. وبعد ذلك تحتاجين إلى إمداد ومُعدّات كثيرة.»

ـ «حدثني عن باريس، أرجوك. إن علينا أن لا نسترسل في مزيد من الوصال. أنا أعلم ذلك.»

ـ «أنا لا أعلمه. من الذي يقول هذا؟»

ـ «أنا. لأني أحبك.»

ـ «حسن جداً. لقد قلتِ هذا وأنت تحبينني. فلنعمل بوحي من ذلك. وليكن ما يكون.»

ـ «هل تعتقد أن في إمكاننا أن نعيد الكرّة إن لم يورثك ذلك أذىً ما.»

فقال الكولونيل: «يورثني أذىً ما؟ ومتى أورِثْتُ، بحق الجحيم، أيما أذى؟»

[14]

ـ «أرجوك أن لا تكون خبيثاً،» قالت ذلك وسحبت البطانية عليهما معاً. أرجوك أن تشرب. كأساً من هذه الخمر معي. أنت تعلم أنك قد أوذيت.»

فقال الكولونيل: «تماماً. فلننْسَ ذلك.»

فقالت: «حسن جداً. لقد تكلّمت هذه الكلمة، أو هاتين الكلمتين، منك. لقد نسينا ذلك.»

ـ «لماذا تحبين اليد؟» كذلك سألها الكولونيل، واضعاً إياها حيث يجب أن يضعها.

ـ «أرجوك أن لا تتظاهر بالبلاهة، ولنقلِع عن التفكير في أي شيء، أو أي شيء، أو أي شيء، أرجوك.»

فقال الكولونيل: «أنا أبله. ولكني لن أفكر بأيّ شيء، أو بأي شيء، حتى ولا بأخيه، غداً.»

ـ «أرجوك أن تكون طيّباً ودمثاً.»

ـ «سوف أكون. وسأفضي إليك، الآن، بسر عسكري. السرّ الرئيسي» يساوي «السر الأعظم» عند الإنكليز. أنا أحبك.»

فقالت: «هذا جميل. ولقد عبّرت عنه في قالب بارع.»

ـ «إني لظريف،» كذلك قال الكولونيل، وراقب الجسر الذي كان يدنو منهما، ورأى أن في إمكان الغندول أن يمر من تحته من غير

أن يرتطم به «هذا أول ما يَبْدَهُ الناسَ من أمري.»

فقالت الفتاة: «إني لاستعمل الألفاظ المغلوطة دائماً أرجوك أن تحبني ليس غير. ولكم أتمنى لو كنت أنا القادرة على حبك.»

ـ «أنت تحبينني.»

فقالت: «أجل، أنا أحبك. من كل قلبي.»

كانا ينطلقان الآن في اتجاه الريح، وكان كل منهما مُتعباً.»

ـ «هل تفكرين..؟»

فأجابت الفتاة: «أنا لا أفكر.»

ـ «حسناً، حاولي أن تفكري.»

ـ «سوف أفعل.»

ـ «اشربي كأساً من هذه.»

ـ «لمَ لا؟ إنها جيدة جداً.»

ولقد كانت كذلك فعلاً. كان لا يزال ثمة ثلج في الدلو، وكانت الخمر باردةً وصافية.

ـ «هل أستطيع البقاء في الغريتي؟»

ـ «لا.»

ـ «لم لا؟»

ـ «لن يكون ذلك مناسباً. لا لهم هم؛ ولا لكِ أنت. أما أنا فلست أبالي.»

ـ «إذن فأحسب أن عليّ أن أمضي إلى البيت.»

فقال الكولونيل: «أجل، هذا هو الاقتراح المنطقي.»

ـ «تلك طريقة رهيبة لقول شيء محزن. أليس في استطاعتنا مجرد التظاهر بشيء ما، أيضاً؟»

ـ «لا. سوف آخذكِ إلى المنزل حيث تنامين نوماً طويلاً عميقاً، وغداً سنلتقي حيثما تريدين وفي الساعة التي تريدين.»

ـ «هل أستطيع أن أتلفن للغريتي؟»
ـ «طبعاً. سوف أكون مستيقظاً دائماً. هل تعتزمين أن تتلفني حين تفيقين؟»
ـ «أجل. ولكن لماذا تفيق دائماً في ساعة مبكرة جداً من الصباح؟»
ـ «إنها عادة من عادات عملي.»
ـ «أوه، لشدّ ما أتمنى لو لم تكن من أهل تلك المهنة، ولو أنك لن تموت.»
فقال الكولونيل: «وكذلك أنا. ولكني على وشك اعتزال هذا العمل.»
فقالت وقد غلب عليها النعاس والارتياح: «أجل. وعندئذ نذهب إلى رومة ونشتري الملابس.»
ـ «ونحيا سعيدين بعد ذلك إلى الأبد.»
فقالت: «أرجوك أن لا تقول هذا، أرجوك أن لا تقول هذا. أنت تعلم أني أخذت على نفسي عهداً أن لا أذرف الدمع.»
فقال الكولونيل: «إنك تذرفين الدمع الآن. ليت شعري ما الذي يتعيَّن عليك أن تخسريه بسبب من ذلك العهد؟»
ـ «خذني إلى البيت من فضلك.»
فقال لها: «ذلك ما كنت أفعله بادئ ذي بدء.»
ـ «كن دمثاً مرةً واحدة، قبل كل شيء.»
فقال الكولونيل: «سوف أكون.»
وبعد أن دفعا الأجرة، أو على الأصح بعد أن دفع الكولونيل الأجرة، إلى الغناديليّ الذي كان يجهل كل شيء، وبرغم ذلك يعلم كل شيء، والذي كان قويّ البنية، بارعاً، كثير الاحترام، جديراً بالثقة... أقول بعد أن دفع الكولونيل الأجرة إلى الغناديلي مشيا إلى

«بلاتزيّتا» Plazzeta، ثم عَبَرا الساحة العريضة الباردة، التي كانت مسرحاً للريح، والتي بدت صلبةً عتيقة تحت أقدامهما. أجل مشيا، وقد أمسك كل منهما بيد الآخر في قوة وإحكام، يكتنفهما أساهما وتكتنفهما سعادتهما.

وقالت الفتاة: «هذا هو المكان الذي أطلق فيه الألمانيّ النار على الحمائم.»

فقال الكولونيل: «أغلب الظن أننا قتلناه. أو قتلنا أخاه. ولعلنا قد شنقناه. لست أدري. أنا لست من رجال دائرة المباحث الجنائية (C.I.D)

ـ «ألا تزال تحبني بعد أن وطئنا هذه الحجارة الباردة، العتيقة التي أبْلتها المياه؟»

ـ «أجل، وإني لأودّ لو انشر هنا فراشاً وأقيم الدليل على ذلك.»

ـ «إن هذا الصنيع أكثر بربرية من صنيع مُطلق النار على الحمائم.»

فقال الكولونيل: «أنا رجل بربريّ الخُلق.»

ـ «ليس دائماً.»

ـ «أشكرك على ليس دائماً هذه.»

ـ «يجب أن ننعطف هنا.»

ـ «أحسب أني أعلم ذلك. متى سيدكّون «قصر السينما» اللعين هذا ويقيموا مكانه كاتدرائية حقيقية؟ ذلك ما يريده سائق سيارتي جاكسون.»

ـ «عندما يضع امرؤ ما القديس مرقص تحت حمل من لحم الخنزير ويُرجعه من الاسكندرية كرة أخرى.»

ـ «لقد كان الذي فعل ذلك غلاماً من تورشيلو.»

ـ «أنت غلام من تورشيلو.»

ـ «غلام من نهر بيافّا الأدنى، وغلام من الـ «غرابًّا»[1] أو من بيرتيكا. أنا علام من باسوبيو، أيضاً، إذا عرفتِ معنى ذلك. ولقد كان مجرد العيش هناك أسوأ من القتال في أي مكان آخر. وفي الفصيلة كان من دأبهم أن يشاركوا أيما امرئ ميكروبه الخاص بمرض السيلان المحمول من «شيبو» ضمن علبة كبريت. وإنما كانوا يقدمون على هذه المشاركة لا لشيء إلاّ لكي يصبح في ميسورهم الانصراف، لأن الأوضاع هناك كانت لا تطاق.»

ـ «ولكنك بقيت.»

فقال الكولونيل: «من غير ريب. أنا دائماً آخر من يغادر الحفلة الساهرة، أعني الـ Fiesta، لا الحزب السياسي[2]. أنا الضيف الذي لا شعبية له حقاً.»

ـ «هل ترى أن نذهب؟»

ـ «حسبتُ أنكِ عقدت العزم على ذلك.»

ـ «لقد فعلت، ولكني نقضته حين تحدثت عن الضيف الذي لا شعبية له.»

ـ «احتفظي به معقوداً.»

ـ «إن في استطاعتي أن ألزم قراراً اتخذتُهُ.»

ـ «أدري. في استطاعتك أن تلزمي أي شيء لعين. ولكنك، يا بنيّتي، لا تفعلين في بعض الأحيان. إن الحمقى هم الذين يلتزمون قراراتهم دائماً. إذ يتعين على المرء، أحياناً، أن يغيرّ موقفه في سرعة.»

---

(1) الـ grappa مرتفعات جبلية من الألب الشرقي في إيطالية. وبيرتيكا Pertica موضع في تلك المرتفعات. (المعرب)

(2) في الأصل تلاعب لفظي لا يمكن نقله إلى العربية. لأن لفظة party تعني في الإنكليزية الحفلة الساخرة، والحزب السياسي أيضاً. أما الـ fiasta فلفظة إسبانية تعني العيد أو المهرجا. (المعرب)

ـ «سوف أغير موقفي إذا شئت أنت.»

ـ «لا. أنا أحسب أن القرار كان سليماً.»

ـ «ولكن ألن تكون فترة طويلة إلى حد رهيب تلك التي تفصلنا عن صباح غد؟»

ـ «ذلك كله رهنٌ بما إذا كان المرء محظوظاً أم غير محظوظ.»

ـ «إن عليّ أن أنام نوماً عميقاً.»

فقال الكولونيل: «أجل. في مثل سنك يتعين عليهم، إذا استعصى عليك النوم، أن يخرجوكِ ويعلقوك على أعواد المشنقة.»

ـ «أوه، أرجوك.»

فقال: «آسف. عنيت أن يعدموك رمياً بالرصاص.»

ـ «كدنا نبلغ المنزل، وفي ميسورك الآن أن تكون دمثاً لو شئت.»

ـ «إني لأتعلق بأسباب الدماثة إلى حدّ يجعلني نتناً. فليأخذ غيري بأسباب الدماثة.»

كانا قد أمسيا أمام القصر الآن، وها هو ذا القصر قائماً قبالتهما. ولم يكن ثمة ما يستطيعان عمله، غير جذب حبل الجرس، أو الدخول بواسطة المفتاح. لقد استشعرت الضياع في هذا المكان، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه، وأنا لم أستشعر الضياع في حياتي قط من قبل.

ـ «أرجوك أن تقبّلني متمنياً لي ليلة طيبة في دماثة.»

وفعل الكولونيل ذلك؛ ولقد أحبها. ومن هنا لم يستطع لهذا الموقف احتمالاً.

وفتحت الباب بالمفتاح، الذي كان في حقيبتها. ثم توارت عن البصر، وبقي الكولونيل وحيداً، مع الرصيف البالي، والريح التي

كانت تهب من ناحية الشمال، والظلال حيثما ظلت الأضواء مومضةً. وراح يمشي عائداً إلى البيت.

إن السياح والعشاق وحدهم يستأجرون الغناديل، كذلك قال في ذات نفسه. إلاّ ابتغاء عبور القناة في المواطن الخالية من الجسور. إن عليّ، ربما، أن أذهب إلى حانة هاري، أو إلى أي مكان آخر لعين. ولكني أعتقد أني سأذهب إلى البيت.

[15]

لقد كان بيتاً حقاً، إذا كان في الإمكان إطلاق هذا الوصف على حجرة في فندق. كانت بيجامته موضوعة على السرير، وكانت ثمة إلى جانب مصباح المطالعة زجاجة من الـ «فالبوليشيلا»؛ وإلى جانب السرير كانت زجاجة مياه معدنية في دلو ثلج، وقد وضعت قربها فوق الصينية الفضية، كأس. كانت اللوحة الزيتية قد جُرِّدت من إطارها ونُصبت على كرسيين اثنين بحيث يستطيع أن يرى إليها وهو مضطجع في سريره.

وبجانب وسائده الثلاث كانت الطبعة الباريسية من صحيفة «نيويورك هرالد تريبيون». كان يستعمل ثلاث وسائد، كما عرف آرنالدو، وكانت زجاجة دوائه الإضافية ـ لا تلك التي حملها في جيبه ـ موضوعةً بجانب مصباح المطالعة. وكانت أبواب الخزانة الداخلية، الأبواب ذات المرايا، مفتوحة بطريقة تمكّنه من أن يرى اللوحة من جانب. وكان خُفّاه اللذان لا عقِبين لهما على مقربة من السرير.

سوف أشتريها، كذلك خاطب الكولونيل نفسه إذ لم يكن ثمة شخص آخر غير اللوحة الزيتية.

وفتح زجاجة الفالبوليشيلا التي كان قد نزع سدادتها، ثم أعاد سدها بالفلينة في عناية، وإحكام، وحبّ، وأفرغ لنفسه قدحاً في تلك الكأس التي كانت أحسن بكثير من أي واحدة ينبغي لأي فندق يواجه إمكانية الكسر والتحطيم أن يستعملها.

وقال: «إني أشربها على صحتك، يا بنيتي، الجميلة الظريفة. هل تعلمين أن بين محاسنك الكثيرة أن ريّاك طيبة دائماً؟ إن لك لرائحة فاتنة حتى في مَهَب الريح، أو تحت بطانية، أو عندما يقبِّلك المرء وهو يتمنى لك ليلة طيبة. وأنت تعلمين أن هذا شيء لا نقع عليه عند الكثرة الكبيرة من الناس؛ وأنتِ لا تستعملين ضروب العطر والطيب.»

ونظرت إليه من اللوحة الزيتية ولم تقل شيئاً.

فقال: «ليكن ما يكون. إني سأوجه الخطاب إلى صورة.»

ما الذي أصابه الخلل الليلة، في ما تحسب؟ كذلك فكَّر.

أنا، في ما يخيَّل إليّ. حسناً، سوف أحاول أن أكون، غداً، غلاماً طيباً طوال النهار. منذ الخيط الأول من خيوط الفجر.

ـ بُنيّتي»، كذلك قال وكان يتحدث إليها الآن لا إلى صورة من الصور. «أرجوك أن تثقي أنني أحبك، وأني أودّ أن أكون رفيقاً وطيباً. وأرجوكِ أن تبقي إلى جانبي، الآن، من غير انقطاع.»

وكانت اللوحة الزيتية هي هي لم يتغيَّر فيها شيء.

وأخرج الكولونيل أحجار الزمرد من جيبه، ورنا إليها، وأحسَّ بها تنزلق ـ باردةً ولكنها برغم ذلك دافئة، باعتبار أنها توصل الحرارة وباعتبار أن لجميع الحجارة الكريمة حرارتها ـ من يده المشوهة إلى يده السليمة.

«كان يجب عليَّ أن أضع هذه الأحجار في ظرف وأن أغلق عليها درجاً من الأدراج، كذلك قال في ذات نفسه. ولكن هل ثمة سلامة. . . .[1] خيرٌ من تلك التي أستطيع أن أقدِّمها إليها؟ إن عليَّ أن أُعيد هذه الأحجار إليك سريعاً، يا بنيّتي.

---

(1) هنا موضع لفظة مقذعة محذوفة في الأصل.

لقد كانت، برغم ذلك، متعةً. وهي لا تساوي أكثر من ربع مليون. مبلغٌ ليس في إمكاني أن أكسبه إلا في أربعمئة سنة. إن عليّ أن أدقق في هذا الرقم.»

ووضع أحجار الزمرد في جيب بيجامته، ووضع عليها منديلاً. ثم إنه زرّر الجيب. إن أول شيء سليم تتعلَّمه، كذلك قال في نفسه، هو أن تزوّد جميع جيوبك بألسنة وأزرار. ويخيِّل إليَّ أني تعلَّمتُ ذلك على نحو مبكِّر أكثر مما ينبغي.

وكان ملمس الأحجار حسناً. كانت قاسيةً دافئة مما يلي صدره المستوي، القاسي، العتيق الدافئ؛ ولاحظ كيف كانت الريح تهب، ونظر إلى اللوحة الزيتية وأترع كأساً أخرى من الفابوليشيلا ثم شرع يقرأ الطبعة الباريسية من صحيفة «نيويورك هيرالد تريبيون.»

إن عليَّ أن آخذ الأقراص، كذلك قال في ذات نفسه. ولكنْ فلتذهب الأقراص إلى الجحيم.

ثم إنه أخرجها، برغم ذلك، وتابع قراءته صحيفة «نيويورك هيرالد». كان يقرأ مقال ريد سميث، وكان يحبه حباً عظيماً.

[16]

استيقظ الكولونيل قبل انبلاج الفجر، وتحقق من أن أحداً لم يكن نائماً معه.

كانت الريح لا تزال تهب قويّة عاتية، فمضى إلى النوافذ المفتوحة ليتحرَّى حالة الجو. لم يكن ثمة في الشرق، عبر القنال العظمى، أيما ضوء؛ ولكن عينيه استطاعتا أن تريا تلاطم الأمواج العنيف. وقال في ذات نفسه: إن المدَّ سوف يكون رهيباً، اليوم. ولعله سيُغرق الساحة كلها. وهذه، دائماً، متعةٌ من المتع. إلا بالنسبة إلى الحمائم.

ومضى إلى الحمام، آخذاً معه صحيفة «هيرالد تريبيون» وريد سميث، وكأساً من الفالبوليشيلا أيضاً. لعنها اللّه، إني سأكون سعيداً حين يأتيني المايسترو الأعظم بتلك الألفيّات الكبار، كذلك قال في ذات نفسه. إن هذه الخمرة لتصبح كثيرة الثقل في النهاية.

وجلس هناك، مع صحيفته، مفكراً في أشياء ذلك اليوم.

إنه سوف يتلقى مخابرة تلفونية. ولكن هذا قد لا يتم إلا في ساعة متأخرة، لأنها سوف تظل نائمة حتى ساعة متأخرة. إن الصبايا لا يستيقظن إلا متأخرات، كذلك قال في ذات نفسه، والجميلات يستغرقن في النوم أكثر وأكثر أيضاً. وليس من ريب في أنها لن تتلفن في ساعة مبكرة، ولن تفتح الدكاكين أبوابها حتى الساعة التاسعة، أو بعد ذلك بقليل.

يا للجحيم، كذلك قال في ذات نفسه، إن لديّ هذه الجواهر اللعينة. كيف يستطيع أيما امرئ أن يفعل شيئاً كهذا؟

ولكنك تعرف كيف، كذلك قال في ذات نفسه، وهو يطالع الإعلانات المنشورة على الصفحة الأخيرة من الصحيفة. لقد رَقَّيْتَ نفسك، عدَّة مرَّات بشيء مثل ذلك في خط النار. إن هذا ليس بالأحمق أو المرَضيّ. ولقد أرادت هي أن ترْقيك ليس غير. لقد كان من حسن الطالع أن يقع اختيارها عليَّ، كذلك قال في ذات نفسه.

هذا هو الشيء الحسن الوحيد في كوني مَنْ أنا، كذلك فكَّر. حسناً، أنا مَنْ أنا. على أية حال. ما رأيك في الجلوس على صفيحة القمامة، كما قد جلست كل يوم تقريباً من أيام حياتك اللعينة، وهذه الجواهر في جيبك؟

إنه لم يكن يخاطب أحداً، إلا الذُّرية، رُبَّما.

كم من صباح قعدت في الصيف الطويل مع الآخرين جميعاً؟ كان ذلك أسوأ ما فيها. هو وحلق الذقن. وإلا انصرفت لتخلو إلى نفسك، وتفكِّر، أو لا تفكِّر، ثم تختار لنفسك ملجأً صالحاً فتجد أن رجلين من رجال الغدارات قد سبقاك إليه، أو تجد غلاماً ما مستغرقاً في النوم.

ليس في الجيش خلوة إلا بمقدار ما في...[1] احترافيّ من خلوة. إن قدميّ لم تطأ[1]... احترافياً قط، ولكن يخيَّل إليَّ أنه يُدار بطريقة مماثلة إلى حد بعيد. لقد كان في ميسوري أن أتعلم كيف أدير واحداً منها. كذلك قال في ذات نفسه.

وعندئذ أعمد إلى تعيين جميع شخصياتي...[1] الرئيسيين سفراء، أما غير الناجحين فأستطيع أن أعينهم قادة للجيش، أو قادة

(1) موضع كلمة مقذعة محذوفة في الأصل.

للمواقع العسكرية في زمن السلم. لا تكن لاذعاً، أيها الغلام، كذلك قال لنفسه. إن الضحى لما يرتفعْ بعد، وإن مهمتك لما تنتهِ بعد.

ما الذي ستصنعه بزوجاتهم، كذلك سأل نفسه. اشترِ لهم قبعات أو أطلِقِ النار عليهن، كذلك قال. إن ذلك كله جزء من العملية نفسها.

ونظر إلى نفسه في المرآة، المُثبتة في الباب نصف المغلق. فأرته نفسَهُ عند زاوية ضئيلة. إنها طلقةٌ زائفة. وإنهم لم يسدّدوا العيار الناري إلى ما ورائي، تسديداً كافياً، يؤدي آخر الأمر إلى إصابتي[2].

أيها الغلام، كذلك قال، أنت من غير ريب نغلٌ بالٍ تبدو عليه إمارات الهرم.

والآن يتعيَّن عليك أن تحلق ذقنك وأن تنظر إلى وجهك وأنت تفعل ذلك. ثم يتعيَّن عليك أن تقص شعرك. إن ذلك هين في هذه المدينة. إنك كولونيل في سلاح المشاة، أيها الغلام. وليس في استطاعتك أن تطوّف في كل مكان بمظهر أشبه بمظهر جان دارك، أو الجنرال (رتبة تشريف) جورج آرمسترونغ كاستر. ذلك الفارس الجميل. وأحسب إن من الماتع أن يكون المرء هكذا، وأن تكون له زوجة محبة، وأن يتخذ من النُّشارة عقلاً. ولكن لا ريب في أن صناعة الحرب بدت وكأنها ليست الصناعة التي خُلِق لها عندما قُتلوا في تلك الهضبة القائمة فوق «ليتل بيغ هورن» وقد أخذت الأفراس القصيرة الجسم تدور حولهم وسط سحابة من الغبار ووسط مُجتمَع القصعين الذي سحقته حوافر خيل العدو، ولم يبق للجنرال، طوال الأيام الباقية من حياته، غير تلك الرائحة المستحبَّة العتيقة التي انبعثت من البارود الأسود، وجنوده يطلقون النار على بعضهم بعضاً وعلى

(2) يقصد كما نصيد بطة بأن تشدد العيار الناري إلى ما وراءها، وهي طائرة، حتى يُحسب حساب تحركها بينما يكون العيار في طريقه إليها. (المعرب)

أنفسهم، لأنهم كانوا يخشون ما قد يفعله بهم المقاتلون البيض المتزوجون من نسوة هنديات حمراوات.

لقد شُوّهت الجثة تشويهاً لا سبيل إلى وصفه، كذلك كانوا يقولون في هذه الصحيفة نفسها. وعلى تلك الهضبة لتدرك أنك ارتكبت غلطة حقيقية، آخر الأمر وإلى الأبد وحتى أقصى درجة. يا للفارس المسكين، كذلك قال في ذات نفسه. تلك كانت نهاية أحلامه كلها. وهذه إحدى المحاسن التي ينطوي عليها كون المرء جندياً في سلاح المشاة. إنك لم تعرف في حياتك الأحلام قط، باستثناء أحلامك المزعجة.

حسناً، كذلك قال في ذات نفسه، لقد انتهينا الآن، ولن تنقضي غير لحظات حتى يتدفق النور ويصبح في ميسوري أن أرى اللوحة الزيتية. سوف أكون ملعوناً إذا طويت هذه. إني سأحتفظ بها.

يا للمسيح، كذلك قال، ليت شعري كيف تبدو الآن وهي مستغرقة في النوم؟ أنا أعرف كيف تبدو، كذلك قال في ذات نفسه. رائعة. إنها تنام وكأنها لم تستسلم للنوم. وكأنها تخلد إلى الراحة ليس غير. أنا أرجو أن تكون هكذا، كذلك قال. أرجو أن تكون مرتاحة حقاً. يا ليسوع المسيح، لشدّ ما أحبها وأتمنى أن لا أؤذيها أبد الدهر.

[17]

حين شرعت الشمس ترسل خيوطها رأى الكولونيل اللوحة الزيتية. ولعله رآها، في أغلب الظن، بمثل السرعة التي يرى بها أيما رجل متمدين يتعيَّن عليه أن يطالع وأن يوقّع النماذج التي لم يكن يؤمن بها... أقول بمثل السرعة التي يرى بها أيما رجل متمدين شيئاً من الأشياء، حالما يتبدَّى ذلك لناظره. أجل، كذلك في ذات نفسه، إن لي عينين، ولا تزالان قادرتين على الإدراك السريع إلى حد غير يسير، ولقد كان لهما ذات يوم طموح. ولقد قدتُ رجالي الأجلاف إلى حيث أمطِروا بالرصاص. إن ثلاثة فحسب، من أصل مجموعهم البالغ عدده مئتين وخمسين رجلاً، لا يزالون على قيد الحياة، ولقد قصدوا إلى أقصى البلدة ليستندوا أكفَّ المحسنين بقية عمرهم.

وقال للوحة الزيتية: هذا من شكسبير. الفائز والبطل الذي لا منازع له.

إن امرءاً ما قد يقهره، في نزال قصير. ولكني أوثر أن أُجِلَّه وأمجِّده. هل قُدِّر لك أن تقرأي «الملك لير»[1]، يا بُنَيّتي؟ لقد قرأها مستر «جين تاني» Gene Tunney، ولقد كان بطل العالم. ولكني أنا قرأتها أيضاً. إن الجنود يعنون بمستر شكسبير أيضاً، برغم أن ذلك قد يبدو مستحيلاً.

---

(1) King Lear مسرحية لشكسبير مشهورة. (المعرب)

أليس لديك ما تدافعين به عن نفسك غير ردّ رأسك إلى الوراء؟ كذلك سأل اللوحة الزيتية. هل تريد مزيداً، يا شكسبير؟

إنكِ في غير ما حاجة إلى الدفاع. ليس عليكِ إلا أن تستريحي وتُبقي كل شيء على حاله. إنه عمل لا نفع فيه. ودفاعك ودفاعي مجرد عبث لا طائل تحته. ولكن من ذا الذي يستطيع أن يقول لك أن تمضي وتشنقي نفسك كما نفعل نحن؟

لا أحد، كذلك قال لنفسه وللوحة الزيتية. من الراهن أن هذا الشخص ليس هو أنا.

وخفض يده السليمة ووجد نادل الحجرة قد ترك زجاجة فالبوليشيلا ثانية في محاذاة المكان الذي كانت فيه الزجاجة الأولى.

إذا أحببت بلاداً، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه، فيحسن بك أن تعترف بذلك أيها الغلام.

لقد أحببت ثلاثاً وفقدتها ثلاث مرات. كن منصفاً. لقد استردَّينا اثنتين. ثم صحح خطأه فقال: استردّدنا.

ولسوف نسترد الثالثة، الجنرال فرانكو البدين على متن زورق صيده، مزوَّداً بنصيحة طبيبه وببطِّهِ الداجن وبدزّينة من الفرسان المغاربة حين يطلق النار.

ـ «أجل»، كذلك قال في رقة للفتاة التي نظرت إليه في وضوح، الآن، على هدي أول النور وأحسنه.

سوف نسترد ذلك ولسوف يُشنقون كلهم، رأساً على عقب، خارج محطات البنزين، ثم أضاف: لقد حذَّرتكم.

ثم قال: «أيتها اللوحة الزيتية، لماذا بحق الجحيم لا تستطيعين أن تضطجعي معي في السرير بكل بساطة بدلاً من أن تكوني على مبعدة ثماني عشرَ بلاطةً صلبةً عني؟ أنا لم أعد الآن لاذعاً بقدر ما كنت من قبل في أي وقت.»

«أيتها اللوحة الزيتية»، كذلك قال للفتاة، وللوحة معاً؛ ولكن لم يكن ثمة أية فتاة وكانت اللوحة الزيتية مرسومة كما كانت.

«أيتها اللوحة الزيتية، أبقي ذقنك اللعينة مرفوعة بحيث تستطيعين أن تفطّري فؤادي في سهولة أعظم.»

لقد كانت من غير ريب هدية طريفة، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه.

«هل تستطيعين أن تناوري»، كذلك سأل اللوحة الزيتية، «في إجادة وسرعة.»

ولم تقل اللوحة شيئاً فأجاب الكولونيل: أنت تعلم جيداً أنها قادرة على ذلك.

ولقد بزّتك في فن المناورة في الكثرة العظمى من أيام حياتك، وخليقٌ بها أن تمكث وتقاتل، حيث تكون أنت منصرفاً إلى عبثك الوضيع، وأن تفعل ذلك في حصافة بالغة.

وقال: «أيتها اللوحة. غلاماً كنتِ أو بنتاً أو حبي الحقيقي الوحيد أو أي شيء آخر. أنتِ تعرفين ما هو، إيتها اللوحة.»

ولم تجب اللوحة، شأنها من قبل. ولكن الكولونيل، الذي عاد الآن جنرالاً من جديد، في تلك الساعة المبكرة من الصباح وفي الوقت الوحيد الذي عرف معرفة جيدة، وقد احتسى شراب الفالبوليشيلا، أدرك إدراكاً قاطعاً وكأنه قد قرأ «فاسيرمان» للمرة الثالثة منذ لحظات، أنه لم يكن ثمة في اللوحة أيّ...[1]، واستشعر الخجل لتحدثه إلى اللوحة بمثل هذا الحديث اللاذع.

ـ «سوف أكون أحسن غلام لعين قُدِّر لكِ أن تَرَيْهِ اليوم. وفي استطاعتك أن تخبري رئيستك ذلك.»

---

(1) هنا موضع كلمة مقذعة محذوفة في الأصل الإنكليزي أيضاً. (المعرب)

ولكن اللوحة، كدأبها دائماً، ظلَّت صامتة.

لعلها أن تتحدث إلى فارس في سلاح الفرسان، كذلك قال الجنرال، ذلك بأنه كان الآن ذا نجمتين، ولقد صَرَفَت نجومه على كتفيه وتبدَّت بيضاء أمام الحمرة الغامضة الناصلة على اللوحة المعدنية التي في مقدمة سيارة «الجيب». إنه لم يستعمل سيارات القيادة قط، ولا العربات نصف المصفَّحة المتمّمة بأكياس الرمل.

وقال: «إلى الجحيم بك، أيتها اللوحة، أو اطلبي مقعدكِ الكنسيّ من قسّيسنا الكونيّ كلنا، نحن المؤمنين بأديان مشتركة. إن عليك أن تكوني قادرة على العيش من هذه السبيل.»

فقالت اللوحة، من غير أن تتكلم: «إلى الجحيم بك، أيها الجندي ذو الدرجة الوضيعة.»

ـ «أجل،» كذلك قال الكولونيل، ذلك بأنه كان الآن كولونيلاً كرة أخرى وتخلّى عن رتبته السابقة كلها.

ـ «أنا أحبك، أيتها اللوحة، حباً عظيماً. ولكن لا تخاشنيني. أنا أحبك حباً عظيماً لأنكِ جميلة. ولكني أحب الفتاة أكثر. مليون مرة أكثر؛ أسمعت؟»

ولم يكن ثمة أية إمارة تفيد أنها سمعت. وهكذا سئمها وملّها.

وقال: «أنت تلْزَمين موقفاً ثابتاً. سواء أكنتِ من غير إطار أو ضمن إطار ما. وإني لأعتزم أن أناور.»

كانت اللوحة الزيتية صامتة كصمتها منذ أن حملها بواب الفندق إلى الحجرة، ليريها للكولونيل وللفتاة، يعاونه النادل الثاني على ذلك.

نظر الكولونيل إليها، ورأى أن من المتعذر الدفاع عنها، بعد أن أصبح الضياء غامراً أو شبه غامر.

لقد رأى، أيضاً، أنها كانت صورة حبيبته الغالية، ومن أجل ذلك قال: «آسف لكل ما تلفظتُ به من حماقات، أنا لا أودّ أبد الدهر أن أكون وحشياً. ولعل في ميسورنا كلينا أن ننام برهة قصيرة، مع الحظ، وعندئذ ربما عمدت سيدتك إلى الاتصال التلفوني بي.»

ومن يدري، فلعلها أن تأتي لزيارتي أيضاً، كذلك قال في ذات نفسه.

[18]

دفع حاجب الردهة صحيفة الـ «غازيتينا» تحت الباب، فتلقّاها الكولونيل، من غير أن يحدث ضجة ما، حالما مَرَّت، أو كادت، من خلال الشِّقّ.

لقد نترها، تقريباً، من يد حاجب الردهة. ولم يكن يحبّ حاجب الردهة، بسبب من أنه فاجأه، ذات يوم، وهو يعبث بمحتويات حقيبته، عندما عاود هو ـ الكولونيل ـ دخول الحجرة بعد أن غادرها، مبدئياً، لفترة قصيرة من الزمان. كان قد انقلب عائداً إلى الحجرة لكي يجيء بزجاجة عقاره، التي كان قد نسيها، فإذا به يجد حاجب الردهة ماضياً في العبث بمحتويات حقيبته.

ـ «أحسب أنكم، في هذا الفندق، تهددون الناس ابتغاء سَلْبهم.» كذلك كان الكولونيل قد قال. «ولكنك لست بمفخرة لمدينتك.»

وكان الرجل ذو الوجه الفاشستي والصُدرة المخططة قد اعتصم بالصمت فقال الكولونيل: «تابع، أيها الغلام، عبثك بسائر المحتويات. أنا لا أحمل أسراراً عسكرية مع أدوات زينتي.».

ومنذ ذلك الحين صار الودّ بينهما مفقود، واستمتع الكولونيل بمحاولة نتر الصحيفة الصباحية من يد الرجل ذي الصدرة المخططة، في غير ما ضجّة؛ كلما سمعها أو رآها تتحرك أول ما تتحرك تحت الباب.

ـ «أو. كي. لقد كسبت اليوم، أيها الغِرّ الحقير!» كذلك قال بأحسن لهجةٍ فينيسية استطاع أن يصطنعها في تلك الساعة. «اذهب واشنق نفسك!»

ولكنهم لا يشنقون أنفسهم، كذلك قال في ذات نفسه. كل ما عليهم أن يفعلوه هو الاستمرار في وضع الصحف تحت أبواب الناس الآخرين الذين لا يضمرون لهم حتى البغض. إن كون المرء «فاشستياً سابقاً» لا بدَّ أن يكون مهنة عسيرة جداً. ولعله أن لا يكون «فاشستياً سابقاً». ما يُدريك؟

أنا لا أستطيع أن أبغض الفاشستيين، كذلك قال في ذات نفسه. حتى ولا النمساويين، ما دمت ـ لسوء الطالع ـ جندياً.

وقال: اسمعي، أيتها اللوحة. هل يتعيَّن عليَّ أن أُبغض النمساويين لأننا نقتُلهم؟ هل يتعيَّن عليَّ أن أبغضهم كجنود وكمخلوقات بشرية؟ إن هذا ليبدو لي حلاً يسيراً أكثر مما ينبغي.

حسناً، أيتها اللوحة. إنسي ما قلتُ. إنسي ما قلت. أنتِ لم تبلغي من السن مبلغاً يمكّنكِ من معرفة شيء عن ذلك. أنتِ أصغر بسنتين من الفتاة التي تمثلينها، وهي أصغر سناً مني وأكبر سناً من الجحيم... والجحيم مكان بالغُ العِتق والقِدَم.

ـ «اسمعي، أيتها اللوحة،» كذلك قال. وفيما هو يقول هذه الكلمات أدرك أنه سوف يكون لديه الآن، ما امتدّت به الحياة، شخصٌ يستطيع أن يتحدَّث إليه في ساعات الصباح المبكرة حين يفيق من نومه.

ـ «كما كنت أقول، أيتها اللوحة. إلى الجحيم بهذا أيضاً. وهذا أيضاً شيء لم تبلغي من السن مبلغاً يمكّنك من معرفته. إنه أحد الأشياء التي لا يستطيع المرء أن يقولها مهما تكن صحيحة. وهناك جمهرة من الأشياء لا أستطيع أبد الدهر أن أقولها لكِ، وربما كان ذلك خيراً لي. إنها عن عهد مضى تقريباً. ما الذي تحسبينه خيراً لي، أيتها اللوحة؟»

ـ «ما خطبك، أيتها اللوحة؟ كذلك سألها. «هل بدأت تحسين بالجوع؟ أنا بدأت أحس به.»

وهكذا رنّ الجرس للنادل ليكلفه بإحضار بطعام الصباح.

لقد عرف أنه لن يكون ثمة الآن ـ برغم سطوع الضياء إلى حدّ تجلّت معه كل موجة من موجات القناة العظمى، (صاصية اللون ثقيلة عارمة مع مجرى الريح، وبرغم أن المدّ ارتفع الآن فغمر درجات «مهبط» القصر القائم قبالة حجرته مباشرة... أقول لقد عرف أنه لن يكون ثمة أي اتصال تلفوني قبل عدة ساعات.

إن الذين لا يزالون في مقتبل العمر ينامون نوماً عميقاً، كذلك قال في ذات نفسه. إنهم أهل لذلك.

ـ «لماذا يتحتم علينا أن نشيخ؟» كذلك سأل النادل الذي كان قد أقبل بعينه الزجاجية وبلائحة الطعام.

ـ «لست أدري، يا زعيمي. أنا أحسب أنها عملية طبيعية.»

ـ «أجل. يخيل إليَّ أني أظن ذلك أيضاً. بضع بيضات مقلوّة منتفخة الوجوه. وشيء من الشاي والخبز المحمَّص.»

ـ «ألا تريد شيئاً أميركياً؟»

ـ «إلى الجحيم بكل ما هو أميركي ما عداي! هل أفاق المايسترو الأعظم من نومه؟»

لقد جاءك بشراب فالبوليشيلاّ في ألفيات كبيرة مطوقة بأغصان مجدولة، تسع كل منها ليترين. ولقد حملت إليك هذه الزجاجة معها.»

ـ «هذه؟» كذلك قال الكولونيل. «لشد ما أتمنى لو أستطيع أن أُقدِّم إليه فرقة عسكرية.»

ـ «لست أحسب أنه راغب، فعلاً، في واحدة.»

فقال الكولونيل: «لا. وأنا أيضاً غير راغب، فعلاً، في واحدة.»

[19]

وتناول الكولونيل فطوره بمثل أناة مصارع تلقّى ضربة قاسية، فهو يسمع لفظة «أربعة» ويعرف كيف يسترخي استرخاء حسناً طوال خمس ثوان أخرى.

وقال: «أيتها اللوحة، يتعيَّن عليك أنت أيضاً أن تسترخي. ذلك هو الشيء الوحيد الذي سيكون عسيراً في أمركِ. ذلك ما يدعونه العامل السكونيّ في فن الرسم. أنت تعرفين أيتها اللوحة أنه يكاد لا يوجد ثمة أية صُوَر، أو على الأصح أية لوحات زيتية، تتحرك بأية حال. إن قلّة منها لتتحرك. ولكن ليس كثرتها الكبيرة.

«إني لأتمنى لو كانت سيدتكِ هنا، ولو كان في ميسورنا أن ننعم بالحركة. كيف تقوى الفتيات اللواتي يشبهنكِ ويشبِهْنَها على معرفة هذه الأشياء كلها وهن في مثل هذه السنّ الغضة، ثم يكنّ فوق ذلك فاتنات إلى هذا الحد؟

«عندنا نحن، إذا كانت فتاة ما فاتنة حقاً تكون من بنات تكساس، ولربما استطاعت، إذا أسعفها الحظ، أن تنبئك في أي شهر نحن، إن في استطاعتهم جميعاً، برغم ذلك، أن يُحسِنَّ العَدّ.»

«إنهم يعلِّمونهنّ كيف يَعْدُدْن وكيف يبقين أرجلهنّ متلاصقاتٍ وكيف يرفعن شعرهن متموّجاً إلى أعلى بواسطة الدبابيس. إن عليكَ في بعض الأحيان، من أجل آثامكَ ـ إن كانت لكَ أية آثام ـ أن تضطجع مع فتاة رفعت شعرها متموِّجاً إلى أعلى بواسطة الدبابيس

لكي تكون جميلة غداً، لا الليلة. إنهن لا يبغين أبداً أن يكنّ الليلة جميلات. فالحق إنهن يفعلن ذلك كله من أجل الغد، حين نُجْري المباراة.

«إن الفتاة، ريناتا، التي أنتِ هي، لنائمة الآن من غير أن تفعل بشعرها أيما شيء البتة. إنها نائمة وقد استرسل شعرها على الوسادة، وكله بالنسبة إليها لا يعدو أن يكون إزعاجاً حريرياً ماجداً داكناً بحيث لا تكاد تتذكر كيف تسرحه لولا أن مربيتها قد علمتها ذلك.

«إني لأراها في الشوارع وهي تخطو رشيقة طويلة الساقين وقد عبثت الريح بشعرها ما شاء لها العبث، وقد نهد ثدياها الحقيقيان تحت الكنزة، ثم أتذكر الليالي في تكساس والفتيات بدبابيسهن المموَّجة للشعر وأجسامهن المشدودة بالأدوات المعدنية والمُخْضَعة لها.»

وقال للوحة الزيتية: لا تصطنعي من أجلي دبابيس لتمويج الشعر، يا حبيبتي.

إن عليَّ أن لا أكون لاذعاً، كذلك قال في ذات نفسه.

ثم إنه قال للوحة، ذلك بأنه فكَّر فيها، الآن، بوصفها نكرة لا معرفة: «إنكِ ذات جمال لعينٍ إلى حد يجعلكِ تُنتنين. ثم إنك طُعم سجن أيضاً. إن ريناتا أكبر منك بسنتين الآن. أنتِ دون السابعة عشرة.»

ولماذا لا أستطيع أن أفوز بها، وأحبها، وأدللها، وأن لا أكون لا لاذعاً ولا شريراً، وأن أنجب الأولاد الخمسة الذين سوف يمضون إلى زوايا العالم الخمس؛ أياً ما كان معنى ذلك! لست أدري. يخيَّل إليَّ أن ورق اللعب الذي نسحبه هو الورق الذي بين أيدينا. أنت لا تحبّ أن تعيد توزيع الورق، أليس كذلك أيها الموزع؟

لا. إنهم يوزعون الورق لك مرة واحدة، وعندئذ تتلقَّف أنت أوراقك وتلعب بها. إن في استطاعتي أن ألعب بها، إذا ما سحبتُ

أيما أوراق مهما تكن، كذلك قال للوحة الزيتية، التي ظلّت جامدة لا تبيِّن عليها أي إمارة من إمارات التأثر.

وقال: «أيتها اللوحة. من الخير لك أن تنظري إلى الناحية الأخرى بحيث لا تكونين غير عُذرية. إني سوف أقف تحت الدشّ الآن وأحلق لحيتي» وهو شيء لن تُضطري أبد الدهر إلى صنعه، وسأرتدي بذلتي العسكرية وأمضي وأطوِّف في هذه المدينة مشياً على القدمين حتى في مثل هذه الساعة المبكرة من النهار.»

وهكذا غادر السرير، مُحابياً رجله المصابة التي كانت تؤلمه دائماً. لقد أطفأ مصباح المطالعة بيده المشوهة. كان ثمة ضوء كافٍ، وكان قد هدر الطاقة الكهربائية طوال ساعة تقريباً.

وندم على ذلك كما ندم على جميع أخطائه. ومشى متخطّياً اللوحة الزيتية غير ناظر إليها إلا في لا مبالاة، ورأى إلى نفسه في المرآة. وكان قد خلع جزأي بيجامته، ونظر إلى نفسه نظرة انتقادية صادقة.

وقال للمرآة: «أيها النغل العجوز المضنى!» كانت اللوحة الزيتية شيئاً من أشياء الماضي. وكانت المرآة واقعاً، ومن بنات هذا اليوم.

إن الأمعاء مسطحة، كذلك قال من غير أن يلفظ الكلمات. والصدر لا غبار عليه، باستثناء ذلك الجزء الذي يشتمل على العضلة المعتلة[1]. إننا نُشنق على الطريقة التي نُشنق بها، على أية حال، أو بأية طريقة رهيبة أخرى.

لقد بلغت من العمر نصف قرن، أيها النغل الزنيم. والآن أدخل الحمام وخذ دُشّاً، وافرك جلدك جيداً وبعد ذلك إلبس سترتك العسكرية. إن هذا اليوم هو يوم آخر.

---

(1) يقصد قلبه الضعيف. (المعرب)

[20]

ووقف الكولونيل عند منضدة الاستقبال في الردهة، ولكن البواب لم يكن قد أقبل بعد. كان ثمة بواب الليل ليس غير.

ـ «هل تستطيع أن تضع لي شيئاً في الصندوق الحديدي؟»

ـ «لا يا زعيمي، إن أحداً لا يستطيع أن يفتح الصندوق الحديديّ ما لم يأتِ المدير المساعد أو البواب على الأقل. ولكني مستعد لأن أصون لك أيما شيء ترغب في صيانته.»

ـ «شكراً. ليس ثمة ما يستحق مثل هذا العناء.» قال هذا ووضع غلافاً من غلافات فندق غريتي كانت أحجار الزمرد في جوفه (وكان الغلاف موجهاً إليه هو) داخل جيب سترته العسكرية الأيسر ثم زرّر الجيب عليه.

وقال بواب الليل: «ليس ههنا، اليوم، أية جرائم حقيقية.»

كان ليله ليلاً طويلاً، ولقد سرَّه أن يتحدث إلى أيما امرئ: «ولم يكن ههنا، في أيما يوم من الأيام، أية جرائم حقيقية، يا زعيمي. ليس ههنا غير خلافات في الرأي والسياسة.»

ـ «وما مذهبك في السياسة؟» كذلك سأله الكولونيل، ذلك بأنه كان يستشعر هو، أيضاً، وحشة وسأماً.

ـ «ما قد تتوقعه تقريباً.»

ـ «فهمت. وما مدى النجاح الذي أحرزه جماعتك؟»

ـ «أعتقد أنهم سائرون في طريق النجاح. ربما ليس بمثل السرعة التي ساروا بها في العام الماضي. ولكنهم يتقدمون بخطىً ثابتة. لقد قُهرنا من قبل، ويتعين علينا أن ننتظر، الآن، فترة ما.»

ـ «وهل تعمل في السياسة؟»

ـ «ليس كثيراً. إنها عندي سياسة قلبي أكثر من سياسة عقلي. أنا أؤمن بها بعقل أيضاً، ولكني درايتي السياسية ضئيلة جداً.»

ـ «حين تتم الدراية السياسية لأمرئ لا يبقى له أيما قلب.»

ـ «ربما كان هذا صحيحاً. ألديكم سياسة في الجيش؟»

فقال الكولونيل: «لدينا كثير. ولكن ليس من ذلك الضرب الذي تعنيه أنت.»

ـ «حسناً، من الخير لنا أن لا نناقشها إذن. أنا لم أقصد أن أكون متطفّلاً.»

ـ «لقد طرحتُ أنا السؤال، السؤال الأصلي على الأصح. وكان ذلك لمجرد التحدث. إنه لم يكن استنطاقاً.»

ـ «لست أحسب أنه كان كذلك. فليس لك، يا زعيمي، وجه مستنطق. وأنا أعرف أشياء عن «المنظمة» برغم أني لست عضواً فيها.»

ـ «قد تكون مادة عضو. سأتابع النظر في هذه المسألة مع المايسترو الأعظم.»

ـ «نحن من بلدة واحدة، ولكن من حيّين مختلفين.»

ـ «إنها بلدة طيبة.»

ـ «يا زعيمي، أنا من ضآلة الدراية السياسية بحيث أحسب جميع الشرفاء شرفاء.»

فقال له الكولونيل مؤكداً: «أوه، سوف تتغلب على هذه

الصعوبة. لا تقلق، أيها الغلام. إن عندكم حزباً فتياً. وطبيعي أن تقترفوا بعض الأخطاء.»

7ـ «أرجوك أن لا تتكلم هكذا.»

ـ «لقد كان مجرد فراغ لاذع يُرسل في ساعات الصباح الأولى.»

ـ «قل لي، يا زعيمي، ما هو رأيك الحقيقي في تيتو؟»

ـ «إن لي آراء كثيرة فيه. ولكنه جاري الأدنى. ولقد وجدت من الخير لي أن لا أتحدث عن جاري.»

ـ «إني أحب أن أتعلم.»

ـ «إذن تعلم ذلك بالطريقة القاسية. ألا تعلم أن الناس لا يجيبون عن أسئلة كهذه؟»

ـ «كنت رجوتُ أن يفعلوا.»

فقال الكولونيل: «إنهم لا يفعلون. وبخاصة إذا كانوا في مثل مركزي. كل ما أستطيع أن أقوله لك هو أن مستر تيتو يواجه مشكلات كثيرة.»

ـ «حسناً، أنا أعرف ذلك الآن أحسن معرفة،» كذلك قال حاجب الليل الذي كان في الواقع مجرد غلام.

فقال الكولونيل: «أرجو ذلك. أنا لا أزعم أن هذه المعرفة درَّة مكنونة. والآن، طاب يومك، إذ يتعين عليَّ أن أتمشى قليلاً لمصلحة كبدي أو شيء آخر.»

ـ «طاب يومك، يا زعيمي» Fa brutto tempo

فقال الكولونيل: «Bruttissimo» وشدّ حزام مِمطره شداً محكماً، مسوِّياً إياه حول المنكبين منزلاً أطرافه إلى أدنى، وغادر الفندق مندفعاً نحو الريح.

[21]

ركب الكولونيل متن غندول العشرة سنتيمات عبر القنال، دافعاً الورقة النقدية القذرة المعتادة، واقفاً وسط حشدٍ من أولئك الذين حكم عليهم الدهر بأن يفيقوا من نومهم باكراً.

والتفت إلى «الغريتي» فرأى نوافذ حجرته؛ كانت لا تزال مفتوحة. لم يكن ثمة أيما وعدٍ بهطول المطر، أو وعيدٍ به؛ لا، كان ثمة نفس الريح الباردة، القوية، العاتية ليس غير؛ الريح الهابّة من ناحية الجبال. وبدا كل من على متن الغندول مقروراً وقال الكولونيل في ذات نفسه: لشدّ ما أتمنى لو أستطيع أن أوزعّ هذه السترات الواقية من الريح على ممتطي الغندول جميعاً. يا إلهي، فكل ضابط قُدِّر له أن يرتدي واحدة منها يعرف أنها لا تحول دون تسرُّب الماء ويعرف مَن الذي جنى الثروة الطائلة من وراء ذلك.

إنك لا تستطيع أن تمنع تسرّب الماء من خلال سترة من سترات «بوربيري». ولكني أحسب أن لأحد الرجال الحقيرين البارعين غلامه، الآن، في «غروتون»، أو ربما في «كانتربوري» حيث يذهب غلمان المقاولين الكبار بسبب من أن ستراتنا تَرْشح.

وماذا حلّ بزميلي الضابط الذي اختصم معه؟ إني لأتساءل من كان «بيني مايرز» قوات البرّ؟ ولعله لم يكن ثمة شخص واحد ليس غير. وأغلب الظن، كذلك قال في ذات نفسه، أنه كان ثمة كثير من

هؤلاء بلا ريب. إن تحدّثك على هذا النحو، وبكل بساطة، ليفيد أنك لم تفق من رقادك بعد. فهي تقي، برغم ذلك، من الريح. المماطر[1] أعني. المماطر يا حماري.

واندفع الغندول بين الدعامتين القائمتين عند الضفة القصوى من القناة، وراقب الكولونيل القوم المتشحين بالسواد يغادرون العربة المطلية باللون الأسود. أهي عربة حقاً؟ كذلك قال في ذات نفسه. أم أن العربة لا بدَّ لها من عجلات ومن أن تُجَرّ على خط حديدي؟

إن أيما امرئ لن يشتري أفكارك هذه ببنس واحد، كذلك قال محدّثاً نفسه. ليس في هذا الصباح. ولكني رأيتها من قبلُ تساوي مقداراً ما من المال عندما شحّت «فيشات» اللعب.

ونفذا إلى الجانب الأقصى من المدينة، الجانب الذي واجَهَ، آخر الأمر، شاطئ البحر الآدرياتي، والذي كان هو يُؤثره بالحب. وكان يسير في أحد الأزقة الضيقة، ويعتزم أن لا يتتبَّع أرقام الشوارع الشمالية والجنوبية، إذا جاز التعبير، التي اجتازها وأن لا يحصي الجسور ثم يحاول أن يوجِّه نفسه بحيث ينتهي إلى السوق من غير أن يجد نفسه في بعض الطرق غير النافذة.

كانت لعبة تلعبها، كما تعوَّد بعض الناس أن يلعبوا «الكانفيلد»[2] المزدوج أو أياً من ألعاب الورق التوحّدية. ولكنها تتميَّز بتحركك وأنت تقوم بها. وبأنك تنظر خلالها إلى البيوت، وإلى الشوارع التي تكتنفها الأشجار من جانبيها، وإلى الدكاكين، وإلى المطاعم Trattorias وإلى قصور «البندقية» العتيقة فيما أنت تمشي. وإذا كنت تحب مدينة البندقية فليس من ريب في أنها لعبة ممتازة.

إنها ضرب من «التجوّل المتوحّد»، وما تكسبه منه هو ابتهاج

---

(1) جمع ممطر، وهو المعطف الواقي من المطر.

(2) لعبة ورق يلعبها لاعب واحد. (المعرب)

عينك وفؤادك. فإذا ما انتهيت إلى السوق، على هذا الجانب من المدينة، من غير أن تجد نفسك في وضعٍ حرج فعندئذ تكون قد كسبت الجولة. ولكن عليك أن لا تجعلها سهلة أكثر مما ينبغي، وأن لا تَعُدَّ البتة.

وعلى الجانب الآخر من المدينة كانت اللعبة تقتضيه أن يبدأ التجول من فندق غريتي وأن يصل إلى «الريالتو» من طريق «الفوندامانت نووف» Fondamente Nuove من غير أن ترتكب أيّ خطأ.

وعندئذ كان في استطاعتك أن تتسلق الجسر، وأن تعبره، وتهبط إلى السوق. لقد أحب السوق أكثر من أي شيء آخر. كان هو أول مكان يقصده كلما زار مدينة من المدن.

وفي تلك اللحظة بالذات سمع الشابين خلفه يتحدثان عنه. لقد عرف، من صوتهما، أنهما كانا شابين، ولم يلتفت إلى الوراء، ولكنه أصغى في انتباه بسبب من المسافة الفاصلة، وانتظر ريثما يبلغ المنعطف المثالي لكي يراهما في ما هو ينعطف حوله.

إنهما ماضيان في عملهما، كذلك قرر في ذات نفسه. لعلهما فاشيستيان سابقان، أو ربما كانا شيئاً آخر، ومن يدري فلعلهما لا يتكلمان إلا عن قوة الجيش الضاربة. ولكنهما ينقلان حديثهما الآن من العموم إلى الخصوص. إنه لم يعد يدور على الأميركيين فحسب، وإنما أخذ يتناولني أنا أيضاً، أنا نفسي: شعري الأشيب، ومشيتي الظالعة بعض الشيء، والحذاء العسكري العالي العنق. (إن هذا الضرب من الناس يكره الصفة العملية التي تتميَّز بها الأحذية العسكرية ذات الأعناق العالية. إنهم يؤثرون الأحذية التي ترنّ على بلاط الشارع والتي تلمّع بصِقال أسود متوهج.)

أن نقدهما لينصبّ على بذلتي العسكرية زاعمَيْن أنها خلوٌ من الكياسة. وها هما يعبّران بعد ذلك عن اطمئنانهما المطلق إلى

سلامتهما لأني تجاوزت السن التي ينزع فيها المرء إلى الأخذ بأسباب الغزل والحب.

وانعطف الكولونيل انعطافاً حاداً عند الزاوية التالية، مدركاً ما الذي كان ينتظره والمسافة التي كانت تفصله عنهما على وجه الضبط. وحين انعطف الشابان حول الزاوية التي شكَّلها «قبا»[1] apse كنيسة الـ «فراري» Frari كان الكولونيل قد توارى عن البصر. كان قد انتهى إلى الزاوية غير النافذة، خلف «قبا» الكنيسة العتيقة؛ وفيما هما يجتازانه سمعهما يقبلان، من صوتهما، فأسرع في مشيه واضعاً كلتا يديه في جيبي مِمْطرِهِ الخفيضين واستدار هو والممطر نحوهما، ويداه الاثنتان في الجيبين.

ووقفا، فنظر إليهما كليهما في الوجه، وابتسم ابتسامته الحِدادية العتيقة البالية. ثم إنه خفض بصره إلى أقدامهما، كما تنظر دائماً إلى أقدام أمثالهما من الناس، إذ إنهم ينتعلون أحذية شديدة الضيق، فإذا ما خلعتَ أحذيتهم تلك رأيت أصابعهم المشوهة بحكم الالتواء الزاويّ. وبصق الكولونيل على الرصيف، ولم يقل شيئاً.

ونظر كلاهما إليه، فقد كان كما ظنَّهما منذ اللحظة الأولى، في حقد وفي ذلك الشيء الآخر. ثم إنهما انطلقا مثل «دجاجات الوادي»، ماشيَيْن بمثل خطى «مالك الحزين» الواسعة أيضاً، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه، وبشيء من طيران الكروان، وملتفتين إلى الوراء في كراهية، منتظرين أن يطلقا الكلمة الأخيرة إذا ما كانت المسافة مواتية.

من المؤسف أنهما لم يكونا عشرة ضد واحد، كذلك فكَّر الكولونيل. ولقد كان من الجائز عندئذ أن يعمدوا إلى القتال. إن عليَّ أن لا ألومهما، ذلك أن جماعتهما قد هزمت في الحرب.

---

(1) الموضع المدور أو المتعدد الجنبات عند الطرف الشرقي من كنيسة. (المعرب)

ولكن مسلكهما لم يكن صالحاً البتة بالنسبة إلى رجل في رتبتي وسني. وإلى هذا فلم يكن من الذكاء أن يظنّا أن جميع الكولونيلات البالغين من العمر خمسين عاماً لا يفهمون لغتهما. لا، ولم يكن من الذكاء أن يظنا أن الجنود القدامى في سلاح المشاة لن يقاتلوا في مثل هذه الساعة من الصباح بهذه النسبة البسيطة، نسبة اثنين ضد واحد.

إني لأكره أن أقاتل في هذه المدينة التي أحب أهلها. وخليق بي أن أتفادى ذلك. ولكن ألم يكن في ميسور هذين الشابين الرديئي الثقافة أن يدركا بأي ضرب من الحيوان كانا يحتكان؟

ألا يعرفان كيف يتعيَّن على المرء أن يمشي في تلك الطريق؟ ألا يعلمان فوق ذلك، أياً من تلك الإمارات الأخرى التي يتكشَّف عنها المقاتلون تكشّفاً لا لُبْس فيه كما تنبئك يدا صياد السمك أنه صياد سمك من الأخاديد الناشئة عن الجراح التي يُحدثها الخيط فيهما؟

صحيح أنهما لم يريا غير ظهري ورجليّ وحذائي. ولكنك قد تعتقد أنهما ربما حزرا من الطريقة التي يتعيَّن على المقاتلين أن يصطنعوها في المشي. ومن يدري، فلعل المقاتلين ما عادوا يصطنعون تلك الطريقة. لا، لقد حزرا ذلك عندما أتيح لي أن ألتفت إليهما وأفكر. إقتلِعْ الرجلين كليهما واشنقهما، فأنا أعتقد أنهما فهما. لقد فهما في وضوح بالغ.

كم تساوي حياة المرء على أية حال؟ عشرة آلاف دولار إذا كنت قيمة تأمينه مدفوعة كلها في جيشنا ولكن، يا للجحيم، أية علاقة لهذا بما أنا فيه؟ أوه، نعم، لقد كان ذلك هو الموضوع الذي استغرقت في التفكير فيه قبل أن يبرز الغِرّان الحقيران. ما أضخم الأموال التي وفرتها على حكومتي، في زماني حين كان رجال من مثل بيني مايرز في المذود.

أجل، كذلك قال، وكم كسَّرتها في الـ «شاتو»، في ذلك العهد، بمعدل عشرة جنيهات لكل جندي. حسناً، إن أحداً لم يفهم ذلك البتة

فهماً حقيقياً باستثنائي أنا، في ما أحسب، وليس ثمة ما يدعو إلى إنبائهم بذلك الآن. فقائدك العام يدوّن الأشياء، في بعض الأحيان، بوصفها «ثروات حرب». وهناك في الجيش يعرفون أن أمثال هذه الأشياء لا بدَّ أن تحدث. أنت تؤديها، وفقاً للأوامر، وبفاتورة جزّار ضخمة، فيعتبرك القوم بطلاً.

يا للمسيح! إني لأكره فاتورة الجزار الضخمة، كذلك قال في ذات نفسه. ولكنك تتلقى الأوامر، وعليك أن تضعها موضع التنفيذ. إنها الأخطاء التي لا فائدة من الاضطجاع معها. ولكن ما الحكمة، بحق الجحيم، من الاضطجاع معها بأية حال؟ إن ذلك لم يعد على أحد، في أيما يوم، بفائدة. ولكن في استطاعتها من غير ريب أن تدب إلى كيس من الأكياس أحياناً. إن في استطاعتها أن تدب وتبقى هناك معك.

طب نفساً، أيها الغلام! كذلك قال الكولونيل مخاطباً ذاته. تذكر أنك كنت تملك مالاً كثيراً عندما تصديت للقتال في تلك المعركة ولقد كان من الجائز أن تجرَّد من كل شيء لو خسرتها، إنك لم تعد قادراً البتة على القتال بيديك هاتين، ولم يبق لديك أي سلاح.

إذن اطرِحْ هذه الكآبة، أيها الغلام، أو أيها الرجل، أو أيها الكولونيل، أو أيها الجنرال المفلس. لقد كدنا أن نصل إلى السوق؛ الآن، ولقد بلغْتَها من غير أن تنتبه إلى ذلك تقريباً.

ثم أضاف: إن عدم الانتباه تقريباً شيء رديء.

[22]

لقد أحب السوق. كان جزءٌ كبير منها مكتظاً متشعّباً إلى عدة شوارع جانبيّة حاشدة، وكانت مزدحمة إلى درجة من العسير عليك معها أن لا تدفع الناس بالمنكبين، في غير تعمّد. وكلما توقفتَ لترى، أو تشتري، أو تُعجب، شكّلتَ «جُزَيرة مقاومة[1]» ilot de resistance ضدّ تدفق سيل المشترين الصباحي.

وأحب الكولونيل أن يتأمل ضروب المربيات والجبن المركوم عالياً والنقانق الكبيرة. إن الناس في أرض الوطن يحسبون «المورتاديلاّ» مقانقة. كذلك قال في ذات نفسه.

ثم إنه قال للمرأة التي في الكشك: «دعيني أذوق من ذلك النقانق، إذا سمحتِ. شريحة صغيرة ليس غير.»

فقطعت له شريحة رقيقة، رقيقة كالورق، في شراسة ومودّة. وحين ذاقها الكولونيل وجد فيها نكهة اللحم الحقيقية نصف الداخنة المتبّلة بالفلفل الأسود... نكهة لحم الخنازير التي تغذّت بثمار البلوط الجبال.

ـ «سوف آخذ ربع كيلو.»

كانت موائد الغداء التي يمدّها البارون تحت سقائف القنص ذات

---

(1) جزيرة صغيرة.

طابع أسبارطي[1]، وهو طابع احترمه الكولونيل، إذ كان يعلم أنه ليس ينبغي لأحد أن يُسرف في الطعام أثناء الصيد. ولكنه استشعر، برغم ذلك، أن من الخير له أن يعزّز الغذاء بهذه الكمية من النقانقة، وأن يتقاسمها مع السواريّ ومتلقّف الطرائد. وقد يقدم شريحة إلى «بوبي»، كلب القنص، الذي سوف يرتدّ إلى مخبأه مبللاً، مرات عديدة، مفعماً ـ ما يزال ـ بالحماسة ولكنه مرتعدٌ من شدة البرد.

ـ «أهذا أفضل ما عندك من النقانق؟» كذلك سأل المرأة. «أليس لديك أيما صنف غير معروض. . . أيما صنف محفوظ للزبائن الأفضل والأشد ثباتاً؟»

ـ «هذه هي النقانق الفضلى. إن ثمة ضروباً كثيرة منها. ولكن هذه هي الفضلى.»

ـ «إذن أعطيني ثُمن كيلو من نقانق مغذية جداً ولكنها غير مُتَبَّلة بكثير من الفلفل.»

فقالت: «عندي من ذلك الصنف. إنه حديث العهد بعض الشيء، ولكنه كما وصفت تماماً.»

وكانت هذه النقانق من أجل «بوبي».

ولكنك لا تعلن أنك تشتري ذلك من أجل كلب، في إيطالية، حيث الجريمة العظمى هي أن تُعتبر مخبولاً وحيث يذوق كثير من الناس طعم الجوع. إن في ميسورك أن تُقدم نقانقة غالية إلى كلب أمام رجل يكدح كسباً للقوت ويعرف ما يُقاسيه الكلب في الماء حين يكون الجو بارداً. ولكنك لا تشتريها، وأنت تعلن عن غرضك من امتلاكها، إلا إذا كنت مخبولاً، أو صاحب ملايين ربحتها من الحرب أو مما بعدها.

(1) نسبة إلى أسبارطة، والمراد أنها تتسم بسمة البساطة والتقتير. (المعرب)

دفع الكولونيل ثمن الرزمة المغلفة، وواصل سيره في السوق مستنشقاً عبق البنّ المحمص، ناظراً إلى مقدار الدهن الذي على كل ذبيحة من الذبائح في القسم الخاص بالجزارين، وكأنه يستمتع بآثار الرسامين الهولنديين، الذين لا يتذكر أسماءهم أحد، والذين رسموا في تفصيل يتّسم بالكمال، جميع الأشياء التي تَصِيدُها أو جميع الأشياء القابلة للأكل.

إن السوق، أيَّ سوق، هي أقرب الأشياء إلى متحف جيد كالـ «برادو» Prado أو كالأكاديمية Accademia الآن، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه.

وسلك طريقاً مختصرة فألفى نفسه في سوق السمك.

وفي السوق كان «جراد البحر» الضخم الرمادي الضارب إلى الخضرة، بلونه الإضافي الأرجواني المحمَرّ الذي يؤذن بموته في الماء الغالي... كان «جراد البحر» هذا منشوراً على أرضية الشارع الحجرية الزَّلِقة أو ممدَّداً في سلالِهِ. لقد اصطيدت كلها بالخديعة والغدر، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه، وضُربت براثنها حتى الموت.

وكان ثمة «سمك موسى» الصغير، وكان ثمة أيضاً قليل من سمك «البَكورة»[1] و«البينيث»[2]. وهذا الضرب الأخير، كذلك فكَّر الكولونيل، يبدو أشبه برصاصات زَرْقية الأذناب، وهو جليلٌ في موته ذو عين هائلة كعيون السمك الأوقيانوسي.

إنها لم تُجعل لكي تُصطاد إلا بسبب شَرَهِها. إن سمك موسى المسكين ليوجَدُ في المياه الضحلة لكي يغذي الإنسان. ولكن هذه الرصاصات الهائمة على وجهها، زرافات زرافات، تحيا في المياه

(1) البكورة، albicore، سمكة بحرية من فصيلة السقمري. (المعرب)

(2) البينيث، benito سمك استوائي من فصيلة التونة. (المعرب)

الزرقاء، وترتحل مجتازة الأوقيانوسات كلها، والبحار كلها.

إن أفكارك هذه لتستحق مكافأة مقدارها خمسة سنتات، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه. دعنا نرى ما عندهم أيضاً.

كان ثمة كثير من الإنكليس، الحيّ، الفاقد ثقته بأنكليسيَّته. وكان ثمة براغيث بحر «ڤريدس» رائعة تستطيع أن تؤلف «سكامبي بروشيتو» Scampi brochetto مشكوكةً ومشويَّة في أداة شبيهة بسيف مستدقٍّ الطرف، ذي حدَّين، يمكن أن تستعمل «معولاً» برولكينياً لتحطيم الثلج. وكان ثمة سمك أرْبيان متوسط الحجم، رماديّ متلألئ، ينتظر دوره أيضاً في الماء الغالي وفي الخلود لكي تتمكن أغلِفَتُها المقشورة من العوم في سهولة ويسر عند انحسار الماء بعد المدّ في القناة العظمى.

إن سمكة الأربيان السريعة، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه، «بملامسها»[1] التي تفوق شارَبَي ذلك الأميرال الياباني العجوز طولاً، لتجيء إلى هنا الآن كي تموت لمصلحتنا. أوه، أيها الأربيان المسيحي، كذلك قال الكولونيل، يا أمير التراجع، بدائرة استخباراتك الكامنة في هذين السوطَيْن الخفيفين، لماذا لم يلقّنوك شيئاً عن الأشراك وعن أن الأضواء خِطرة؟

لا ريب في أن هفوةً ما قد ارتُكبت، كذلك فكَّر الكولونيل.

وراح الآن ينظر إلى القِشْريات الصغيرة الكثيرة، وسمك بطلينوس ذي الحدّ الشبيه بحد الموسى، والذي يتعيَّن عليك أن لا تأكله إلا نيئاً إذا كنت ملقحاً ضد التيفوئيد منذ قريب، وسائر الأشياء الصغيرة الشهية الأخرى.

وأجال طرْفه في هذا كله، متوقفاً ليسأل أحد الباعة من أين

---

(1) الملامس، ومفردها ملمس، هي الشعيرات التي تتلمس بها بعض الحشرات والأسماك طريقها. (المعرب)

اصْطِيد سمك بطلينوس الذي يعرضه للبيع. فأجابه إنه اصطيد من موطن طيّب بعيد عن البواليع والمجارير، فسأله الكولونيل أن يشقّ له ستّاً من تلك الأسماك. لقد شرب العصير، وأخرج السمكات من أغلِفتها شاقاً القشور بالمدية المعقوفة التي قدَّمها الرجل إليه. وكان الرجل قد قدَّم المدية إليه لأنه عرف، بالتجربة، أن الكولونيل يذهب في شق قشور السمك إلى أبعد مما عُلِّم هو أن يشقّها.

ودفع إليه الكولونيل القروش المعدودة التي كانت ثمناً لها، والتي كانت من غير ريب أكثر بكثير من القروش المعدودة التي نالها أولئك الذين اصطادوها. وقال الكولونيل في ذات نفسه: يتعيَّن عليَّ الآن أن أرى سمكات النهر والقناة، وأن انقلب راجعاً إلى الفندق.

[23]

ووصل الكولونيل إلى ردهة فندق «غريتي بالاس». كان قد دفع إلى غناديليَّيْ أجرهما، وصَرَفهما. ولم يكن ثمة الآن، داخل جدران الفندق، ريحٌ ما.

كان الإتيان بالغندول من السوق إلى القناة العظمى قد احتاج إلى جهود رجلين اثنين. وكان كلاهما قد بذلا جهداً شاقاً، ولقد دفع إليهما ما استحقّه ذلك الجهد، وأكثر بعض الشيء.

وسأل البواب الذي كان الآن منصرفاً إلى أداء مهامّه: «هل اتصل بي أحدٌ بالتلفون؟»

كان بواب الفندق نشيطاً، خفيف الحركة، صارم الوجه، ذكياً، لطيفاً ـ دائماً ـ في غير ذِلّة. وكان يحمل مفاتيح مكتبه المتصالبة على طيّة صدر سترته الرسمية الزرقاء في غير تباهٍ. لقد كان هو البواب. وإنها لمرتبة شبيهة جداً بمرتبة الكابتن، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه. إنه ضابط، لا «جنتلمان». اجعله رقيباً (سرجان) أول في الأيام الغابرة. مع فارق واحد، هو أنه يُعنى بالنحاس الأصفر.

ـ «لقد تلفنت سيدتي مرتين،» قال بواب الفندق بالإنكليزية. أيما اسم يجب أن نطلقه على تلك اللغة التي نتكلمها كلنا، كذلك فكَّر الكولونيل. أبْقِ لها نعت «الإنكليزية». ذلك كل ما تركوا لنا من حرية، تقريباً. ويجب أن يجاز لهم الاحتفاظ باسم اللغة. ومن

يدري، فلعل كريبس[1] يقنّن ذلك عما قريب.

قال لبواب الفندق: «أرجوك أن تَصِلني بها في الحال.»

وشرع البواب يدير قرص التلفون.

ثمّ قال: «في استطاعتك أن تتكلم من هناك. لقد أمَّنت لك الاتصال بها.»

ـ «إنك لسريع.»

ـ «من هناك،» كذلك قال بواب الفندق.

وفي داخل الكشك، رفع الكولونيل السماعة، وقال على نحو أوتوماتيكي: «الكولونيل كانتويل يتكلم.»

فقالت الفتاة: «لقد تلفنت مرتين، يا ريتشارد، ولكنهم أوضحوا لي أنك غادرت الفندق. أين كنت؟»

ـ «في السوق. كيف أنت يا حلوتي؟»

ـ «لا أحد يسمع على هذا التلفون في هذه الساعة. أنا حلوتك. أياً مَنْ كانت هذه.»

ـ «وأنتِ. هل نمت نوماً عميقاً؟»

ـ «كان ذلك أشبه بالتزلج في الظلام. ليس تزلجاً حقيقياً، ولكنه ظلام حقيقي.»

ـ «هكذا يجب أن يكون. لماذا أفقتِ باكراً إلى هذا الحد؟ لقد روّعتِ بواب فندقي.»

ـ «أحب أن أسألك، إذا كان سؤالي هذا ليس من النوع الذي لا يليق بعذراء، متى نستطيع أن نلتقي، وأين؟»

ـ «حيث تشائين ومتى نشاء.»

---

(1) يقصد السير ستافورد كريبس الوزير البريطاني 1889 ـ 1952. (المعرب)

ـ «ألا تزال أحجار المزمرد في جيبك، وهل أسعفتك «الآنسةُ اللوحةُ» بشيء ما؟»

ـ «نعم في ما يتصل بالسؤالين معاً، فالأحجار مزرَّرٌ عليها في جيبي الأيسر الأعلى. ولقد تجاذبت أطراف الحديث مع «الآنسة اللوحة» في ساعة مبكرة من الصباح، ولقد جعلتِ كل شيء أهوَنَ عليَّ وأيسر بكثير.»

ـ «هل تحبّها أكثر مني؟»

ـ «لم أصبح امرءاً شاذاً بعدُ. ربما كان هذا تفاخراً. ولكنها حلوة. هل تؤثرين أن نتناول طعام الصباح في الـ «فلوريان» على الجانب الأيمن من الساحة؟ لا ريب في أن الساحة سوف تكون مغمورة بالماء، ولسوف يكون النظر إليها شيئاً ماتعاً.»

ـ «سأكون هناك في مدى عشرين دقيقة إذا أردتني أن أذهب.»

ـ «أنا أريدك أن تذهبي،» كذلك قال الكولونيل، وأقفل الخط.

وإذ غادر كشك التلفون استشعر اعتلالاً صحياً مفاجئاً، ثم أحس وكأن الشيطان قد احتجزه في قفص حديدي، مصنوع على شكل رئة حديدية أو عذراء حديدية. ومشى، رماديَّ الوجه، إلى منضدة البواب وقال، بالإيطالية: «دومينيكو، أيلو، هل تستطيع أن تأتيني بكأس ماء من فضلك؟»

فمضى البواب ليأتيه بالكأس، وانحنى هو على الطاولة التماساً للراحة. لقد استراح في لا مبالاة، ومن غير توهم. ثم إن البواب رجع حاملاً كأس الماء، فتناول الكولونيل أربعة أقراص من ذلك النوع الذي يأخذ الناس منه قرصين اثنين، وواصل استراحته بمثل لامبالاة الصقر حين يستريح.

وقال: «دومينيكو».

ـ «نعم.»

ـ «إن لديّ ههنا شيئاً في ظرف تستطيع أن تضعه في الصندوق الحديدي. وفي إمكانك أن تسلمه إليَّ إذا طلبتُهُ بشخصي، أو من طريق الكتابة، أو إلى الشخص الذي وَصَلتَني به تلفونياً منذ لحظات. هل تريد أن يُشفع ذلك بطلب خطي أيضاً؟»

ـ «لا. هذا غير ضروري.»

ـ «وأنت أيها الغلام؟ أنت حيٌّ لا يموت، أليس كذلك؟»

فقال له البواب: «هذا صحيح إلى حد بعيد. ولكني سوف أسجّل رغبتك كتابياً، ومن بعدي يجيء المدير، والمدير المساعد.»

ـ «ألا تريد أن تجلس يا زعيمي؟»

ـ «لا، ومن الذي يجلس غير الرجال والنساء في فنادق سن اليأس؟ هل تجلس أنت؟»

ـ «لا.»

ـ «في ميسوري أن أستريح على قدميّ، أو وأنا ومستندٌ إلى شجرة لعِينةٍ. إن مواطنيَّ يجلسون، أو يضطجعون، أو يسقطون على الأرض. أعطِهم شيئاً من بسكويت الطاقة لوضع حد لنشيجهم.»

كان يسرف في الكلام ليستعيد ثقته بنفسه في سرعة.

ـ «وهل لديهم بسكويت طاقةٍ فعلاً؟»

ـ «من غير ريب. إن له لميزة تحول بينك وبين الغضب والاهتياج. إنه أشبه بالقنبلة الذرية، إلا أنه يفجر على نحوٍ ارتجاعي.»

ـ «أنا لا أستطيع أن أصدِّق هذا.»

ـ «إن لدينا أفظع الأسرار العسكرية التي أفضت بها في أيما يوم من الأيام زوجة جنرال إلى زوجة جنرال. ومفرقعات الطاقة هي أقلها شأناً. وفي المرة القادمة سوف نُمطر «البندقية» كلها بالتسمم النقانقي من ارتفاع مقداره 56,000 قدم. وليس في هذا أية غرابة،» كذلك

أوضح الكولونيل. «إنهم يعطونك داء الجمرة الخبيثة وأنت تعطيهم التسمم النقانقي.»

ـ «ولكن هذا سوف يكون رهيباً.»

فقال له الكولونيل مؤكِّداً: إنه سوف يكون أسوأ من ذلك. هذا ليس بسرّ يُخشى أن يتناهى إلى العدو. فقد نشر ذلك كله على الملأ. وفيما هو آخذٌ سبيله، تستطيع أن تسمع مارغاريت، إذا أحسنت إدارة إبرة الراديو، تتغنى بأغنية «عَلَمَ الولايات المتحدة الأميركية الوطني». وأحسب أن في الإمكان تسوية ذلك. أما الصوت فلست أميل إلى القول إنه عظيم. ليس كما نعرف الأصوات، نحن الذين سمعنا الأصوات الرخيمة في أيامنا. ولكن كل شيء زائف، الآن، وفي استطاعة الراديو أن يصنع الصوت، تقريباً. و«عَلَم الولايات المتحدة الأميركية الوطنية» معصوم حتى من جهالة الجهلاء.»

ـ «هل تظن أنهم يمطروننا بشيء هنا؟»

ـ «لا، إنهم لم يفعلوا ذلك في أيما يوم مضى.»

فقال الكولونيل (الذي عاد الآن جنرالاً ذا أربعة نجوم، بسبب من غيظه وألمه المبرّح وحاجته إلى الثقة بالنفس، ولكنه كان مطمئناً مؤقتاً من طريق امتصاص الأقراص): «إلى اللقاء Ciao يا دومينيكو.»

وغادر فندق غريتي.

تصوَّر أنه في حاجة إلى اثنتي عشرة دقيقة ونصف دقيقة لبلوغ المكان الذي ربما بلغته حبيبته الحقيقية متأخرةً بعض الشيء. وأنشأ يطوي المسافة في احتراس، وبالسرعة التي يتعيَّن عليه السّير بها في المشي. كانت الجسور كلها كعهدها من قبل.

[24]

استوت حبيبته الحقيقية إلى المائدة في الموعد الذي قالت إنها سوف تصل فيه إلى مكان اللقاء. كانت فاتنة كشأنها دائماً في ضياء الصباح القارس المتدفق عبر الساحة الغاصة بالناس، وقالت: «أرجوك، يا ريتشارد؟ هل أنت بخير؟ أرجوك؟»

فقال الكولونيل: «من غير ريب أيتها الفتنة الرائعة.»

ـ «هل ذهبت إلى كل أماكننا في السوق؟»

ـ «إلى قليل منها ليس غير. أنا لم أذهب إلى حيث يبيعون البط البري.»

ـ «شكراً لك.»

ـ «فقال الكولونيل: «على لا شيء. أنا لا أذهب إلى هناك البتة حين لا نكون معاً.»

ـ «ألا تعتقد إن عليَّ أن أمضي معك للصيد؟»

ـ «لا. أنا على يقين من ذلك. ولو قد كان آلفاريتو يريدك أن تكوني معنا لدعاك لمرافقتنا.»

ـ «لعله لم يدْعُني لأنه يريدني أن أكون معكم.»

ـ «هذا صحيح.» كذلك قال الكولونيل، وتفكَّر في ذلك طوال ثانيتين. ممَّ ترغبين أن يتألف فطورنا هذا الصباح؟»

ـ «الفطور تافهٌ هنا، وأنا لا أحب الساحة حين تكون مغمورة

بالماء. إنها كئيبة والحمائم لا تجد موطئ قدم تحطّ فيه. وهي لا تكون ماتعة إلا حين يسرح الأطفال ويلعبون. ما رأيك في الذهاب وتناول الفطور في الغريتي؟»

ـ «أراغبة أنت في ذلك؟»

ـ «نعم.»

ـ «حسن. سوف نتناول الفطور هناك. لقد تناولت أنا فطوري قبلك.»

ـ «فعلاً؟»

ـ «سوف آخذ بعض القهوة والأرغفة الساخنة، ولسوف ألمسها بأصابعي ليس غير. هل أنت جائعة جداً؟»

ـ «فقالت صادقةً: «جداً.»

فقال الكولونيل: «سوف نعنى بفطور الصباح عناية كاملة. ولسوف تتمنين لو أنك لم تسمعي بفطور الصباح البتة.»

وفيما هما يمشيان، والريح من ورائهما، وشعرها يخفق خيراً مما تخفق أية راية، سألته وهي تضغط على يده في إحكام: «ألا تزال تحبني في ضياء «البندقية» الصباحيّ البارد القاسي؟ الجو بارد وقاسٍ فعلاً، أليس كذلك؟»

ـ «أنا أحبكِ، والحب باردٌ وقاسٍ.»

ـ «لقد أحببتك طوال الليل حين كنت أتزلج في الظلام.»

ـ «كيف تفعلين ذلك؟»

ـ «إنها الجولات نفسُها مع فارق واحد هو أن الدنيا مظلمة والثلج داكن بدلاً من أن يكون مشرقاً. والمرء يتزلج في هذه الحال كشأنه في العادة؛ رابطَ الجأش بارعاً.»

ـ «هل تزلجتِ طوال الليل؟ لا بدَّ أن يكون ذلك قد اشتمل على جولات كثيرة.»

ـ «لا. وبعد ذلك نمت نوماً عميقاً، وأفقت سعيدة. كنت أنت معي، وكنت مستغرقاً في النوم مثل طفل.»

ـ «أنا لم أكن معك، ولم أكن مستغرقاً في النوم.»

فقالت وهي تضغط على يده في قوة: «أنتَ معي الآن.»

ـ «ونكاد أن نكون هناك.»

ـ «نعم.»

ـ «هل قلتُ لكِ، على النحو الصحيح، إنني أحبك؟»

ـ «لقد قلتَ ذلك لي. ولكنْ قلْهُ لي مرّة أخرى.»

فقال: «أنا أحبكِ. خذيها صريحةً ورسمية، أرجوكِ.»

ـ «إني لآخذها على أية صورة تشاء ما دامت صادقة.»

فقال: «هذا هو الموقف الصحيح. أيتها الفتاة الحلوة الشجاعة الطيبة. أديري شعرك على نحو جانبيّ مرة واحدة عند أعلى هذا الجسر ودعيه يتهادىَ مع الريح منحرفاً.»

وكان قد تساهل فقال obliquely بدلاً من أن يقول، وهو الصواب، obbique.»

وقالت: «هذا هيّن ميسور. هل تحبّه؟»

ونظر فرأى صورتها الجانبية، ولونها الصباحي العجيب، وصدرها ناهداً، في الكنزة السوداء، وعينيها في الريح، وقال: أجل، أنا أحبه.»

فقالت: «إني لسعيدة جداً.»

[25]

وفي «الغريتي» أجلسها المايسترو الأعظم إلى المائدة القائمة في محاذاة النافذة التي تطل على القناة العظمى. ولم يكن ثمة شخص آخر في حجرة الطعام.

كان المايسترو الأعظم مبتهجاً ونشيطاً مع الصباح. لقد تقبّل قرحتَه المِعدِية يوماً بعد يوم، وتقَبَّلَ قلبه العليل بالطريقة نفسها. فحين كانت قرحته وقلبه رائقَيْن كان هو رائقاً أيضاً.

وأسرّ إلى الكولونيل: «إن مواطنك المجدرر يأكل في الفراش في فندقه؛ هكذا أخبرني زميلي. قد نستقبل بعض البلجيكيين عما قريب. «وكان أشجع هؤلاء هم البلجيكيين» كذلك استشهد بالقول المأثور. «إن ثمة اثنين من المتهالكين على الربح المحرّم وَفَدا من مكان لا يعلمه أحد. ولكنهما مرهقان أعظم إرهاق، وأحسب أنهما سوف يأكلان، كالخنازير، في حجرتهما.»

فقال الكولونيل: «تقرير ممتاز عن الوضع. مشكلتنا، أيها المايسترو الأعظم، هي أنني أكلت في حجرتي كما يفعل الرجل المجدور وكما سوف يفعل أثرياء على المال الحرام. ولكن هذه السيدة.»

ـ «الفتاة الصغيرة،» كذلك قاطعه المايسترو الأعظم بابتسامته العريضة المالئة وجهه. كان يستشعر بهجة غامرة بسبب من استقباله نهاراً جديداً بالكلية.

ـ «هذه السيدة البالغة الصِغر تريد فطور صباح لإنهاء فطورات الصباح.[1]»

فقال المايسترو الأعظم: «فهمتُ،» ونظر إلى ريناتا، وتدحرج قلبه في صدره كما يفل «سمك يونس» في البحر. وإنها لحركة جميلة، وقلة من الناس في هذا العالم فحسب، يستطيعون أن يستشعروها أو أن يقوموا بها.

ـ «ماذا تريدين أن تأكلي يا بُنيَّتي؟» كذلك سألها الكولونيل، وهو يرنو إلى جمالها الصباحي المبكر، الأسمر، غير المُرَوْتَش.

ـ «كل شيء.»

ـ «هل لك أن تعطيني بعض المقترحات؟»

ـ «الشاي بدلاً من القهوة، وأيما شيء يستطيع المايسترو الأعظم أن ينقذه من الغرق.»

فقال المايسترو الأعظم: «لن يكون ذلك إنقاذاً من الغرق، يا بُنيَّتي.»

ـ «أنا الذي ادعوها بُنيّتي.»

فقال المايسترو الأعظم: «لقد قلت ذلك في إخلاص. إن في استطاعتنا أن نُعِد بعض الكُلى المشوية مع نبات فُطر اقتلعه أُناس أعرفهم. أو زُرِع في أقبية رطبة. وفي الإمكان إعداد شيء من «الأومليت» مع كمأة نبشتها خنازير من الطراز العالي. ومن الميسور تحضير شيء من لحم الخنزير المملح الكندي، بل الوارد من كندا نفسها عند الاقتضاء.»

فقالت الفتاة مبتهجة لم تفارق غشاوة الوهم عينيها: «أو من أيما مكان آخر.»

---

(1) على غرار قولهم: الحرب لإنهاء الحرب..

فقال الكولونيل في جدّ: «أو من أيما مكان آخر. وأنا أعلم أحسن العلم أين هو.»

ـ «أعتقد أن علينا أن نكف عن المزاح الآن ونشرع في إعداد الفطور.»

ـ «وأنا أعتقد ذلك أيضاً، إن لم يكن مثل هذا الاعتقاد غير لائق بفتاة عذراء.»

ـ «أما فطوري أنا فسيكون زجاجة من الفالبوليشيلا المروَّقة.»

ـ «ولا شيء آخر؟»

فقال الكولونيل: إيتني بجراية من لحم الخنزير الكندي المزعوم.»

ونظر إلى الفتاة، إذ كانا وحدهما الآن وقال لها: «كيف حالك، يا أعز الناس؟»

ـ «جائعة جداً، في ما أحسب. ولكني أشكرك لأخذك بأسباب الدماثة طوال هذه الفترة المديدة كلها.»

فقال لها الكولونيل بالإيطالية: «لقد كان ذلك سهلاً.»

[26]

لقد جلسا هناك إلى المائدة، وراقبا الضياء الصباحي العاصف المتألق فوق صفحة القناة، كان اللون الرمادي قد استحال الآن إلى رمادي أصفر، مع الشمس، وكانت الأمواج تقاوم المدّ المنحسر.

وقالت الفتاة: «ماما تقول إنها لا تستطيع أن تحيا هنا طويلاً في أيما وقت، لأنه ليس ثمة أشجار. وهذا هو السبب الذي يجعلها تذهب إلى الريف.»

ـ «هذا هو السبب الذي يجعل كل امرئ يذهب إلى الريف.»

كذلك قال الكولونيل: «في استطاعتنا أن نزرع بضع شجرات إذا وجدنا بيتاً ذا حديقة واسعة بعض الشيء.»

ـ «أنا أحب حَوْر لومبارديا وسحر الدّلب أكثر ما يكون، ولكني لا أزال غير مثقفة بكل ما في التعبير من معنى.»

ـ «أنا أحبها وأحب شجر السرو وشجر الشَّهْبلوط أيضاً. الشهبلوط الحقيق والشهبلوط الهندي. ولكنكِ لن تَرَيْ الأشجار أبداً، يا بُنيّتي، حتى نذهب إلى أميركا. انتظري حتى تَرَيْ صنوبرة بيضاء أو صنوبرة بونديروزا ponderosa.»

ـ «هل سنراها عندما نقوم بالرحلة الطويلة، ونقف عند جميع محطات البنزين أو محطات الاستراحة أو أيما اسم آخر يطلقونه عليها؟»

فقال الكولونيل: «الأكواخ ومعسكرات السياح. ولسوف نقف عند هذه الأخرى، ولكنا لن نبيت فيها.»

ـ «لشد ما أتمنى أن نتقدم بسيارتنا إلى استراحة، وأن أدفع النفقات من مالي، وأسألهم أن يملأوا خزان السيارة بالبنزين، وأن يتفحّصوا زيت السيارة، على الطريق التي نراها في الكتب الأميركية، أو في الأفلام.»

ـ «هذه محطة بنزين.»

ـ «وإذن فما محطة الاستراحة؟»

ـ «حيث يذهب المرء، كما تعلمين...»

ـ «أوه،» كذلك قالت الفتاة وتضرّج وجهها. «أنا آسفة. لشدّ ما أريد أن أتعلم اللغة الأميركية، ولكني أحسب أني سوف أقول أشياء بربرية كما تفعل أنت، أحياناً، في الإيطالية.»

ـ «إنها لغة هينة. وكلما أمعنتِ في الاتجاه غرباً أصبحتْ أسهل وأكثر استقامةً.»

وجاء المايسترو الأعظم بالفطور فبلغتهما رائحته ـ برغم أنها لم تَفُحْ في الحجرة بسبب من الأغطية الفضية على الأطباق ـ في أطّراد وبوصفها رائحة لحم خنزير وكليّ مشوية، مع الرائحة القاتمة المكْمَدة المنبعثة من نبات الفُطر المشويّ المضاف.

وقالت الفتاة: «إنه يبدو رائعاً. شكراً جزيلاً، أيها المايسترو الأعظم. هل يتعيَّن عليَّ أن أتكلم باللسان الأميركي؟» كذلك سألتِ الكولونيل. وبسطت يدها إلى المايسترو الأعظم في خفة وسرعة، بحيث اندفعت اندفاع المُقَفَّر[1]، وقالت: «ضعها هناك، أيها الصديق. هذا الطعام grub ممتاز.»

---

(1) المقفر، سيف الطعن أو «الشيش».

فقال المايسترو الأعظم: «أشكرك، يا سيدتي.»

ـ «هل كان يتعيَّن عليَّ أن أقول chow بدلاً من grub؟[1]» كذلك سألت الفتاة الكولونيل.

ـ «إنهما في الواقع متعاوضتان[2].»

ـ «هل كانوا يتكلمون هكذا، هناك في الغرب، عندما كنتَ صبياً؟ ما الذي كنتم تقولونه عند فطور الصباح؟»

ـ «كان الطاهي يسكب الطعام أو يقدِّمه إلينا. وكان يقول: تعالوا كُلُوه، يا أبناء العاهرات، وإلا ألقيته في صندوق القمامة.»

ـ «يجب أن أتعلم هذا لترديده في الريف. ففي بعض الأحيان حين يكون السفير البريطاني وزوجته البليدة يتناولان طعام العشاء على مائدتنا سوف أعلِّم النادل، الذي سيعلن أن الطعام أصبح جاهزاً، أن يقول: تعالوا كلوه، يا أبناء العاهرات، وإلا ألقيته في صندوق القمامة.»

ـ «خليق به عندئذ أن يُنقص من القيمة. وعلى أية حال، فسوف تكون تجربة ماتعة.»

ـ «علِّمني شيئاً أستطيع أن أقوله، باللسان الأميركي الخالص، للرجل المجدور إذا ما أقبل. إني سوف أهمس ذلك في أذنه وكأننا نتواعد على لقاء، كما كانوا يفعلون في الأيام الخالية.»

ـ «يتوقف ذلك على سيماء وجهه. فإذا كان شديد الاكتئاب استطعت أن تهمسي في أذنه قائلة: اسمع يا ماك، لقد أجّرت نفسك للظهور بمظهرِ الرجل الصلب القاسي، أليس كذلك؟»

ـ «هذا رائع،» كذلك قالت، وكررته بصوت كانت قد تعلَّمته من إيدا لوبينو Ida Lupino. «هل أستطيع أن أقوله للمايسترو الأعظم؟»

---

(1) chow و grub لفظتان عاميتان بمعنى «طعام». (المعرب)

(2) أي تحل إحداهما محل الأخرى وتكون عوضاً عنها.

ـ «طبعاً. لِمَ لا. أيها المايسترو الأعظم!»

وأقبل المايسترو الأعظم وانحنى إلى أمام في انتباه بالغ.

فقالت له الفتاة، في نبرة جافة: «اسمع، يا ماك. لقد أجَّرت نفسك للظهور بمظهر الرجل القاسي، أليس كذلك؟»

فقال المايسترو الأعظم: «لقد فعلتُ، من غير ريب. أشكرك لأنك عبَّرتِ عن ذلك بمثل هذه الدقة كلها.»

ـ «إذا أقبل ذلك الرجل، وأردتِ أن تتحدثي إليه بعد أن يكون قد تناول طعامه فليس عليك إلا أن تهمسي في أذنه: امسح البيض عن ذقنك، يا جاك، وتصدَّرْ وِطرْ في الحال.»

ـ «سوف أتذكر هذا وأتمرن عليه في البيت.»

ـ «ما الذي سنفعله بعد الفطور؟»

ـ «هل نصعد إلى الدور العلوي ونلقي نظرة على اللوحة ونرى ما إذا كان لها أية قيمة ـ أعني أية فائدة ـ في ضوء النهار؟»

فقال الكولونيل: «نعم».

[27]

وفي الدور الأعلى كانت الحجرة قد رُتبت. فسُرَّ الكولونيل، إذ كان قد توقَّع أن يجد الفوضى وعدم الترتيب يسودان المكان.

وقال: «قفي بجانبها في الحال.» ثم تذكَّر أن يضيف: «أرجوكِ.»

ووقفت بجانب اللوحة الزيتية، ونظر إليها من حيث كان قد نظر إليها الليلة البارحة.

وقال: «ليس ثمة مجال للمقارنة، طبعاً. أنا لا أعني الشبه. الشبه ممتاز.»

ـ «هل كان من المفروض أن يكون ثمة مجال للمقارنة؟» كذلك سألته الفتاة، وأمالت رأسها إلى الوراء ووقفت هناك مع كنزة «اللوحة» السوداء.

ـ «طبعاً لا. ولكني الليلة البارحة، ومع الضحى من هذا اليوم، تحدثت إلى اللوحة وكأنها أنتِ.»

ـ «كان ذلك لطفاً منك، وهو يُظهر أن اللوحة قد كان لها بعض النفع.»

كانا مضطجعين الآن على السرير، وقالت الفتاة له: «ألا تغلق النوافذ أبداً؟»

ـ «لا. هل تغلقينها أنت؟»

ـ «حين يهطل المطر فقط.»

ـ «إلى أيّ حد يشبه أحدنا الآخر؟»

ـ «لست أدري. إن الأيام لم تتح لنا قط أي فرصة لاكتشاف ذلك.»

ـ «الأيام لم تتح لنا قط فرصة متكافئة. ولكنها أتاحت لي أنا فرصة كافية لمعرفة ذلك.»

ثم تساءل الكولونيل: «وحين تعرف، ما الذي تفوز به بحق الجحيم؟»

ـ «لست أدري. شيء أفضل مما هو كائن، في ما أحسب.»

ـ «من غير ريب. إن علينا أن نسعى في سبيل ذلك. أنا لا أؤمن بالأهداف المحدودة. ولكنك مضطر إلى ذلك، في بعض الأحيان.»

ـ «ما هو أساك الأكبر؟»

فقال: «أوامر الآخرين. وما أساك أنتِ؟»

ـ «أنتَ.»

ـ «لست أريد أن أكون أسىً. لقد كنت ابن عاهرةٍ بائساً في كثير من الأحيان، ولكني لم أكن في أيما يوم من الأيام مصدر أسىً لأحد.»

ـ «حسناً، أنت الآن أساي.»

فقال: «حسن؛ سوف نتقبل المسألة على هذا النحو.»

ـ «جميلٌ منك أن تتقبلها على هذا النحو. أنت لطيف جداً هذا الصباح. أنا خجلة جداً من هذا الوضع. أرجوك أن تضمني إليك ضماً محكماً وأن لا نتحدث، أو نفكر، كيف كان يمكن لهذا الوضع أن يكون غير ما هو عليه.»

ـ «هذا واحد من الأشياء القليلة التي أعرف كيف أقوم بها يا بنيتي.»

ـ «أنت تعرف أشياء كثيرة، كثيرة جداً. لا تقل شيئاً كهذا.»

فقال الكولونيل: «من غير ريب. أنا أعرف كيف أقاتل مهاجماً وكيف أقاتل منكفئاً وأي شيء آخر؟»

ـ «ولك علم بالصُوَر، وبالكتب، وبالحياة.»

ـ «هذا هين. ليس عليك إلا أن تنظري إلى الصّوَر في غير ما هوىً، وأن تقرأي الكتب بأقصى الانفتاح الذي يستطيعه عقلك، وأن تعيشي الحياةَ.»

ـ «لا تنزع سترتك العسكرية، أرجوك.»

ـ «حسن.»

ـ «أنت تفعل أيما شيء حين أقول أرجوك.»

ـ «لقد فعلت أشياء بدونها.»

ـ «ليس في كثير من الأحيان.»

ـ «صحيح»، كذلك أقرّها الكولونيل على ما ذهبت إليه. أرجوك لفظة حلوة.»

ـ «أرجوك، أرجوك، أرجوك.»

ـ «Per piacere[1]. إنها تعني: من أجل المتعة. لشد ما أتمنى لو نتكلم الإيطالية دائماً.»

ـ «في استطاعتنا أن نفعل ذلك في الظلام. على الرغم من أن ثمة أشياء يحلو قولها بالإنكليزية أكثر.» وهنا استشهدت بهذه الأقوال: «أنا أحبك حبّي الأخير الصادق الأوحد. عندما نوَّر البنفسج آخر الأمر في الفِناء المحيط بالباب. وخارج المهد المترنح ترنحاً لا يعرف نهاية. وتعالوا كلوه، يا أبناء العاهرات، وإلا ألقيته في صندوق القمامة. أنت لا تريد أن تسمع هذه الأقوال في لغات أخرى، أليس كذلك يا ريتشارد؟»

---

(1) تعبير إطالي يؤدي معنى «أرجوك»، أو «إذا راق لك ذلك». (المعرب)

ـ «لا.»

ـ «قبّلني مرة أخرى، أرجوك.»

ـ «هذه الـ «أرجوك» غير ضرورية.»

ـ «أغلب الظن أني سوف انتهي، أنا نفسي، إلى أن أكون مثل «أرجوك» غير ضرورية. والشيء الحسن في اقتراب أَجَلكَ هو أنك لا تستطيع أن تفارقني.»

فقال الكولونيل: «هذه لاذعة بعض الشيء. إفرضي مراقبة يسيرة على فمك الجميل لكي لا ينطق بمثل هذا الكلام.»

فقالت: «إني لآخذ بأسباب اللذع حين أجدك لاذعاً. أنت لا تريدني أن أكون غير ذلك بالكلية؟»

ـ «أنا لا أريدك أن تكوني غير ما أنتِ البتة، وإني لأحبك حباً صادقاً، ونهائياً، إلى الأبد.»

ـ «أنت تقول أشياء ظريفة في وضح بالغ أحياناً. ما الذي حدث بينك وبين زوجتك، إذا جاز لي أن أسأل؟»

ـ «كانت امرأة طموحاً جداً، وكنت أقيم خارج البيت أكثر مما ينبغي.»

ـ «تعني أنها غادرته بدافع من الطموح، يوم وجدتك أنت تغادرُهُ بدافع من الواجب ليس غير؟»

«بلا ريب،» كذلك قال الكولونيل، وحاول أن يتذكّر في غير مرارة، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. «كانت تتمتع بطموح أعظم من طموح نابوليون، وبموهبة تقارب موهبة فتاة متفوقة في مدرسة ثانوية.»

فقالت الفتاة: «أياً ما كان معنى ذلك. ولكن دعنا لا نتكلم عنها. أنا آسفة لطرحي هذا السؤال. لا ريب في أنها محزونة لاضطرارها إلى أن لا تكون معك.»

ـ «لا. كانت من العُجْب بحيث لا تعرف الحزن أبداً، ولقد

تزوجت مني لكي تصبح لها قدم راسخة في دوائر الجيش، ولكي تقوم باتصالات أفضل في سبيل ما اعتبرته حرفتها أو فنّها. لقد كانت صحافية..»

فقالت الفتاة: «ولكن الصحافيين مخيفون.»

ـ «هذا صحيح.»

ـ «ولكنْ كيف جاز لك أن تتزوج امرأة صحافية تصرّ على الاحتفاظ بصفتها هذه بعد الزواج؟»

فقال الكولونيل: «لقد قلت لك إني ارتكبت في حياتي بعض الأخطاء.»

ـ «دعنا نتحدث عن شيء لطيف.»

ـ «حسن..»

ـ «ولكن ذلك كان رهيباً. كيف تأتّى لك أن تُقِدم على شيء مثل هذا؟»

ـ «لست أدري. في استطاعتي أن أسهب لك في شرح ذلك، ولكنْ دعينا نطّرِح هذا الموضوع.»

ـ «اطّرِحْهُ من فضلك. ولكني لم أكن لأتوهم من قبلُ قط أنه كان شيئاً رهيباً إلى هذا الحد. إنك لن تقدم على شيء مثل هذا الآن، أليس كذلك؟»

ـ «أنا أعِدُك، يا حبيبتي.»

ـ «ولكنك لن تكتب إليها أبد الدهر؟»

ـ «لا، من غير ريب.»

ـ «ولن تحدّثها عن حبنا لكي لا يكون في ميسورها أن تكتب عنه؟»

ـ «لا. لقد حدثتُها ذات مرة عن أشياء، فكتبَتْ عنها. ولكن ذلك كان في بلاد أخرى. وإلى هذا، فالبغيّ قد ماتت.»

ـ «وهل ماتت فعلاً؟»

ـ «إنها أشد موتاً من فوبوس الفينيقي. ولكنها لم تعرف ذلك حتى الآن.»

ـ «ما تفعل لو كنا معاً في ساحة كاتدرائية القديس مرقص ووقع بصرك عليها؟»

ـ «انظر إليها في وجهها لكي أُريها كم هي ميتة!»

فقالت الفتاة: «أشكرك شكراً جزيلاً. أنت تعلم أن المرأة الأخرى، أو المرأة القابعة في الذاكرة شيء رهيب ليس من اليسير على فتاة صغيرة أن تطيقهُ وهي بعدُ من غير خِبرة ولا تجربة.»

فقال لها الكولونيل، وكان في عينيه خبث وكان يتذكر: «ليس ثمة أية امرأة أخرى. لا، وليس ثمة امرأة قابعة في الذاكرة.»

فقالت الفتاة: «أشكرك أعظم الشكر. حين أنظر إليك أنزع إلى الاعتقاد بأنك صادق. ولكن أرجوك أن لا تنظر إليّ هكذا أبداً، وأن لا تفكر بي هكذا أبداً.»

فسألها الكولونيل في توقُّع: «هل يتعيَّن علينا أن نطاردها وأن نشنقها على شجرة عالية؟»

ـ «لا. دعنا ننساها.»

ـ «لقد نُسيتْ.» كذلك قال الكولونيل. ومن عجب أنها نُسِيَتْ فعلاً، وإنما كان ذلك عجيباً لأنها كانت حاضرة في الحجرة برهة قصيرة، وكانت قد أوشكت أن تُحدث ذعراً؛ وهو شيء من أغرب الأشياء على الإطلاق، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه.

ولكنها كانت قد ولّت الآن، نهائياً وإلى الأبد، موسومةً[1] متعوَّذاً منها بضروب العزائم، مزوَّدة بالإحدى عشرة نسخة من أوراق

---

(1) من الوسم، وهو الكي.

إعادة تصنيفها، وفي جملتها وثيقة الطلاق الأصلية المصدَّقة من الكاتب العدل بنسخها الثلاث.

وقال الكولونيل: «لقد نُسِيت.» وكان ذلك صحيحاً مئة بالمئة.

وقالت الفتاة: «أنا مسرورة بذلك جداً. لست أدري ما الذي يدعوهم إلى السماح لها بدخول الفندق.»

فقال الكولونيل: «نحن متماثلان إلى حد كافٍ. ومن الخير لك أن لا تحمل ذلك إلى أبعد مما ينبغي.»

ـ «في استطاعتنا أن نشنقها إذا شئتَ لأنها هي المسؤولة عن عدم تمكننا من الزواج.»

فقال لها الكولونيل: «لقد نُسيت. لعلها أن تلقي على ذاتها نظرة طويلة في المرآة، ذات يوم، وتشنق نفسها.»

ـ «ما دامت قد غادرت الحجرة فيتعيَّن علينا أن لا نرجو لها حظاً تاعساً. ولكني كفتاةٍ فينيسيةٍ صالحة، أتمنى لو أنها كانت ميتة.»

فقال الكولونيل: «وكذلك أنا. والآن، وما دامت غير ميتة، فلنَنْسَها إلى الأبد.»

فقالت الفتاة: «إلى الأبد ودائماً. أنا أرجو أن تكون هذه هي الصيغة الصحيحة. وفي الإسبانية para sempre.»

فقال الكولونيل: «para sempre وأخوه.»

[28]

كانا الآن مستلقيين معاً، ولم يتكلما، وشعر الكولونيل بفؤادها يخفق. إنه لمن اليسير عليك أن تشعر بالفؤاد يخفق تحت كنزة سوداء حَبَكها امرؤ ما من أفراد الأسرة، وكان شعرها الداكن الطويل الثقيل يتدلى على ذراعه السليمة. إنه ليس ثقيلاً، كذلك قال في ذات نفسه؛ إنه أخف من أيما شيء آخر. كانت مضطجعة في سكون ومحبة، وكان كل ما يملكانه في تواصل كامل. لقد طبع على ثغرها قبلة رفيقة ونهمة؛ وفجأة، وبعد أن أمسى التواصل كاملاً، حدث ما يشبه ذلك الاضطراب الذي يصيب جهاز الراديو المستقبل بحكم الظواهر الجوية الكهربائية.

وقالت: «ريتشارد، أنا آسفة لبعض الأشياء.»

فقال الكولونيل: «لا تأسفي أبداً. لا تناقشي عدد الإصابات أبداً، يا بنيّتي.»

ـ «قلها مرّة أخرى.»

ـ «يا بنيّتي.»

ـ «هل لك أن تقول لي أشياء سعيدة أتزوّد بها طوال الأسبوع، وتروي عليّ مزيداً من أنباء الحرب أوسّع به ثقافتي؟»

ـ «فلندع الحرب وشأنها.»

ـ «لا. أنا في حاجة إليها من أجل ثقافتي.»

فقال الكولونيل: «وأنا في حاجة إليها أيضاً. لا إلى المناورات. أنت تعلمين أن أحد الجنرالات استطاع يوماً في جيشنا، أن يضع يده ـ من طريق الغش والاحتيال ـ على خطة المناورة. لقد عرف، مسبّقاً، بكل حركة من حركات العدو، فتصرَّف في براعة بالغة حملت الدولة على ترقيته إلى مرتبة تخطّى بها رجالاً كثيرين كانوا خيراً منه. وهذا هو السبب الذي جعلنا نمنى بهزيمة قاصمة، ذات مرة. إضافة إلى تفشّي إجازات نهاية الأسبوع.»

ـ «نحن الآن في إجازة نهاية الأسبوع.»

قال الكولونيل: «أدري. أنا لا أزال قادراً على العدّ حتى رقم سبعة.»

ـ «ولكن هل ثمة ما يثير في نفسك المرارة؟»

ـ «لا. كل ما هنالك أني بلغت من العمر نصف قرن وأني أعرف الأشياء.»

ـ «زدني من الحديث عن باريس لأني أحب أن أفكّر فيك وفي باريس خلال الأسبوع.»

ـ «لماذا لا تسرّحين باريس مؤقتاً، يا بُنيَّتي؟»

ـ «ولكني زرت باريس من قبل، وسوف أعود إلى هناك مرّة أخرى، وأنا أحب أن أعرف. إنها أجمل مدينة في العالم، بعد مدينتي وأنا أريد أن أعرف عنها بعض الأشياء الحقيقية لكي آخذها معي.»

ـ «سوف نذهب إليها معاً، ولسوف أحدثك عنها هناك.»

ـ «شكراً. ولكن حدثني الآن حديثاً موجزاً أتزود به لهذا الأسبوع فحسب.»

ـ «كان لوكليرك غِرّاً كريم المحتد كما سبق لي أن شرحت في ما أعتقد. كان شجاعاً جداً، متكبراً جداً، طموحاً إلى حد مغالى فيه. لقد مات، كما قلت لك من قبل..»

ـ «أجل، لقد قلت لي ذلك.»

ـ «يقولون إن من حسن الأدب أن لا يذمّ المرء الموتى. ولكني أحسب أن ذلك هو أنسب الأوقات للتحدث عنهم في صدق. وأنا لم أقل في حياتي قط عن أيما رجل ميت شيئاً أحجم عن قوله له في وجهه.» وصمت لحظة ثم أضاف: «إني أقول للأعور أنت أعور في عينك.»

ـ «فلنكفّ عن التحدث عنه. لقد أعدتُ تصنيفه في عقلي.»

ـ «عمّ تريدين أن أحدثك إذن؟ عن شيء ماتع؟»

ـ «أجل، أرجوك، لقد فسد ذوقي من قراءة المجلات المصورة. ولكني سوف اقرأ دانتي طوال الأسبوع حين تمضي أنت لسبيلك. ولسوف أشهد القداس كل صباح. وأحسب أن ذلك سيكون كافياً.»

ـ «واذهبي إلى حانة هاري قبل الغداء أيضاً.»

فقالت: «سأفعل. أرجوك أن تحدثني عن شيء ماتع.»

ـ «ألا تعتقدين أن من الخير لنا أن نأوي إلى النوم لَيس غير؟»

ـ «كيف تستطيع أن تنام الآن بعد أن لم يبق لدينا غير مُتّسع من الوقت يسير؟ إلمِس هذا» قالت ذلك ودفعت رأسها كله إلى أعلى، تحت ذقنه، حتى لقد اضطرت رأسه إلى الارتداد للوراء.»

ـ «حسن جداً، سوف أتحدث.»

ـ «أعطيني يدك أولاً، لكي أمسكها. سوف أضعها في يدي عندما أقرأ دانتي وأفعل الأشياء الأخرى.»

ـ «لقد كان دانتي شخصية مَقِيتة. أشد عُجباً وغروراً من لوكليرك.»

ـ «أدري. ولكنه لم يكتب على نحو مقيت.»

ـ «لا. ولقد كان لوكليرك قادراً على القتال أيضاً. وبصورة ممتازة.»

ـ «والآن حدثني.»

كان رأسها على صدره الآن، وقال الكولونيل: «لماذا لم تريدي لي أن أنزع سترتي العسكرية؟»

ـ «أنا أحب أن ألمس الأزرار. هل في ذلك بأس؟»

فقال الكولونيل: «سوف أكون ابن عاهرة بائساً. كم رجلاً من أفراد أسرتك خاض غمار الحرب؟»

فقالت: «كلُّهم. دائماً. لقد كانوا تجاراً أيضاً، وكثير منهم كانوا حكاماً لهذه المدينة كما تعلم.»

ـ «ولكن هل قاتلوا كلهم؟»

فقالت: «كلهم بقَدْر ما أعلم.»

فقال الكولونيل: «أو. كي. سوف أحدِّثك عن أيما شيء لعينٍ ترغبين في معرفته.»

ـ «أريد أن تحدثني عن شيء مسلٍّ. ليس غير. عن شيء لا يقل رداءة عما تنشره المجلات المصورة أو أردأ.»

ـ «مجلة دومينيكا ديل كوريير Domenica Del Corriere أم مجلة تريبونا إيلاستراتا Tribuna Illustrata؟»

ـ «أسوأ، إذا كان ذلك ممكناً.»

ـ «قبّليني أولاً.»

وقبّلته في كرم وفي قوة وعلى نحو يائس، ولم يستطع الكولونيل أن يتذكر أياً من المواقع الحربية أو أياً من الحوادث المسلّية أو الغريبة. إنه لم يفكّر إلا فيها، وفي ملمسها، وفي مدى دنوّ الحياة من الموت حين يستغرق المرء في نشوةٍ روحية. ولكن ما النشوة الروحية، بحقّ الجحيم، وما رتبة النشوة الروحية ورقمها المتسلسل؟ وأيّ ملمس لكنزتها السوداء؟ ومن الذي أبدع كل نعومتها وبهجتها، وكبريائها الغريبة وتضحيتها وحكمتها الطفليّة؟ أجل، إن النشوة

الروحية هي الشيء الذي كان من الجائز أن تفوزَ به، ولكنك بدلاً من ذلك تجتذب أخا الرقاد الآخر.»[1]

ألا لعن اللّه الموت، كذلك قال في ذات نفسه. إنه ينسلّ إليك في أجزاء صغيرة يتعذر عليك معها، أو يكاد، أن تدرك من أين دخَلتْ. وهو يجيئك في بعض الأحيان، على نحو وقح. إنه قد يجيء من الماء غير المغليّ، أو من ناموسية لم تُنصَبْ، أو قد يجيء مع الهدير العظيم، المُصَلْصِل، الحامي حتى الإبيِضاض الذي عشنا معه. إنه يجيء في تلك الوشوشات الصغيرة المفرقعة التي تسبق جلبة السلاح الأوتوماتيكي. وفي إمكانه أن يجيء مع قوس القنبلة اليدوية المطلِق دُخاناً، أو مع سقوط قنابل «مدافع الهاون» الحاد، المفرقع.

لقد رأيته يجيء محرّراً نفسَه من ضباب القنبلة، هابطاً مع ذلك الخط المنحرف العجيب. إنه ينبعث من تحطّم سيارة ما بصوتٍ معدني، أو مجرد فقدان الاحتكاك الكافي فوق طريق زَلِقة.

إنه يجيء معظمَ الناس وهم في الفراش، أنا أعلم ذلك، مثل نظير الحب المقابل. ولقد عشت معه طوال حياتي تقريباً، وكانَ توزيعه على الناس هو صناعتي. ولكن أيّ شيء أستطيع أن أرويه لهذه الفتاة الآن في هذا الصباح البارد العاصف في فندق غريتي بالاس؟»

وسألها: «ما الذي ترغبين في معرفته، يا بُنَيَّتي؟»

ـ «كل شيء.»

فقال الكولونيل: «حسن. اسمعي إذن.»

---

(1) يقصد بأخي الرقاد الآخر: الموت. (المعرب)

[29]

لقد استلقيا على السرير الجديد القاسي على نحو عذب، وقد لمست رِجله رِجلها؛ ورأسها على صدره، وشعرها منثوراً عَبْرَ عنقه القاسي العجوز. وأنشأ يحدثها:

ـ «لقد هبطنا البرَّ من غير ما كبير مقاومة. وإنما واجهونا بالمقاومة الحقيقية عند الشاطئ الآخر. ثم إنه كان علينا أن ننضم إلى الجنود الذين أُنزِلوا بالمظلات، وأن نحتلّ ونهيمن على مدن مختلفة، ثم استولينا على شيربورغ. كان ذلك عسيراً، وعلينا أن ننجزه في سرعة خاطفة، وكانت الأوامر صادرة من جنرال يدعى «لايتننغ جو» كان من الجائز أن لا تسمعي باسمه البتة. جنرالٍ بارع.»

ـ «تابِعْ، أرجوك. لقد تحدثتَ عن «لايتننغ جو» من قبل.»

ـ «وبعد شيربورغ كان لدينا كل شيء. ولم آخذ شيئاً غير بوصلة أميرال، إذْ كان عندي آنذاك مركب صغير في خليج تشيزابيك. ولكننا دمغنا الأسلحة الألمانية كلها باسم مارتل، واستولى بعض الجنود على ثروات لا تقل عن ستة ملايين فرنك فرنسي مطبوع في ألمانيا. وكانت هذه الأوراق النقدية صالحة إلى ما قبل عام واحد، وكل خمسين فرنكاً منها كانت تساوي آنذاك دولاراً واحداً، وكم من رجل يملك الآن تراكتوراً بدلاً من مجرد بغلٍ لأنه عرف كيف يرسلها إلى الوطن من طريق زملائه وأعوانه.

ـ «لم أسرق قط شيئاً غير البوصلة لأني اعتقدت أن مما يجلب الطالع النكد أن يسرق المرء، لغير ما ضرورة، في حرب من الحروب. ولكني شربت الكونياك، وجعلت من دأبي أن أحسب المقادير الثانوية التي تكفل الدقة في استعمال البوصلة، كلما وجدتُ متسعاً من الوقت لمثل هذا الصنيع. لقد كانت البوصلة هي صديقي الوحيد، وكان التلفون حياتي. كان لدينا من الأسلاك الموتّرة أكثر مما في تكساس من الـ. . . [1]»

ـ «أرجو أن تواصل تحديثي، وأن تجتنب الفظاظة ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. أنا لا أعرف ما تعنيه تلك الكلمة، ولا أريد أن أعرف.»

فقال الكولونيل: «إن تكساس ولاية كبيرة، وهذا هو السبب الذي من أجله اتخذتُها واتخذتُ نساءها رمزاً، فأنت لا تستطيعين أن تقولي «أكثر. . . [1] من ويومينغ» لأن عدد السكان هناك ثلاثون ألفاً، أو ربما خمسون ألفاً إذا شئت. قلت إنه كان عندنا أسلاك كثيرة، فكنّا لا نفتأ نوتّرها ثم نلفّها، ثم نوترها من جديد.»

«تابع».

فقال الكولونيل: «سوف أنتقل بك الآن إلى اقتحام خطوط العدو. أرجوك أن تخبريني. هل يُضجرك كلامي؟»

ـ «لا.»

ـ «هكذا قمنا بالاقتحام المخزي،» كذلك قال الكولونيل، وكان وجهه الآن قد التفت إلى وجهها، ولم يكن يحاضر؛ كان يعترف.

ـ «في اليوم الأول أقلبت كثرتهم الكبيرة وأسقطوا من الجو زينة شجرة الميلاد التي بلبلت «رادار» الأعداء، وهكذا أرجئ الهجوم. كنا

---

(1) ههنا موقع كلمة مقذعة محذوفة في الأصل الإنكليزي أيضاً. (المعرب)

على استعداد للزحف، ولكنهم أرجأوا الهجوم. وكان ذلك في محله من غير ريب. أنا أحب جنرالات الجيش الكبار كما أحب الخنازير التي تعرفينها.»

ـ «حدثني عن ذلك ولا تكن خبيثاً.»

فقال الكولونيل: «لم تكن الأحوال ملائمة، وهكذا انطلقنا في اليوم الثاني في تلك السبيل، كما يقول أبناء عمومتنا البريطانيون الذين لم يستطيعوا أن يشقوا طريقهم ومناشفهم ما تزال رطبة، وأقبل شعب ذلك البحر الآبد الذي هناك.

«وكانوا لا يزالون ينطلقون من الحقول التي عاشوا فيها على حاملة الطائرات المعشوشبة تلك التي يدعونها إنكلترة، عندما رأينا أولهم.»

«كانت الطائرات لامعة، مشرقة، جميلة، لأنهم كانوا قد أزالوا، قبيل ذلك، دهان الغزو عنها، أو لعلهم لم يفعلوا. إن ذاكرتي ليست دقيقة في ما يتصل بهذا الجزء من القصة.»

«وأياً ما كان، يا بنيَّتي، فقد كان في ميسورنا أن نشهد أسرابها مرتجعة نحو الشرق بأسرع ما نستطيع أن نرى. كانت أشبه شيء بقطار عظيم. وكانت محلقة في الجو، فهي أجملُ منها في أيما يوم مضى. وقلت لزميلي الثاني إن علينا أن نسميها «أكسبريس فالهالّا»[1] هل سَمِعتِ هذا الحديث؟»

ـ «أنا أستطيع أن أرى اكسبريس فالهالّا. إننا لم نره قط على مثل هذه الضخامة. ولكننا رأيناه. مراتٍ عديدة.»

ـ «وكنا على مبعدة ألفيْ ياردة من المكان الذي كان علينا أن

(1) Balhalla Express. و«فالهالا»، في الميثولوجيا السكندينافية، هي حجرة الخلود التي تستقبل فيها أرواح الأبطال الذين سقطوا صرعى في ساحة القتال. (المعرب)

ننطلق منه. أنت تعرفين ما معنى ألفيْ ياردة، يا بنيتي، في حرب تكونين فيها في حالة الهجوم؟»

ـ «لا. وكيف أستطيع ذلك؟»

ـ «ثم إن الجزء الأمامي من «اكسبريس فالهالا» أسقط دخاناً ملوناً ثم انعطف وانقلب راجعاً إلى الوطن وكان هذا الدخان قد أُسقِط في دقة بالغة، وكشف في وضوح عن الهدف الذي كان مواقع النمساويين. كانت مواقع حصينة. وكان من الجائز أن يتعذر علينا إخراجهم منها من غير لجوء إلى شيء جبار ومسلٍّ كالذي كنا نقوم به فعلاً.

«وبعد ذلك، يا بنيتي، أسقطت الأجزاء الأخرى من «اكسبريس فالهالاّ» كل شيء في العالم على رؤوس النمساويين حيث كانوا يقيمون ويعملون لصدِّنا. وفي ما بعد بدا وكأن كل شيء على الأرض قد ثار وفار، وراح الأسرى الذين أخذناهم يرتعدون كما يرتعد المرء حين تستبد به الملاريا. كانوا جنوداً جدّ بواسل من «فرقة المظلات السادسة»، وكانوا كلهم يرتعدون ولا يستطيعون لذلك الارتعاد دفعاً برغم محاولتهم أن يفعلوا.

«وهكذا تستطيعين أن ترَيْ أنه كان قصفاً موفقاً. الشيء نفسَهُ الذي نحتاج إليه دائماً في هذه الحياة، على وجه الضبط. أن نجعلهم يرتجفون من خوف العدالة والقوة.

«كانت الريح يا بنيتي، ولسوف أوجز لكي لا أُدخل السأم على نفسك، تهب من ناحية الشرق، وشرع الدخان يرتدّ نحونا. وكانت المدافع الثقيلة هي التي استهلت ذلك، ولم يكن أحد في حاجة إلى أن يقلق أو يجشِّم نفسه عناء السؤال عمن كان هناك ذلك اليوم. وبعد هذا ولكي يُجْعل اقتحام مواقع العدو ناجحاً ولكي لا يُترك في كل من خطيْ القتال إلاّ أقلّ عدد ممكن من الجند، أقبلت الطائرات وقصفت كل ما بقي. ثم إننا اقتحمنا تلك المواقع حالما رجع «اكسبريس

فالهالاّ» إلى أرض الوطن، منتشراً في جَماله وجلالِهِ من ذلك الجزء من فرنسة حتى سماء إنكلترة كلها.»

لو كان لرجل ما ضمير، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه، إذن لفكر في سلاح الطيران ذات يوم.

وقال الكولونيل: «أعطيني زجاجة من تلك الفالبوليشيلا.» ثم تذكَّر أن يضيف: «أرجوك.»

وقال: «ألتمس عفوك، هدئي من روعك يا كلبتي الحلوة، أرجوكِ. إنك أنتِ التي سألتِني أن أروي لك ذلك.»

ـ «أنا لست كلبتك الحلوة. إنها لا بد أن تكون امرأة أخرى.»

ـ «صحيح. أنت حبي الأخير الصادق الوحيد. هل هذا صحيح؟ ولكنك أنت التي سألتِني أن أحدثكِ عن ذلك.»

فقالت الفتاة: «حدثني، أرجوك. وإني لأحب أن أكون كلبتك الحلوة لو عرفتُ كيف أفعل ذلك. ولكني مجرد فتاة من هذه المدينة التي تحبّك.»

فقال الكولونيل: «سوف نعمل على هذا الأساس. وأنا أحبكِ. ولعلي تلقَّنْتُ تلك العبارة في الفيليبين».

فقالت الفتاة: «ربما. ولكني أوثر أن أكون فتاتك الشريفة.»

ـ «إنكِ لكذلك. إلى أقصى حد، وعلى رؤوس الأشهاد.»

فقالت: «أرجوك أن لا تنزع إلى السخرية. أرجوك أن تحبّني في صدق، وأن تحدثني على أصدق نحو تستطيعه من غير أن تؤذي نفسك بأية حال.»

فقال: «سوف أحدثك في صدق. على أصدق نحو أستطيع أن أتحدث به، وَليُصبِ الأذى من قد يصيب. فلأن تسمعي نبأ ذلك مني، إذا آنستِ في نفسك فضولاً يغريك بالاطلاع على هذا الموضوع، خيرٌ لكِ من أن تقرأيه في كتاب ما، ذي دِفّتين متينتين.»

ـ «لا تكن لاذعاً، أرجوك. كل ما أسألك إياه أن تصدقني القول وتضمّني إليك في إحكام وأن تصدقني القول حتى تُفْرِغ كل ما في جوفك، إذا كان هذا أمراً ممكناً.»

ـ «لست في حاجة إلى إفراغ ما في جوفي باستثناء ضرورة صنع المدافع على نحو يتفق والقواعد العسكرية. أنا لن أنقِم منهم إذا ما اصطنعوها في إحكام حتى ولو أصابوا منكِ مقتلاً. ولكنْ أعطيني، لإمداد المشاة ودعمهم، رجلاً مثل بيت ديزادا Pete Duesada. ذلك رجل قادرٌ على طردهم برفسة من نعله.»

ـ «أرجوك.»

ـ «إذا ما رغبت ذات يوم في التخلي عن رجل متهدم مثلي فخليق بذلك الفتى أن يمدّك بالعون.»

ـ «أنت لست متهدماً، أياً ما كان معنى ذلك، وأنا أحبك.»

ـ «أرجوكِ أن تعطيني قرصين من تلك الزجاجة، وأن تملأي كأس الفالبوليشيلا التي أهملت ملأه، ولسوف أروي لك طرفاً من بقية القصة.»

ـ «لا داعي لا تروي لي بعد شيئاً. أجل، لا داعي لذلك؛ وأنا أعلم الآن أن هذا يؤذيك. وخاصة إذا كان الكلام عن يوم «اكسبريس فالهالاً» ذاك. أنا لست مستنطقاً، أو أيّاً ما كان مؤنث المستنطق. فلنكتفِ بالاضطجاع في سكون والإطلال من النافذة، ومراقبة ما يجري في قناتنا العظمى.»

ـ «لعل هذا خير لنا. ومن ذا الذي يُبالي بالحرب على أية حال؟»

ـ «أنت وأنا، ربما.» كذلك قالت وهزت رأسها. «دونك الشيئين اللذين طلبتهما من الزجاجة المربعة. وها هي ذي كأس «الفينو» المروّقة. سوف أبعث إليك من أطياننا بخمر أفضل. أرجوك، دعنا

ننام فترة قصيرة. أرجوك أن تكون غلاماً صالحاً، وأن نكتفي بالاستلقاء معاً وبتبادل الحب. ضع يدك هنا، أرجوك.»

ـ «يدي السليمة أم يدي المشوهة؟»

فقالت الفتاة: «يدك المشوهة. اليد التي أحبها والتي يتعيَّن عليَّ أن أفكِّر فيها طوال الأسبوع. أنا لا أستطيع أن أحتفظ بها كما تحتفظ أنت بأحجار الزمرد.»

فقال الكولونيل: «إنها في الصندوق الحديدي.» وصمت لحظة ثم أضاف: «على اسمك».

ـ «فلنكتفِ بمجرد النوم ولنقلع عن الكلام على أيما شيء عادي وعن أيما ضرب من ضروب الأسى.»

ـ «إلى الجحيم بالأسى كله،» كذلك قال الكولولنيل، مُغمضاً عينيه، مُسْنداً رأسه في رفق على الكنزة السوداء التي كانت وطنه الأم. إن المرء لفي حاجة إلى أن يكون له وطنٌ أُمٌّ، كذلك قال في ذات نفسه. وها هو ذا وطني الأم.»

وسألته الفتاة: «لماذا لا تُنتخب رئيساً للولايات المتحدة؟ لقد كان يمكن أن تكون رئيساً ممتازاً.»

ـ «أنا رئيساً؟ لقد خدمت في حرس مونتانا الوطني حين كنت في السادسة عشرة. ولكنني لم ألبس في حياتي عقدة رقبة على شكل فراشة، ولست ـ ولم أكن في أيما يوم قط ـ بائع كرافتات وقمصان رجالية فاشلاً أنا لا أتمتع بأيّ المؤهلات التي تساعد المرء على ارتقاء سدة الرئاسة. بل لم يكن في إمكاني أن أرأس المعارضة، حتى على الرغم من إني غير مضطر للجلوس على «حوليات التلفون» لكي تؤخذ صُوَري. وفوق هذا فلست جنرالاً لا محارباً. يا للجحيم، فأنا لم أكن في أيما يوم من الأيام عضواً في «القيادة العليا للقوات الحليفة الموجَّهة إلى أوروبة» SHAEF. بل إني لم أوفق إلى أن أكون رجل

دولةٍ أرَشدَ. فأنا لا أزال دون السن التي تؤهلني لذلك. إننا نُحكَمُ اليوم، بطريقة ما، بالحثالة. نحن نُحْكَمُ بما قد تجدينه في قعر كؤوس الجعة الميتة التي غمست فيها البغايا سجائرهن. إن المكان لا يُكنَس ولو مجرد كنسٍ حتى الآن، وإن ثمة عازف بيانو هاوياً يضرب على الصندوق.»

ـ «أنا لا أفهم هذا لأن معرفتي باللغة الأميركية ناقصة إلى حد بعيد. وهو يبدو رهيباً. ولكن لا تغضَبْ بسبب من ذلك. دعني أغضب نيابةً عنك.»

ـ «هل تعرفين ما بائع الكرافاتات والقمصان الرجالية الفاشل؟»

ـ «لا.»

ـ «إنه ليس شيئاً معيباً. وإن عندنا كثيراً منهم في بلادنا. هناك واحد، على الأقل، في كل بلدة. لا يا بُنيّتي، أنا مجرد جنديٍ مقاتل، وهذا أحطّ شيء على سطح الأرض. وبهذا الوصف أستطيع أن أخوض الانتخابات مرشحاً عن آرلينغتون[1]، إذا ما أعادوا الجثة. إن لأسرتي عندئذ حق الاختيار.»

ـ «هل آرلينغتون لطيفة؟»

فقال الكولونيل: «لست أدري. أنا لم أُدْفَنْ هناك قط.»

ـ «أين تُؤْثر أن تُدفن؟»

ـ «هناك في الهضاب،» كذلك قال متخذاً قراراً سريعاً. «في أيما جزء من أجزاء النجاد التي هزمناهم فيها.»

ـ «يخيَّل إليّ أنه ينبغي لك أن تُدْفن في الغرابّا[2].»

---

(1) Arlington، المقبرة الوطنية الأميركية. وتطلق أيضاً على قبر الجندي المجهور.

(2) Grappa مرتفعات جبلية من الألب الشرقي في إيطالية، وقد مرّ ذكرها من قبل. (المعرب)

ـ «في الزاوية الميتة في أيما منحدر مجدور الوجه بالقنابل، شرط أن يرعوا الماشية فوقي في أيام الصيف.»

ـ «وهل لديهم ماشية هناك؟»

ـ طبعاً. إن لديهم دائماً ماشية في الأماكن التي ينبت فيها العشب الصالح أيام الصيف. وبنات البيوت العليا ـ القوية البناء، أعني البيوت والبنات معاً ـ التي تقاوم الثلج في الشتاء، ينصِبْن الأشراك للذئاب في فصل الخريف بعد أن ينزلن الماشية من الأعالي. إنها تغتذي على أكداس التبن المُثقَّلة بالأعمدة الخشبية.»

ـ «ولست تريد آرلينغتون أو «الأب لاشيز»[1] أو ما عندنا هنا؟»

ـ «أريد مقبرتكم البائسة.»

ـ «أنا أعلم أنها أتفَهَ ما في البلدة (town). أو على الأصح أتفه ما في المدينة city. لقد تعلَّمت منك أن أدعو كل مدينة بلدة، ولكني سأحرص على أن أراك تذهب حيث تشاء الذهاب، ولسوف أذهب معك إذا أحببْتَ ذلك.»

ـ «لست أحب ذلك. إن هذا هو الشيء الوحيد الذي يقوم به كل منا على انفراد. مثل الذهاب إلى الحمّام.»

ـ «لا تكن وعراً، أرجوك.»

ـ «عنيت أني أحب أن تكوني معي. ولكن هذه عملية أنانيةٌ جداً، وبشعةٌ جداً.»

وأمسك عن الكلام، واستغرق في تفكير عميق، ولكنْ في موضوع آخر وقال: «لا. سوف تتزوجين، وترزقين خمسة أولاد، وتسمّينهم كلهم ريكاردوس...»

ـ «قلب الأسد» كذلك قالت الفتاة، مُرْتضيةً الوضع من غير أن

(1) Pere Lachaise مقبرة باريس الرئيسية. (المعرب)

تلقي ولو مجرد نظرة، لاعبةً بالورقات التي في يديها كما يلقي المرء بجميع أوراقه بعد أن يكون قد حسب في دقة وضبط.

فقال الكولونيل: «قلب القملة. الناقد الظالم اللاذع الذي يطعن في الناس جميعاً.»

فقالت الفتاة: «لا تكن خشناً في حديثك، أرجوك. وتذكَّر أنك تطعن أسوأ ما تطعن في نفسه. ولكنْ ضمّني إليك بأقصى ما تستطيع، ولنحاول أن لا نفكِّر في شيء.»

وضمّها إلى صدره بأقصى ما استطاع، وحاول أن لا يفكِّر في شيء.

[30]

كان الكولونيل والفتاة مستلقيين على السرير، في سكون، وحاول الكولونيل أن لا يفكّر في شيء، كما فعل حين أحجم عن التفكير في أيما شيء مرّات كثيرة في أماكن كثيرة. ولكن ذلك امتنع عليه هذه المرة. لقد امتنع عليه منذ اليوم، لأن الأوان كان قد فات.

إنهما لم يكونا عُطيلاً ودَيدمونة، بحمد اللّه، برغم أنهما كانا في المدينة نفسها، وبرغم أن الفتاة كانت من غير ريب أملح وجهاً من بطلة شكسبير، وبرغم أن الكولونيل قد خاض غمرات القتال بقدر ما خاضها المراكشي المهذار(1) أو أكثر.

إنهم جنود ممتازون، كذلك قال في ذات نفسه. أولئك المراكشيون الراعبون. ولكن ما أكثر الذين صُرِعوا منهم في أيامي! أحسب أننا قتلنا منهم أكثر من جيل كامل إذا ما أدخلتَ في الحساب آخر حملة جُرِّدت على عبد الكريم(2). لقد كان عليك أن تقتل كلاً منهم على حِدَة. إن أيما امرئ لم يقتلهم قطّ جماعاتٍ، كما قتَلْنا النمساويين قبل أن يكتشفوا آينهايت.»

وقال: «بنيّتي! هل تريدينني فعلاً أن أحدثك عن الحرب، لكي تعلمي، إذا لم أكن خشناً في حديثي عنها؟»

---

(1) يقصد عطيلاً. (المعرب)

(2) يقصد الأمير عبد الكريم الخطابي، البطل المراكشي الشهير. (المعرب)

ـ «إني لأحب أن تحدثني عنها أكثر مما أحب أي شيء آخر. إذ يصبح في ميسوري عندئذ أن أشاركك إياها.»

ـ «هي أرق من أن أستطيع قطعها لتشاركيني إياها. إنها كلها لكِ، يا بنيَّتي. وحديثي عنها سوف يقتصر على الخطوط الكبرى ليس غير. فأنتِ لن تطيقي فهم الحمَلات في تفصيل، وقليلٌ هم أولئك الذين يطيقونه. إن روميل قد يطيق ذلك. ولكنهم كانوا يبقونه دائماً تحت غطاء كثيف في فرنسة؛ وإلى هذا فقد كنا دمَّرنا مواصلاته. لقد دمرها سلاحا الطيران الحربيان. سلاحنا وسلاح الطيران الملكي RAF ولكني أتمنى لو أستطيع أن أجاذبه أطراف الحديث في بعض الشؤون. أني لأحب أن أتحدث إليه وإلى أرنست أوديت.»

ـ «حَسْبَك أن تخبرني ما الذي تتمناه، وخذ كأس الفالبوليشيلا هذه، وأمسك عن الكلام إذا كان فيه ما يوقع في نفسك الاشمئزاز. أو أحجم عن رواية ذلك كله بالمرة.»

ـ «كنت عند البدء كولونيلاً رديفاً أو كولونيل «تبديل»، كذلك شرح في احتراس. وكولونيلات التبديل كولونيلات متسكعون يوضعون تحت تصرف قائد الفرقة العسكرية لكي يحلُّوا محل زميل لهم صُرع في الميدان، أو أُعفي من القيادة. إن أياً منهم، تقريباً، لم يُصرع في الميدان؛ ولكن كثيراً منهم كانوا يُعفون من القيادة. إن جميع الكولونيلات الممتازين يُرَقَّون. ويُرَقَّون في سرعة عندما تبدأ الحرب في إضرام ما يشبه نيران الغابات.»

ـ «تابع من فضلك. هل آن لك أن تأخذ دواءك؟»

فقال الكولونيل: «إلى الجحيم بدوائي. وإلى الجحيم بالقيادة العليا للقوات الحليفة الموجَّهة إلى أوروبة SHAEF.»

فقالت الفتاة: «لقد شرحت ذلك لي من قبل..»

ـ «لشدّ ما أتمنى لو كنت جندياً بما تتمتعين به من عقل نيّر وذاكرة حلوة.»

ـ «إني لأتمنى أن أكون جندياً إذا استطعت أن أقاتل تحت إمرتك.»

فقال الكولونيل: «حذارِ أن تقاتلي تحت إمرتي في أيما يوم. أنا حذِر. ولكني غير محظوظ. كان نابوليون يريد من جنوده أن يكونوا محظوظين، ولقد كان على صواب.»

ـ «لقد كان لنا بعض الحظ.»

فقال الكولونيل: «نعم. حظ حسن وحظ سيّئ.»

ـ «ولكنه كان كله حظّاً.»

فقال الكولونيل: «طبعا. ولكن المرء لا يستطيع أن يقاتل استناداً إلى الحظ ليس غير. إنه مجرد شيء يحتاج إليه المقاتل. والذين قاتلوا استناداً إلى الحظ ليس غير ماتوا كلهم ميتة ماجدة مثل سلاح الفرسان في جيش نابوليون.»

ـ «لماذا تكره سلاح الفرسان؟ إن الكثرة الكبيرة من الفتيان الطيبين الذين عرفتهم كانوا في فرق الفرسان الثلاث الممتازة أو في الأسطول.»

ـ «أنا لا أكره أيما شيء، يا بنيّتي،» قال الكولونيل ذلك، ورشف قليلاً من الخمر الحمراء الخفيفة الصِرف التي كانت ودوداً مثل بيت أخيك، إن كنت أنت وأخوك صديقين حميمين. «كل ما في الأمر أن لي وجهة نظر خاصة، انتهيتُ إليها بعد تفكير متروٍّ، وعلى أساس من تقدير لمَقْدراتهم.»

ـ «هل هم غير صالحين فعلاً؟»

فقال الكولونيل: «إنهم تافهون.» ثم أضاف، وقد تذكَّر أن يكون دمثاً: «في عصرنا هذا.»

ـ «كلُّ يوم يزيل الغشاوة في أبصارنا.»

ـ «لا. كلُّ يوم هو تمويه جديد ورائع. ولكن في ميسوركِ أن

تقطعي كل ما هو خادع في ذلك التمويه وكأنكِ تقطعينه بحدّ موسى مستقيمة النصل.»

ـ «أرجوك أن لا تقطعني أبداً.»

ـ «أنتِ لست قابلةً للقطع.»

ـ «هل لك أن تقبّلني وتضمّني إلى صدرك في قوة، ثم وبعد ذلك نرنو معاً إلى القناة العظمى حيث النور فاتنٌ الآن، وتزيدني من حديثك؟»

وفيما هما يرنوان إلى القناة العظمى حيث كان الضوء، في الواقع، فاتناً، تابع الكولونيل حديثه فقال: «قد قُدْت كتيبة لأن الجنرال أعفى من المهمة غلاماً كنت قد عرفتُهُ منذ كان في الثامنة عشرة من العمر. إنه لم يكن غلاماً حين أعفي، طبعاً، ولكن قيادة تلك الكتيبة كانت فوق ما يطيق، على حين كانت هي أقصى ما طمحت إليه في أيما يوم من الأيام، في هذه الحياة، حتى خسرتُها.» ثم أضاف: «بحكم الأوامر، طبعاً.»

ـ «ولكن كيف يخسر المرء كتيبة من الكتائب؟»

ـ «عندما تحاول أن تصعد في النجاد ويكون كل ما يتعيَّن عليك أن تفعله هو أن تلوح براية، فيتداولون في الأمر، ويبرزون إذا كنت مصيباً. إن المحترفين شديدو الذكاء، ولقد كان هؤلاء النمساويون كلهم محترفين؛ لا المتعصبون. ويرن جرس الهاتف، ويتلفن شخص ما من الضباط، شخص مزوَّد بأوامر من الجيش، أو ربما من «القيادة العليا للقوات الحليفة الموجهة إلى أوروبة SHAEF» نفسها، لأنهم كانوا قد قرأوا اسم البلدة في صحيفة ما ـ ولعل أحد المراسلين هو الذي بعث به من «سبا»[1] ـ وينقل إليك الأوامر: أن تستولي على

---

(1) Spa منتجع صحي في شرقي بلجيكة، جنوب شرقي ليبج Liegeد وهو مشهور بينابيعه المعدنية.

البلدة بالسلاح الأبيض. وهذا شيء مهم جداً، لأن المسألة تسرَّبت إلى الصحف. إن عليك أن تهاجم وتستولي على المدينة بالسلاح الأبيض!

«وهكذا تُخَلِّفَ إحدى السرايا مَيْتة على طول الجزء الأعلى من الوادي. وتخسر سَرِّية أخرى برمّتها، وتدمَّر ثلاثاً أخريات. إن الدبابات لتُسحَقُ بمثل السرعة التي تتحرك بها، ولقد كان في ميسورها أن تتحرك في خفة إلى أمام وإلى وراء.

«ويقذفونها بالقنابل: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة.»

«إن ثلاثة رجال يخرجون عادة من أصل الخمسة (الذين هم في داخلها)، ويركضون في غير نظام مثلا لاعبين شاعت الفوضى في ساحتهم حين تكونين أنتِ مينيزوتا، ويكون الآخرون بيلوا من أعمال ويسكونسون.[1]»

«هل أوقِـع الضجر في نفسك؟»

ـ «لا. أنا لا أفهم هذه الإشارات المحلية. ولكن في استطاعتك أن تشرحها حين يحلو لك ذلك. أرجوك أن تواصل تحديثي.»

ـ «وتدخلين البلدة، فيشُنُّ غرّ وسيمٌ حملةً جوية من فوقك. ومن الجائز أن تكون هذه الحملة تنفيذاً لأمر قد صدر، ثم لم يُلْغَ البتة. فلنمنح كل امرئ فرصة الاستفادة من الشك. أنا لا أزيد على تصوير الأشياء لك بطريقة إجمالية. فمن الخير أن لا أوغل في التفاصيل، لأن المدني لا يفهمها حتى أنتِ لن تفهميها.»

«وهذه الحملة الجوية لا تساعدك كثيراً، يا بنيّتي. إذ ربما تعجزين عن البقاء في البلدة لأن عدد جنودك قد أمسى هزيلاً جداً،

---

(1) Minnesota وويسكونسون Wisconsin ولايتان أميركيتان، وبيلو Beloi مدينة في ولاية ويسكونسون. (المعرب)

ولأنك تكونين منهمكة الآن في رفعهم عن حصباء الطريق أو في تركهم على حصباء الطريق. إن ثمة مذهبين أو «مدرستين فكريتين» في هذا الموضوع. وهكذا يطلبون إليك أن تحتلي البلدة بالسلاح الأبيض. وهم يكررون ذلك.»

«وقد أُيد هذا تأييداً قاطعاً من قِبَل سياسيٍّ يرتدي ثوباً عسكرياً، سياسيٌّ لم يَقْتل أحداً في حياته كلها، إلا وفمُهُ فوق سماعة التلفون، أو على الورق، ولم يُصَبْ قط بأيّ جرح. تصوّريه مثل رئيسنا القادم إذا شئتِ. تصوَّريه كيفما أحببتِ. ولكنْ تصوّريه وقومَهُ، مؤسسة العمل التجاري العظمى كلها، بعيدين عن الجبهة إلى درجة تجعل الطريقةَ الفضلى للاتصال بهم في سرعة هي اصطناعَ حمام الزاجل. باستثناء أنهم قد ينزعون ـ مع ذلك القدر من الاحتراس الذي التزموه لسلامة أشخاصهم هم ـ إلى تصويب نيران مدافعهم المضادة للطائرات لإسقاط تلك الحمائم. إذا استطاعوا أن يصيبوا منهم مقتلاً.»

«وهكذا تعاودين ذلك كرة أخرى. ولسوف أنبئك، في ما بعد، كيف يكون ذلك.»

ورفع الكولونيل بصره إلى اضطراب الضياء على سقف الحجرة. كان الضياء منعكساً، بعضُهُ لا كلُّهُ، من القناة العظمى. وقد أحدث حركاتٍ غريبة، ولكنها مطَّردة، متغيّرة، كما يتغير تيار جدولٍ من سمك الأطروط، ولكنها باقيةٌ، برغم تغيُّرها مع حركة الشمس.

ثم إنه نظر إلى جميلته الساحرة، بوجهها الغريب الأسمر، الشبيه بوجه طفلٍ شب عن الطوق، فتفطَّر قلبه وقد تذكَّر أنه سوف يرتحل و(ذلك أمر لا ريب فيه). قبل الساعة الثالثة عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين، فقال: «فلنُقلع عن الكلام على الحرب، يا بُنيّتي.»

فقالت: «أرجوك، أرجوك. أنا أريد أن أتزوَّد من حديثك لهذا الأسبوع كله.»

ـ «هذا نص حُكْم sentence موجز. أنا أستعمل هذه اللفظة بمعناها الجنائي، كما تقولين: نص الحكم بالسجن[1].»

ـ «أنتَ لا تدري كم قد يتطاول الأسبوع ويتطاول، حين يكون المرء في التاسعة عشرة.»

فقال الكولونيل: «لقد عرفتُ، مراتٍ عديدة، كم قد تتطاول الساعة وتتطاول.. وفي استطاعتي أن أخبرك إلى أي حدّ قد تطول الدقيقتان ونصف الدقيقة أيضاً.»

ـ «أرجوك أن تخبرني.»

ـ «حسناً، لقد قضيت إجازة يومين في باريس بين معركة «شني ـ إيفل» وهذه المعركة. ونظراً للصداقة التي كانت تربطني مع رجل أو رجلين من كبار المسؤولين مُنِحتُ شرف حضور اجتماع لم يشهده غير من كانوا موضع الثقة والاعتماد، اجتماع شرح لنا فيه الجنرال والتر بيدل سميث إلى أي حد سوف تكون هينة يسيرةً تلك العملية التي حملت بعدُ اسم عملية غابة هورتجين. إنها لم تكن غابة هورتجين فعلاً. لقد كانت قطاعاً صغيراً ليس غير. لا، لقد كانت هي ستانزوولد، وكان ذلك هو الموضع الذي اختارته القيادة الألمانية العليا، بحق، للقتال بعد أن احتُلت «آخن» وبعد أن قُطِعت الطريق إلى ألمانيا. أنا أرجو أن لا يكون في هذا الكلام ما يُضجركِ.»

ـ «أنت لا تضجرني أبداً. وليس في حديث الحرب ما يضجرني غير الأكاذيب.»

ـ «أنت فتاة غريبة!»

فقالت: «نعم. لقد عرفتُ ذلك من عهد بعيد.»

ـ «هل تحبين أن تقاتلي فعلاً؟»

(1) في الأصل تلاعب لفظي بين كلمة sentence بمعنى «الجملة»، وكلمة sentence بمعنى «الحكم».

ـ «لست أدري ماذا كنت أستطيع القتال. ولكنْ يجدر بي أن أجرّب إذا ما علَّمْتني.»

ـ «لن أعلِّمك أبد الدهر. سوف أكتفي برواية بعض الحكايات على مسمعك.»

ـ «حكايات حزينة عن موت الملوك.»

ـ «لا. عن الجنود الأميركيين أو الـ GIs كما سمّاهم بعضهم. واللَّه يعلم كم أكره هذه اللفظة وكيف استُعملت. قراء كتب هزلية مصورة. وكلهم من مكان بعينِهِ. ومعظمهم قد سيقوا إلى هناك برغمهم. لا كلهم. ولكنهم جميعاً يقرأون صحيفة تدعى «النجوم والخطوط». ولقد كان يتعيَّن عليك أن تغري كتيبتك بمطالعتها، وإلا كنت قائداً مخفقاً. ولقد كنت أكثر القادة إخفاقاً. لقد حاولت أن أحب مراسلي الصحف، وكان فريق من خيارهم يشهدون ذلك الاجتماع. أنا لن أسمّي أسماء، لأني قد أُغفِلُ بعض الممتازين منهم، وفي ذلك ظلم وعدم إنصاف. لقد كان ثمة مراسلون صالحون غابت أسماؤهم عن ذاكرتي. ثم كان هناك مراوغون اختيروا بالقرعة، وزائفون كان من دأبهم أن يزعموا أنهم جُرحوا إذا مستهم قطعة معدنٍ مُسْتَنفَدة، وجماعة يحملون وسام «القلب الإرجواني» بسبب من حادث سيارة جيب، ومطلعون على بواطن الأمور، وجبناء، وكذابون. ولصوص، ومسرفون في استخدام التلفون. ولقد غاب عن هذا الاجتماع بعض الموتى. فقد كان لهم موتاهم. نسبةٌ منهم كبيرة. ولكن أياً من الموتى لم يشهد الاجتماع، كما قلت. لقد شهده بعض الناس ولكن في ثياب عسكرية رائعة.»

ـ «ولكن كيف تزوجت في يوم من الأيام واحدة منهم؟»

ـ «بالغلط، كما أوضحت لكِ من قبل.»

ـ «تابع تحديثي.»

ـ «كان في الحجرة عدد من الخرئط أكثر من ذلك الذي يستطيع

سيدنا المسيح أن يقرأه في أحسن أيامه.» كذلك تابع الكولونيل «فهناك الخراط الكبيرة، والخرائط المبالغ في تكبيرها. ولقد تظاهر أولئك القوم كلهم بأنهم فهموها، كما فعل الجنود حاملو المؤشرات، وهي ضرب من عِصِيّ البليارد نصف الشرجية وكانوا يصطنعونها للشرح والتفسير.»

ـ «لا تنطق بكلمات فاحشة. ومع ذلك فأنا لا أدري ما معنى نصف الشرجية. هذه.»

ـ «إنها تعني: مختصرة، أو موجزة على نحو لا يفي بالمرام.» كذلك شرح الكولونيل. «وقد تستعمل لوصف إداة ما، أو خُلُق ما، بالنقص. إنها كلمة عتيقة. ولعلك تجدينها في السنسكريتية.»

ـ «أرجوك أن تواصل تحديثي.»

ـ «ولِمَ؟ وما الذي يحملني على تخليد العار بفمي؟»

ـ «سوف أكتب ذلك إذا شئتَ. في استطاعتي أن أكتب، في أمانة، ما أسمعه أو أفكّر فيه. طبعاً قد ارتكب بعض الأخطاء.»

ـ «إذا استطعت أن تكتبي، في أمانة، كل ما تسمعينه أو تفكّرين فيه كنت فتاة محظوظة من غير ريب. أما أنا فلن أكتب، أبد الدهر، كلمة واحدة من هذا.»

واستأنف حديثه قائلاً: «كان المكان غاصاً بمراسلين صحفيين ارتدى كل منهم ما شاء له ذوقه أن يرتديه. كان بعضهم نزاعين إلى السخرية، وكان بعضهم شديدي الشوق إلى المعرفة.

«ولتوجيههم كما يوجّه الراعي البارع القطيع، ولاصطناع المؤشّرات على أحسن وجهٍ كان ثمة مجموعة من «صافقي الغدارات». إننا نطلق لقب «صافق الغدارات» على الرجل اللامحارب، المتنكر في بذلة عسكرية أو ربما استطعت أن تدعوها ثوباً رسمياً، والذي يهتاج كلما صفق السلاح على فخذيه أو مسّهما

مسّاً رفيقاً. وبالمناسبة يا بنيّتي فإن الغدارة، لا الغدارة القديمة، ولكن الغدارة الحقيقية، قد أخطأت عدداً من الناس في المعركة أكبر، في أغلب الظن، من عدد الذين أخطأهم أيما سلاح في العالم كله. فلا تدعي أحداً يعطيك غدارة إلا إذا أردتِ أن تضربي الناس بها على رؤوسهم في حانة هاري.»

ـ «أنا لم أرد في أيما يوم من الأيام أن أضرب أحداً؛ إلاّ ـ ربما ـ آندريا.»

ـ «إذا قدِّر لك ذات مرة أن تضربي آندريا فاضربيه بأنبوبة الغدارة، لا بعَقِبها. فالعَقِبُ بطيء إلى حد رهيب، وهو يخطئ الهدف، فإذا أصابه وجدتِ الدم على يديكِ حين تطّرحين البندقية. وأرجوك، أيضاً، أن لا تضربي آندريا أبد الدهر لأنه صديقي. وعلى أية حال، فلست أحسب أنه سوف يكون لقمة سائغة بالنسبة إلى من يرغب في ضربه.»

ـ «وأنا لا أحسب ذلك أيضاً. أرجوك أن تزيدني علماً بأمر ذلك الاجتماع، أو المؤتمر. يخيَّل إليَّ أن في استطاعتي الآن أن أميّز صافقي الغدارات من غيرهم. ولكنني أريد أن يكون علمي بهذه الأشياء أدق وأعمق.»

ـ «حسناً، لقد كان صافقو الغدارات، بكامل فخار اصطفاق غداراتهم، ينتظرون وصول الجنرال العظيم المكلَّف بشرح العملية.»

«كان المراسلون يغمغمون أو يغرّدون، وكان الأذكياء منهم عابسين أو مبتهجين ابتهاجاً سلبياً. لقد استوى كل منهم على كرسي قابلة للانطواء وكأنه أقبل لسماع محاضرة من محاضرات مركز التربية الصيفي في تشوتوكا[1]. أنا آسف لاستخدامي هذه التعابير المحلية، ولكننا شعبٌ محلّيّ.»

---

(1) Chautauqua قرية جنوب غربي نيويورك، على بحيرة تشوتوكا. (المعرب)

ـ «ويدخل الجنرال الحجرة. إنه ليس صافق غدارات، ولكنه رجل أعمال كبير؛ وسياسي ممتاز، من النوع التنفيذي وكان الجيش، آنذاك، هو أكبر المشروعات التجارية في العالم. ويتناول الجنرال المؤشّرة نصف الشرجية، ويُرينا، في إيمان كامل، ومن غير هواجس مشؤومة، كيف سيجري الهجوم تماماً، والسبب الذي من أجله نشنّه، وكيف سينجح في سهولة ويُسْر. فليس ثمة مشكلة.»

فقالت الفتاة: «تابع. أرجوك أن تدعني أترع كأسك، وأرجوك أن تنظر أنت إلى الضوء المنعكس على السقف.»

ـ «أترعيها ولسوف أنظر إلى الضوء، وأتابع الحديث.»

«وحدّثنا بائع ضغط الدم العالي هذا ـ ولست أقول ذلك في غير احترام، ولكن أقوله في إعجاب بمواهبه كلها أو بموهبته ـ عن الأشياء الضرورية التي ستُوَفر لنا. إن أيما شيء مهما يكن لن يُعْوزِنا. وكانت المنظمة المدعوّة «القيادة العليا للقوات الحليفة الموجّهة إلى أوروبا» SHAEF تتخذ من بلدة تدعى فرساي، خارج باريس، مقراً لها. وكان علينا أن نشنّ هجوماً إلى الشرق من «آخن» على مسافة تبعد 380 كيلو متراً من مقرها ذاك.

«في استطاعة الجيش أن يصبح ضخماً، ولكن في استطاعتك أن ترصَّ صفوفه بعض الشيء. وأخيراً تقدَّموا حتى رايمس، التي تبعد 240 كيلو متراً عن ميدان القتال. وكان ذلك بعد شهور عديدة.»

ـ «أنا أفهم الضرورة التي تقضي بأن يكون الرجال التنفيذيون الكبار في نجوة من الاحتكاك برجالهم العاملين. وأفهم شيئاً عن أحجام الجيوش ومختلف المشكلات. بل إني لأفهم علم إطعام الجنود وإيوائهم في الميدان، وهو شيء غير عسير ولكن التاريخ لم يعرف أيما قائد قادَ جيوشه من على مثل هذا البعد.»

ـ «حدّثني عن المدينة.»

فقال الكولونيل: «سوف أحدِّثكِ، ولكني لا أريد أن أؤذيك.»

- «أنت لا تؤذيني أبداً. إن مدينتنا مدينة عتيقة، ولقد كان لنا دائماً رجالنا المقاتلون. إننا نحترمهم أكثر من احترامنا جميع الفئات الأخرى، وأحسب أننا نفهمهم كأناس، يوقعون أعظم الضجر في نفوس النساء.»

- «هل أُوقع أنا الضجر في نفسك؟»

فسألته الفتاة: «ما رأيك أنت؟»

- «أنا أُضْجر نفسي، يا بُنَيَّتي.»

- «لست أظن ذلك، يا ريتشارد. لقد كان خليقاً بك أن لا تعمل أيما شيء طوال حياتك. لا تكذب عليّ، أرجوك، يا حبيبي، بعد أن لم يبق لدينا غير متسع من الوقت قصير.»

- «لن أكذب.»

- «ألا ترى أنك في حاجة إلى إنبائي ببعض الأشياء لكي تنفض عن نفسك غمّها؟»

- «أنا أعلم أني أنبئك بها.»

- «ألا تعلم أني أريدك أن تموت متمتعاً بنعمة موت سعيد؟ أوه. لقد بدأت أرتبك. لا تدعني أرتبك أكثر مما ينبغي.»

- «لن أدَعكِ، يا بُنَيّتي.»

- «زدني من أحاديثك، واستسلم للمرارة والغمّ ما شئت.»

[31]

وقال الكولونيل: «اسمعي، يا بنيّتي. سوف نكف الآن عن كل إشارة إلى السحر الخادع وإلى النحاس الأصفر الرفيع[1]، حتى ولو كان من كانساس[2]، حيث ينمو النحاس الأصفر ويرتفع إلى أعلى مما يرتفع «برتقال أوسايج[3]» على طريقك. إن هذا البرتقال يحمل ثمراً لا يستطيع المرء أن يأكله، وهو كانساسيّ خالص. فلم يقدَّر قط لأحد غير أهل كانساس أن تكون له علاقة به، ربما باستثنائنا نحن الذين خضنا غمار الحرب. لقد أكلنا منها كل يوم، من برتقالات أوسايج أعني. «كذلك أضاف الكولونيل،» ولكننا كنا ندعوها جرايات كانساس K. Ratioas. إنها لم تكن رديئة. (أما جرايات مخزن التموين العسكري C. Rations فكانت رديئة.) كانت أكثريتها جيدة.

«وهكذا قاتلنا. إن ذلك رتيب ولكنه مُثقَّف. وفيما يلي الطريقة التي يتم بها القتال إذا كان ثمة من يتوق إلى معرفة ذلك، وهو ما أشك فيه.»

---

(1) يرمز بذلك إلى قادة الجيش الكبار. (المعرب)

(2) ولاية في أواسط الولايات الأميركية المتحدة. (المعرب)

(3) شجر يشبه ثمره برتقالاً كثير التآليل والبثور، وهو ينسب إلى نهر أوسايج Osage بالولايات الأميركية المتحدة، الذي يجري من شرقي ولاية كانساس إلى نهر الميسوري، ويتخذ منه المزارعون أسيجة أو وشائع لحماية أراضيهم من الواغلين والمتطفلين. (العرب)

«إنه يجري هكذا: «الساعة الثالثة عشرة «ريد أس ثري» Red S-3: لقد وثب «هوايت» (الأبيض) في الموعد المعين. وقال «ريد» (الأحمر) إنهم كانوا ينتظرون ريثما يندفعون في آثار هوايت. وفي الساعة 13,5 (يعني الساعة الواحدة وخمس دقائق بعد الظهر، إذا استطعت أن تتذكري ذلك، يا بنيَّتي) يقول «بلو (الأزرق) أس ثري» Blue S-3 ـ وأحسب أنكِ تعرفين ماذا تعني S-3 هذه ـ: «دعونا نعرف متى ينبغي أن نتحرك» فيقول «ريد» إنهم كانوا ينتظرون ريثما يندفعون في آثار هويات.

«في ميسورك أن تَريْ أن ذلك هين جداً.» كذلك قال الكولونيل للفتاة. «كان على كل امرئ أن يفعل ذلك قبل فطور الصباح.»

فقالت له الفتاة في رقة: «ليس في استطاعتنا كلنا أن نكون مشاةً مقاتلين. أنا أحترم سلاح المشاة أكثر من أي شيء آخر، ما عدا الطيارين البارعين الأمناء. تحدَّث، أرجوك، إني أغْني بك.»

فقال الكولونيل: «الطيارون البارعون بارعون، ويجب أن يُحترموا بهذا الوصف.»

ورفع بصره إلى الضياء المضطرب على السقف، واستبد به الغم لتذكره كيف خسِر كتائبه، وأناساً بعينهم. وعلى أية حال، فإنه لم يحلم بأن تكون له مثل تلك السَّرية. إنه لم ينشئها إنشاءً. لقد ورثها وراثة. ولكنها كانت، إلى حين، مبعث ابتهاجه الأعظم. وها إن واحداً من كل اثنين من رجالها قد مات، على حين أصيب سائرهم تقريباً، بجراح مختلفات في البطن، في الرأس، في القدمين أو اليدين، في العنق، في الظهر، في العجز المحظوظ، في الصدر النكِد الطالع، وفي أماكن أخرى. لقد أدى انفجار القنابل خلف الأشجار إلى إصابة رجاله بجراح حيثما نجوا من تلك الجراح في الأرض الفضاء. ولقد كانت جراح الجرحى كلهم سرمديةً.

وقال: لقد كانت سَرِيَّة حسنة. بل إن في إمكانكِ أن تقولي إنها

كانت سَرية ممتازة إلى أن أهلكْتُها بتنفيذي أوامر أصدرها الآخرون إليّ.»

ـ «ولكن ما الذي حملك على تنفيذ كل الأوامر ما دمت مدركاً خطلها؟»

فأجابها الكولونيل موضحاً: «في جيشنا ينفِّذ القائد الأوامر كالكلب. إن أحدنا ليتوهم دائماً أن سيده رجلٌ طيب.»

ـ «ومن أي «نوع أسيادك؟»

ـ «لقد حظِيتُ حتى الآن بسيدين صالحين. بعد أن بلغت مستوى ما في القيادة، حظيت بكثير من الجنود الممتازين، ولكني لم أحظ بغير سيدين اثنين صالحين.»

ـ «وهل هذا هو السبب الذي من أجلهِ لستَ الآن جنرالاً؟ لقد كنت أوثر أن أراك جنرالاً.»

فقال الكولونيل: «وأنا أيضاً كنت أوثر أن أرى نفسي جنرالاً. ولكن ليس بهذه الشدة كلها، في أغلب الظن.»

ـ «هل لك أن تحاول الاستسلام للرقاد، لكي تدخل السرور على نفسي؟»

فقال الكولونيل: «نعم.»

ـ «الذي يتراءى لي هو أنك إن نمتَ تخلَّصت منهم جميعاً، لمجرد استغراقك في الرقاد.»

فقال: «نعم»، أشكرك شكراً جزيلاً.»

لم يكن في اليد حيلة، أيها السادة. كل ما على المرء أن يفعله هو الطاعة.

[32]

ـ «لقد نمتَ نوماً عميقاً جداً فترةً من الزمن،» كذلك قالت الفتاة له في محبة ورفق. «هل ثمة أيما شيء تريدني أن أفعله؟»

فقال الكولونيل: «لا شيء. شكراً.»

ثم إن السخرية اللاذعة غلبت عليه فجأة، فقال: «في استطاعتي، يا بنيّتي، أن أنام نوماً عميقاً حتى على الكرسي الكهربائي وقد شُقّ بنطالي بالطول، وجُزّ شعر رأسي جزّاً. أنا أنام كيفما احتجت إلى النوم وأينما احتجت.»

فقالت الفتاة وقد داعب النعاس جفنيها: «أنا لا أستطيع أن أكون هكذا البتة. أنا أنام حين يستبد بي النعاس.»

فقال لها الكولونيل: «أنتِ فاتنة. وإنك لتنامين خيراً مما نام أيما امرئ في أيما يوم.»

فقالت الفتاة جدَّ ناعسة: «أنا لست فخورة بذلك. إنه مجرد شيء أقوم به ليس غير.»

ـ «قومي به، أرجوك.»

ـ «لا. حدثني في كثير من الأناة والرقة، وضع يدك الشائهة في يدي.»

فقال الكولونيل: «إلى الجحيم بيدي الشائهة. منذ أن أمست شائهة إلى هذا الحد.»

فقالت الفتاة: «إنها شائهة. أشدّ شَوْهاً مما سوف تعلم في أي يوم من الأيام، أرجوك أن تحدّثني عن القتال من غير أن تكون وحشياً أكثر مما ينبغي.»

فقال الكولونيل: «مهمة سهلة. سوف أطوي الزمان على نحو خاطف: الجو غائم، والمكان هو 986342. ما الموقف؟ نحن نُذْخِنُ العدوَّ بقنابل المدفعية والهاون. ويُعْلمنا «أس ثري» S-3 أن (أس سيكس) S-6 يريد من «ريد» أن يضرب ضَرْبته في الساعة السابعة عشرة. إن «أس سيكس» S-6 يريدك أن تضرب ضربتك وأن تستخدم عدداً كبيراً من المدافع. ويبعث «هوايت» بتقرير يقول فيه إن وضعهم حسن. ويحيطنا «أس سيكس» S-6 علماً بأن السَّرِيّة «أ» A سوف تستدير وتنضم إلى السرية «ب» B.

«لقد صدّ العدو السرِيّة «ب» B، بادئ الأمر، عن سبيلها؛ ومن ثمّ لبثت هناك بطَوْعها. إن أحوال «أس سيكس» S-6 ليست على ما يرام. ولكن هذا نبأ غير رسمي. إنه يريد عدداً من المدافع أكبر، ولكن لم يعد ثمة مزيد من المدافع.

«لماذا أردت أن تسمعي حديث القتال؟ أنا لا أدري، في الواقع، لماذا. أو أدري، في الواقع، لماذا. ومن ذا الذي يرغب في القتال الحقيقي فعلاً؟ ولكن إليك به، على التلفون أولاً، وبعد ذلك سوف أُضيف الأصوات والروائح والحكايات عن أولئك الذين قُتلوا، ومتى وأين، إذا أردت ذلك.»

ـ «أنا لا أريد إلا ما سوف تُخبرني به.»

فقال الكولونيل: «سوف أُخبرك كيف كان ذلك. والجنرال والتر بيدل سميث لا يزال جاهلاً، حتى اليوم، كيف كان ذلك. ولكن من الراجح أن أكون مخطئاً، كما كنت مراتٍ كثيرة.»

فقالت الفتاة: «أنا سعيدة لعدم اضطرارنا إلى معرفته أو إلى معرفة الرجل النايلونيّ النعومة.»

فأكد لها الكولونيل: «لن نكون مضطرين إلى معرفتهم في هذا الجانب من الجحيم. ولسوف أقيم على أبواب الجحيم حرساً لكي يحولوا بين شخصيات كهذه وبين الدخول.»

فقالت ناعسة: «في كلامك هذا ما يذكرني بدانتي.»

فقال: «أنا مستر دانتي. مؤقتاً على الأقل.»

ولقد كان كذلك، في الحق، طوال برهة قصيرة، ورسم جميع الدوائر. كانت جائرةً كدوائر دانتي، ولكنه رسمَها.

[33]

وقال الكولونيل: «سوف أُغفل الجزء التفصيلي ما دمتِ ـ وهذا من حقك بل من واجبك ـ قد غلب عليك النعاس» وراقب، مرّة أخرى، اضطراب الضوء العجيب على السقف. ثم نظر إلى الفتاة التي كانت أجمل من أيما فتاة قدر له أن يراها عُمرَه كله.

كان قد رآهن يجئن ويرُحْن، وإنهن ليرُحن ـ حين يَرُحن ـ بأسرع مما يروح أيما شيء من ذوات الأجنحة. إن في استطاعتهن أن يرُحن من الجمال النَّضْر إلى البشاعة المسنَّة بأسرع من أيما حيوان آخر، كذلك قال في ذات نفسه. ولكني أعتقد أن هذه قادرة على كبح جماح الخُطى، ومواصلة السير حتى النهاية. إن السمراوات ليحتفظن بجمالهن أكثر من غيرهن، كذلك قال في ذات نفسه. ونظر إلى التكوين المعروق في ذلك الوجه. وهذه الفتاة ذات محتدٍ كريم، وفي استطاعتها أن تَخْلُدَ على الدهر. إن الكثرة الكبرى من جميلاتنا الفاتنات يتحدَّرْن من الحاجز الخشبي في مشارب الصودا، ولسن يعرفن الجزء الأخير من اسم جدّهن، إلا إذا كان شولتز Schultz أو ربما شليتز Schlitz؛ كذلك قال في ذات نفسه.

ـ «هذا هو الموقف الخاطئ يتخذه المرء،» كذلك خاطب نفسه، إذ لم يكن راغباً في التعبير عن أي من هذه المشاعر للفتاة، التي لن تحبها على أية حال، والتي كانت الآن مستغرقة في نوم عميق، شبيه بنوم الهرة حين ترقد ملتفّة على نفسها.

ـ «نامي نوماً جيداً، يا أعز حبيب، ولسوف أتابع حديثي على غير طائل.»

كانت الفتاة نائمة، وهي لا تزال ممسكة بيده الشائهة، التي ازدراها، ولقد كان في ميسوره أن يستشعرها تتنفّس، كما يتنفس الصغار حين يستسلمون للرقاد في سهولة ويسر.

وحدثها الكولونيل بكل شيء عن القتال، ولكنه لم ينطق به نطقاً.

وهكذا بعد أن حظينا بسماع الجنرال والتر بيدل سميث يشرح سهولة الهجوم، قمنا به. كان ثمة «الفريق الأحمر الكبير» الذي آمن بشعبيّته الخاصة. وكان ثمة الفرقة التاسعة، التي كانت أفضل منا نحن. وكان ثمة نحن، الذين قمنا دائماً بالهجوم كلما سُئلنا أن نقوم به.

ولم يكن لدينا متسع من الوقت لقراءة الكتب الهزلية المصورة، ولم يكن لدينا متسع لأيما شيء تقريباً، لأننا كنا نزحف دائماً قبل بزوغ الفجر، وهذا أمر عسير، عليك أن تنبذ «الصورة العظمى» وأن تكون فرقة عسكرية.

ارتدينا شارة البرسيم ذات الورقات الأربع، التي لم تكن لتعني شيئاً عند أحد من الناس، ما عدانا نحن الذين أحببناها كلنا. وكنت أنا كلما وقع نظري عليها يحدثُ في أحشائي شيء لا يتبدّل البتة. لقد حسبَها بعض الناس لبلاباً، ولكنها لم تكن كذلك. لقد كانت برسيماً ذات ورقات أربع متنكراً في صورة لبلاب.

وكانت الأوامر تقتضينا أن نشنّ الهجوم مع «الفريق الأحمر الكبير» فرقة المشاة الأولى في جيش الولايات المتحدة الأميركية، وكانوا ومنشدهم المُطْلِق أغنية «برو» Pro لا يدعونك تنسى ذلك أبد الدهر. لقد كان غلاماً ظريفاً؛ ولقد كانت تلك هي مهنته.

ولكنك سرعان ما تضيق ذرعاً بروث الخيل، إلا إذا كنت تحب شذاه أو طعمه. أما أنا فلم أكن أحب ذلك. برغم أني أحببت أن

أسير، وأنا غلام، عبر روث البقر وأن أستشعره بين أصابع رجليّ. ولكن روث الخيل يضجر المرء. وهو يضجرني أنا في سرعة بالغة، وفي استطاعتي أن أستروحه من على مسافة ألف ياردة ونيّف.

وهكذا شننّا الهجوم، وثلاثتنا في خط النار، حيث أرادنا الألمان أن نشنه تماماً. إننا لن نشير إلى الجنرال والتر بيدل سميث بعد الآن. إنه ليس الرجل الوغد في تلك المسرحية. لقد أغدق علينا الوعود ليس غير، وشرح كيف يُنتظر أن تسير الأمور. وليس ثمة، في ما أحسب، أي أوغاد في أيما دولة ديموقراطية. كل ما في الأمر أنه كان مخطئاً إلى حد جهنمي. علامة وقف، كذلك أضاف بينه وبين نفسه.

وكانت العصائب الدالة على هويّتنا قد نُزعت كلها حتى عن أذرُع جنود المؤخرة القصوى لكي لا يتمكن أيما ألماني من معرفة من نحن، وكانوا يعرفون الفرق الثلاث التي ستقوم بالهجوم أحسن معرفة. وكنا نعتزم أن نشن الهجوم مندفعين كلنا إلى خط النار غير مُبقين أحداً بعيداً عنه على سبيل الاحتياط. أنا لن أحاول أن أشرح لك ما الذي يعنيه ذلك، يا بنيَّتي. ولكنه ليس بشيء صالح البتة. وكان الموقع الذي سنقاتل فيه، والذي كنتُ قد ألقيت نظرة مليّة عليه، هو باشيندايل بالألغام المنثورة حول أشجارها. أنا أكرر هذا أكثر مما ينبغي. ولكني أفكر فيه أكثر مما ينبغي أيضاً.

وكانت الفرقة الثامنة والعشرون، تلك الفرقة المسكينة الزاحفة إلى يميننا، قد دَبقت أقدامها في الأراضي السبخة فترة من الزمان، وهكذا تيسَّرت لنا معلومات دقيقة إلى حد غير قليل عن الأحوال التي ستواجهنا في تلك الغابة وأحسب أن في استطاعتنا أن نصفها، في اعتدال، فنقول إنها كانت غير ملائمة.

ثم إننا أُمِرنا بأن نقذف بإحدى الكتائب إلى خطوط العدو قبل بدء الهجوم. وهذا يعني أن العدو سوف يأسر جندياً واحداً على الأقل، مما يجعل نزع العصائب الرامزة إلى الفِرَق عملاً أبله ساذجاً.

إنهم سوف يتربصون الدوائر برجالنا حاملي شعار البرسيم ذي الورقات الأربع، أولئك الرجال الذين يجدر بهم أن يندفعوا إلى الجحيم مباشرة مثل بغل من البغال، وأن يفعلوا ذلك طوال مئة وخمسة أيام. إن هذه الأرقام لا تعني شيئاً عند المدنيين، طبعاً. لا، ولا تعني شيئاً عند شخصيات «القيادة العليا للقوات الحليفة الموجهة إلى أوروبة» الذين لم نرهم قط في هذه الغابة. وتشاء المصادفة ـ ولا ريب في أن هذه الأحداث تكون دائماً تصادفية بالنسبة إلى القيادة العليا ـ أن تُفْنى الكتيبة عن بكرة أبيها. ولم تكن هذه غلطة أحد، ولم تكن ـ بخاصة ـ غلطة الرجل الذي أَمَرَ بها. فقد كان رجلاً يجدر بي أن أسعد بإنفاق نصف عمري معه في الجحيم. ومن يدري، فقد أفعل ذلك ذات يوم.

ولا ريب في أنه سوف يكون عجيباً إذا ما تعيَّن علينا بدلاً من أن نذهب إلى الجحيم، كما كنا نأمل دائماً، أن نذهب إلى واحدة من تلك الحانات النمساوية الرخيصة الشبيهة بـ«الفالهالا»[1]، وأن لا نوفق إلى الانسجام مع القوم. ومن يدري، فقد نستطيع أن نفوز بمائدة منزوية نجلس إليها مع «رومل» و«أوديت»، ولسوف يكون ذلك الموطن أشبه شيء بأيما فندق من فنادق الرياضة الشتوية. وأغلب الظن أنه سيكون جحيماً، برغم أني لا أؤمن بالجحيم.

وعلى أية حال، فقد رُمّمت هذه الكتيبة، كما تُرمّمُ الكتائب الأميركية دائماً، من طريق نظام الاستبدال. أنا لن أصف ذلك، لأن في استطاعتكِ دائماً أن تقرأي عنه في أيما كتاب أَلَّفه رجل كان هو نفسه جندياً مستبدلاً. وهو يتلخص في هذه الحقيقة: إنك تبقى هناك حتى تصاب إصابة خطرة أو تُصرع، أو تُخبّل، أو تُمزّق أقساماً

(1) الفالهالا Valhalla: في الميثولوجيا السكندينافية، حجرة الخلود التي تستقبل فيها أرواح الأبطال الذين سقطوا في ميدان القتال.

ثمانية. ولكني أحسب أنه نظام منطقي، ولا يقلّ صلاحاً عن أيما نظام آخر، إذا أخذنا مصاعب المواصلات بعين الإعتبار. وأياً ما كان فإنه يخلّف نواة من بعض الشخصيات التي لم تُصرع في الميدان، والتي تعرف نتائج المعركة، وليس بين هؤلاء من أحب هذه الغابة كثيراً.

وفي استطاعتك أن تُجمل موقفهم في هذه العبارة: «لا تمسَسْني... يا جاك.»

وإذ كنت شخصية لم تُصرع في الميدان طوال ثمان وعشرين سنة فقد كان في استطاعتي أن أفهم موقفهم. ولكنهم كانوا جنوداً، وهكذا فإن أكثرهم صُرع في تلك الغابة وعندما احتللنا تلك المدن الثلاث التي في غاية البراءة والتي كانت في الواقع قلاعاً ومعاقل. لقد بُنِيت على هذا النحو بالذات لإغرائنا، ولم نكن قد سمعنا أية كلمة عنها البتة. ولكي أواصل استخدام لغة مهنتي السخيفة أقول: إن هذا قد يكون مثلاً على «الاستخبارات الخاطئة» وقد لا يكون.

- «إن قلبي ليتفطّر حزناً على تلك الكتيبة.» كذلك قالت الفتاة. كانت قد استيقظت وتكلمت والنوم في عينيها.

فقال الكولونيل: «أجل؛ وكذلك أنا. دعينا نشرب نخبها مرة. وبعد ذلك تستسلمين للرقاد، يا بنيّتي، أرجوكِ لقد انتهت الحرب وأمست خبراً منسياً.»

«أرجوك أن لا تتوهمي إنني مغرور، يا بنيّتي»، كذلك قال من غير أن يتكلم. كانت فتاته التي يحبها حباً صادقاً قد استغرقت في النوم كرة أخرى. لقد نامت بطريقة تختلف عن طريقة فتاته المحترفة. ولم يُحب أن يتذكر كيف كانت فتاته المحترفة تنام؛ بل لقد أحب. ولكنه أراد أن ينساها. إنها لم تكن تنام على نحو عذب، كذلك قال في ذات نفسه. لم تكن تنام مثل هذه الفتاة التي رقدت وكأنها يقظى مفعمة بالحياة؛ مع فارق واحد وهو أنها كانت نائمة. نامي نوماً عميقاً، أرجوك، كذلك قال في ذات نفسه.

ومن أنت، بحق الجحيم، حتى تنتقد الفتيات المحترفات؟ كذلك تساءل الكولونيل بينه وبين نفسه، وأية حرفة بائسة حاولتَها أنت وأخفقتَ فيها؟

لقد رغبت في أن أكون، ولقد كنتُ. جنرالاً في الجيش الأميركي. ولكني أخفقت، فأنا أغمز من قناة جميع أولئك الذين نجحوا.

ولم تدم توبته طويلاً، فقال في ذات نفسه: «باستثناء ذوي الأنوف السمراء»، وأصحاب الخمسة بالمئة والعشرة بالمئة والعشرين بالمئة، وجميع أولئك الأغرار الآتين من كل مكان والذي لم يقاتلوا قط ولم يتولوا القيادة قط.

لقد قتلوا رجالاً كثيرين من الأكاديمية في جيتيسبورغ. وكان ذلك يوم مجزرة المجازر، يوم كان ثمة قَدْر من المقاومة من الفريقين جميعاً.

لا تكن كئيباً. لقد قتلوا الجنرال ماك نير Mc Nair خطأ يوم أقبلت الطائرات البريطانية التي دعوناها «اكسبريس فالهالا»[1]. إخلَعْ عنك هذه الكآبة. لقد قُتِل أناس من الأكاديمية، وثمة إحصاءات تثبت ذلك.

كيف أستطيع أن أتذكر إن لم أكن كئيباً؟

كن كئيباً ما شئت، وحدِّث الفتاة الآن في صمت، فلن يؤذيها ذلك أبداً لأنها نائمة نوماً فاتناً جداً. ولقد قال «فاتناً» في ما بينه وبين نفسه لأن تفكيره كان في كثير من الأحيان غير نحويّ.

---

(1) راجع الفصل التاسع والعشرين من الرواية. (المعرب).

[34]

نامي نوماً رفيقاً، يا من أحبها في صدق، وعندما تفيقين يكون حديثي هذا قد انتهى، ولسوف أعلّمك كيف تقلعين عن محاولة الاطلاع على تفاصيل «صناعة الحرب الكئيبة»، وسنذهب لنشتري الزنجي الصغير، أو المراكشي الصغير المنقوش على الآبنوس، بِسِماته الساحرة وعمامته المرصعة بالجواهر. وعندئذ تعلّقينه بالدبوس على صدرك، ولسوف نمضي لنشرب كأساً في حانة هاري، أو نعود إلى هنا، ولسوف أحزم أمتعتي استعداداً للرحيل. إننا سنتبادل كلمات الوداع، ولسوف أركب السيارة مع جاكسون، وأرشق المايسترو الأعظم بمزحة بهيجة، وألوِّح بيدي إلى أيما عضو آخر من أعضاء «منظمتنا» ولن يُقَدَّر لأحدنا ـ ألفاً في المئة، كما أشعر في هذه اللحظة ـ أن يرى الآخر، بعد، أبد الدهر.

يا للجحيم، كذلك قال للاأحد وفي صوت غير عال طبعاً، لقد استشعرت مثل هذا الشعور قبل كثير من المعارك، وفي فترة من خريف العام، دائماً تقريباً، ولدُنْ مغادرتي باريس دائماً. وأغلب الظن أنه لا يعني شيئاً.

ومن ذا الذي يبالي، على أية حال، غيري وغير المايسترو الأعظم وهذه الفتاة؟ أعني على صعيد القيادة.

إني أنا نفسي أبالي أكثر مما ينبغي. ولكن عليّ من غير ريب،

بعد أن بلغت هذا السن، أن أروض نفسي على اللامبالاة بأي شيء.
مثل تعريف البغيّ: المرأة التي لا تبالي... الخ.

ولكننا لا نفكر في ذلك الغلام، الملازم الأول، الرئيس، العقيد، الكولونيل، الجنرال يا سيدي سوف ننساه، وإلى الجحيم به، وبوجهه القبيح الذي رسمه هيرونيموس بوش فعلاً. ولكن في استطاعتك أن تُغمد منجلك، يا أخي العجوز الذي يسمونك الموت، إذا كان لديك غمد له. بل إن في استطاعتك، كذلك أضاف وقد فكّر الآن في معركة هورتجن، أن تحمل منجلك وتحصد به ما شئت.

لقد كانت هي باشينداين بقنابلها المتفجرة من خلف الأشجار، كذلك قال لا لأحد باستثناء الضوء العجيب المضطرب على السقف. ثم إنه رنا إلى الفتاة، ليتيقن من أنها نائمة نوماً عميقاً بحيث لا تؤذيها أفكاره.

وبعد ذلك نظر إلى اللوحة، وقال في ما بينه وبين نفسه: إني لأراها في وضعين اثنين، مضطجعة ومستديرة بعض الشيء ناظرة إليّ مواجهة على نحو مباشر. إني ابن عاهرة محظوظ، ويتعين عليّ أن لا أحزن لشيء.

[35]

في أول يوم من أيامنا هناك خسرنا ثلاثة من قادة الكتائب. فأما الأول فقُتِل خلال العشرين دقيقة الأولى، وأما الآخران فصُرعا بعد ذلك. إن هذا ليس غير إحصاء يقدَّم إلى صحافيّ، ولكن قادة الكتائب الصالحين لم يَنموا في يوم من الأيام على الأشجار، حتى ولا على شجرات عيد الميلاد التي كانت الشجرة الرئيسية في تلك الغابة. أنا لا أدري كم مرة خسرنا قادة سرايا أيضاً، ولكن في استطاعتي أن أستقصي ذلك.

إنهم لا يُصنعون، ولا يُنَمّون، بمثل السرعة التي يُصنَع بها أو يُنمى محصول بطاطا. لقد فزنا ببعض الأمداد، ولكنني أذكر أني فكرتُ آنذاك أن إطلاق النار عليهم في البقعة التي ترجلوا عندها من الشاحنات أسهل وأكثر فعالية من محاولة إعادتهم إلى المكان الذي سيُصْرعون فيه ومواراتهم الثرى. إن إعادتهم هذه لتحتاج إلى جند، وإلى بنزين، وإلى رجال يدفنونهم. وقد يكون هؤلاء الجند وأولئك الرجال يخوضون غمار المعركة حيث يلقون مصرعهم أيضاً.

وكان ثمة ثلج، أو شيء ما، مطر أو ضباب، طوال الوقت؛ وكانت الطرق قد لُغِمت على نحو عميق يتسع لأربعة عشر لغماً في بعض البقاع. فما تكاد السيارات تهبط مضطربة نحو سلسلة أخرى أعمق، في جزء آخر من الأرض الموحلة، حتى نخسر دائماً، بعض تلك السيارات، ونخسر طبعاً مَن تُقِله من الرجال.

وبالإضافة إلى مجرد ضربها بقنابل المورتر ضرباً جهنمياً، وجعل خطوط النار كلها مُشرّطة للمدفعية الآلية السريعة ونيران الأسلحة الأوتوماتيكية، فقد رتبوا كل شيء وقَنَّوهُ[1] بحيث يتحتم عليك، مهما تكن تبزّهم أصالة رأي وحصافة، أن تقع في الشرَك المنصوب. ليس هذا فحسب، بل لقد كانوا يقصفونك أيضاً بقنابل المدفعية الثقيلة، وبمدفع واحد من مدافع السكة الحديدية على الأقل.

كان مكاناً من أعسر العسير على المرء أن يبقى فيه حياً، حتى ولو كان كل ما عمِلَهُ أن «يكون» هناك. وكنا نهاجم على نحو موصول، وكل يوم.

فلنكفّ عن التفكير في ذلك. إلى الجحيم به. ولعل ثمة شيئين سوف أفكر فيهما، وأتخلص منهما. أحدهما هضبة جرداء يتعين عليك أن تجتازها لتبلغ «غروسهاو» Grosshau. وقبيل اجتياز هذه المسافة، التي كانت تحت هيمنة نيران من عيار 88، كان ثمة قطعة من الأرض الموات حيث لم يكن في استطاعتهم أن يصيبوك بغير مدافع الحصار، أو النيران المعوّقة، أو من ناحية اليمين بمدافع المورتر. وحين أنجزنا ذلك، وجدنا أن ما لديهم من مدافع المورتر كان يهيمن على الموقع هيمنة حسنة أيضاً.

كان ذلك موقعاً آمناً نسبياً؛ أنا لست أكذب في الواقع، لا أنا ولا أيما امرئ آخر. إنك لا تستطيع أن تخدع أولئك الذين كانوا في هورتجن، وإذا ما كذبت اكتشفوا ذلك حالما تفتح فمك، سواء أكنت كولونيلاً أم لم تكن.

وفي هذا المكان التقينا شاحنة، وخففنا سرعتنا. وكان وجهه رمادياً كالعادة، وقال: «سيدي، هناك جندي أميركي ميت وسط

(1) من «قنّى»، «يقنّي» الشيء أي أجراه في قناة ونظّمه، وقد استعملناها مقابل قوله canalized في الأصل.

الطريق أمامكم، وكلما مرّت به سيارة تعيَّن عليها أن تجري فوقه، وأخشى أن يخلّف ذلك سوءاً في نفوس الجند.»

ـ «سوف نرفعه من الطريق.»

وهكذا رفعناه من الطريق.

وفي استطاعتنا أن نتذكر كيف كان ملمسه، وكيف سُطِّح وسُوِّي بالأرض، وغرابة تسطّحه.

ثم كان هناك شيء آخر، في ما أذكر. كنا قد ألقينا على المدينة مقداراً رهيباً من الفوسفور الأبيض قبل أن نستولي عليها نهائياً، ولك أن تستبدل بلفظ «نستولي» هذا أي فعل تشاء. وكانت هذه هي أول مرة رأيت فيها كلباً ألمانياً يأكل نمساوياً ألمانياً مشوياً. وفيما بعد بصُرْت بهرة تنهش من لحمه أيضاً. لقد كانت هرة جائعة، هرة وسيمة جداً. أنتِ لا تحسبين أن أيما هرة ألمانية صالحة قد تنزع إلى نهش جندي ألماني صالح، أليس كذلك، يا بنيّتي؟ أو أن أيما كلب ألماني صالح قد ينزع إلى نهش حمار لجندي ألماني صالح، حمار شُوي بالفوسفور الأبيض.

كم من مشهد مماثل تستطيع أن ترسمه؟ مشاهد كثيرة من غير ريب، ولكن أية فائدة ترتجى من ذلك؟ إن في إمكانك أن تروي ألف حكاية من هذا النوع، فلن يفضي ذلك إلى منع نشوب الحرب. إن الناس سوف يقولون إننا لا نقاتل النمساويين، وإلى هذا فالهرة لم تأكلني أنا ولم تأكل أخي غوردون، لأنه كان في المحيط الهادئ. ومن يدري، فلعل سراطين البرّ قد أكلت غوردون. أو لعله ذاب وماع ليس غير.

وفي هورتجن انجمد الجند انجماداً؛ كان الجو قارساً إلى درجة جعلتهم يتجمدون بوجوه متوردة. شيء غريب جداً. لقد كانوا كلهم شاحبين صُفراً مثل المصنوعات الشمعية، في الصيف. ولكن ما إن أقبل الشتاء حقاً حتى أمست وجوههم متوردة.

إن الجنود الحقيقيين لا يخبرون أحداً، البتة، كيف بدا موتاهم، كذلك قال مخاطباً اللوحة الفنية. ولقد انتهيت من هذا الموضوع كله. ولكن ماذا عن تلك السرية التي أُفنِيَت عن بكرة أبيها عند الجزء الأعلى من الوادي؟ أجل، ماذا عن أولئك الجنود المحترفين؟

لقد ماتوا، كذلك قال في ذات نفسه. وفي استطاعتي أن أضطرب وأن أذهب إلى الجحيم.

والآن من ذا الذي يرغب في أن يقاسمني كأساً من الفالبوليشيلا؟ في أي وقت تظنين أن عليّ أن أوقظ صِنوَكِ، أيتها الفتاة؟ إن علينا أن نمضي إلى ذلك الجوهريّ. وإني لأتطلع منذ الآن إلى إرسال النِكات وإلى التحدث عن أدعى الأشياء إلى البهجة.

ولكن ما البهجة، أيتها اللوحة الفنية؟ ينبغي لكِ أن تعرفي. فأنتِ أذكى مني، برغم أنك لم تطوّفي في الأرض بقدر ما طوَّفتُ.

حسن، أيتها الفتاة القماشية ـ كذلك قال لها الكولونيل من غير أن يجهر بالصوت ـ سوف نُغفِل هذا كله، وبعد إحدى عشرة دقيقة سأوقظ الفتاة الحية وعندئذ نمضي إلى المدينة، ونأخذ بأسباب البهجة، ونخلّفكِ هنا لكي يلفّوكِ.

أنا لم أقصد أن أكون فظاً. كل ما في الأمر أني كنت أمزح في شيء من الخشونة. إني لا أريد أن أكون فظاً أبد الدهر، لأني سوف أحيا معكِ منذ اليوم. أنا أرجو ذلك، هكذا أضاف، وتجرّع كأساً من الخمر.

[36]

كان يوماً مشرقاً، بارداً، لاذعاً. وقفا قبالة واجهة دكان الجوهري وتأملا رأسَيْ وجسمَيْ الزنجيين الصغيرين المنقوشين على الأبنوس، والمرصعين بالجواهر. إن أحدهما لا يقل روعة عن الآخر، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه.

ـ «أيهما تفضلين يا بنيَّتي؟»

ـ «الذي إلى اليمين، في ما أحسب. ألا تعتقد معي أنه ذو الوجه الأجمل؟»

ـ «إن لكل منهما وجهاً جميلاً. وكنت أوثر أن أكلفه بخدمتكِ لو كنا نعيش في العصور الغابرة.»

ـ «حسن. سوف نشتريه. فلندخل ونرى إليهما. يتعيّن عليّ أن أسأل عن الثمن.»

ـ «سوف أدخل معك.»

ـ «ولكن دعني أنا أسأل عن الثمن. فخليق بالجوهري أن يتقاضاني ثمناً أقل مما قد يتقاضاك. فأنت على أية حال، أميركي موسر.»

ـ «وأنتِ؟ رامبو؟»

فقالت له الفتاة: «في استطاعتك أن تنتحل شخصية فيرلين على نحو مضحك إلى حد رهيب. ولسوف ننتحل شخصيات مشاهير آخرين.»

ـ «هيا ادخلي، يا صاحبة الجلالة، وسنشتري الجوهرة الذهبية اللعينة.»

ـ «وأنت لن تصلح كثيراً جداً لانتحال شخصية لويس السادس عشر أيضاً.»

ـ «أنا مستعد لأن أركب العربة القلابة[1] معكِ، وأظلّ مع ذلك قادراً على أن أبصق.»

ـ «دعنا ننسى جميع العربات القلابات، وأحزان الناس كلهم، ونشتري ذلك الشيء الصغير، وعندئذ نستطيع أن نتصل تلفونياً بمنزل سيبرياني، ونصبح من مشاهير القوم.»

وفي داخل المحل نظرا إلى الرأسين، وسألت عن الثمن، ثم دار حديث جد سريع، وخُفِّض الثمن تخفيضاً كبيراً، ومع ذلك فقد ظل أكثر مما كان في جيب الكولونيل من المال.

ـ «سوف أذهب إلى منزل سيبرياني وأجيء ببعض المال.»

ـ «لا،» كذلك قالت الفتاة. ثم التفتت إلى المستخدم وأضافت: «ضعه في علبة، وابعث به إلى بيت سيبرياني، وقل إن الكولونيل يريد منهم أن يدفعوا ثمنه ويحتفظوا له به.»

فقال المستخدم: «من فضلك. كما تقولين تماماً.»

وغادرا المحل إلى الشارع، وضياء الشمس، والريح التي ما تهدأ.

ـ «وبالمناسبة،» كذلك قال الكولونيل، «إن أحجارك الزمردية هي موضوعة على اسمك في الصندوق الحديدي بفندق غريتي.»

ـ «أحجارك الزمردية.»

---

(1) Tumbrill وهي العربة التي كان ينقل بها ضحايا الثورة الفرنسية إلى المقصلة وكان المؤلف قد شبه الفتاة بماري أنطوانيت في العربة القلابة. راجع الفصل الثاني عشر (المعرب).

ـ «لا،» كذلك قال لها، ليس في خشونة، ولكن لكي يجعلها تفهم على نحو حاسم. «إن ثمة أشياء لا يستطيع المرء أن يقدم عليها. إنك تعرفين هذا فأنت لا تستطيعين أن تتزوجيني، وأنا أدرك ذلك، على الرغم من أني لا أقرُّه.»

فقالت الفتاة: «حسن جداً. فهمت. ولكن ألا تستطيع أن تأخذ واحداً منها استجلاباً للحظ؟»

ـ «لا. لست أستطيع. إنها ثمينة أكثر مما ينبغي.»

ـ ولكن للوحة الفنية ثمناً أيضاً.»

ـ «هذا شيء مختلف.»

فأقرته على ذلك قائلة: «أجل، أظن ذلك، يخيَّل إليّ أني بدأت أفهم.»

ـ «لقد كان خليقاً بي أن أقبل منك فرساً، لو كنتُ فقيراً أو شاباً أو شديد البراعة في ركوب الخيل. ولكني لا أستطيع أن أقبل منك سيارة.»

ـ «الآن فهمتُ المسألة فهماً جيداً. أين نستطيع أن نذهب، الآن، في هذه الدقيقة، حيث يكون في ميسورك أن تقبّلني؟»

ـ «فلنذهب إلى هذا الزقاق الجانبي، إن كنت لا تعرفين أحداً من المقيمين فيه.»

ـ «لست أبالي بمن يقيمون فيه. أنا أريد أن أُحسّ بك تضمني في شدة وتقبّلني.»

وانعطفا إلى الشارع الجانبي، ومشيا نحو نهايته غير النافذة.

وقالت: «أوه، ريتشارد! أوه، يا عزيزي!»

ـ «أحبكِ.»

ـ «أرجوك أن تحبني.»

ـ «أنا أفعل.»

وكانت الريح قد طيّرت شعرها إلى فوق وحول عنقه؛ وقبَّلها كرة أخرى وشعرها يلطمه، حريريَّ الملمس، على خديه كليهما.

ثم إنها تملصت منه، فجأة وفي قوة، ورَنَت إليه وقالت: «أحسِبُ أن من الخير لنا أن نذهب إلى حانة هاري.»

- «أحسِبُ ذلك. هل تريدين أن يمثل كل منا شخصية من شخصيات التاريخ؟»

فقالت: «أجل، فلنزعم أنكَ أنتَ وأنني أنا أنا.»

فقال الكولونيل: «فلنزعم ذلك.»

[37]

لم يكن في حانة هاري أحد غير بعض المصطبحين[1] المبكرين الذين لم يعرفهم الكولونيل ورجلين يعقدان صفقة تجارية في زاوية من المشرب.

كانت تمر بحانة هاري ساعات تغصّ فيها بأناس تعرفهم، في نظام واندفاع كما يُقبل بها المد عند «مونث سانت ميشيل». مع فارق واحد، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه، وهو أن ساعات المد والجزر تختلف كل يوم تبعاً للقمر، على حين أن الساعات في حانة هاري مثل خط هاجرة غرينتش، أو المتر القياسي في باريس، أو حُسن رأي العسكريين الفرنسيين في أنفسهم.

وسأل الفتاة: «هل تعرفين أياً من هؤلاء الشّرب الصباحيين؟»

ـ «لا. أنا لست ممن يألفون الاصطباح، ومن أجل ذلك لم ألتقِ بهم البتة.»

ـ «سوف يُكْنسون عندما يُقبل المدّ.»

ـ «لا، سوف يفارقون الحانة، عندما يُقبل، من تلقاء أنفسهم.»

ـ «هل تعارضين في الاختلاف إلى هنا في غير أوان الاختلاف؟»

ـ «أتحسبني مُحدثة نعمة لأني أنتمي إلى أسرة عتيقة؟ إننا نحن

---

(1) الشاربين الخمر صباحاً.

الذين ليسوا بمُحدثي نعمة. إن محدثي النعمة هم أولئك الذين تدعوهم أغراراً حقيرين وأولئك الذين يملكون كل الثروة الجديدة. هل قدّر لك أن ترى ثروات جديدة ضخمة إلى هذا الحد؟»

فقال الكولونيل: «أجل. لقد رأيتها في «كانساس سيتي» عندما كان من دأبي أن أفد إليها من «فورت رايلي» لألعب البولو في نادي الإقليم.»

ـ «هل كانت تجربتك هذه رديئة كما هي هنا؟»

ـ «لا. لقد كانت سائغة جداً. لقد أحببتُ هذا، وإن ذلك الجزء من «كانساس سيتي» لجميل جداً.»

ـ «أهو كذلك فعلاً؟ لشدّ ما أتمنى لو نستطيع الذهاب إلى هناك. وهل لديكم هناك، أيضاً، تلك المعسكرات التي نعتزم أن ننزل فيها؟»

ـ «من غير ريب. ولكننا سوف ننزل في فندق «موليباخ» حيث توجد أضخم السرر في العالم، ولسوف نتظاهر بأننا من أصحاب الملايين.»

ـ «وأين سنترك الكاديلاك؟»

ـ «أهي كاديلاك الآن؟»

ـ «أجل، إلا إذا أردت أن تأخذ الـ«بويك»، طراز «سيد الطرق» Roadmaster «ذات القيادة الديناميكية الدافقة» Dynaflow drive لقد قُدتها مجتازة بها طرق أوروبة كلها. ولقد رأيت إعلاناً عنها في آخر عدد بعثت به إليّ من مجلة «فوغ» vogue.»

فقال الكولونيل: «لعل من الخير لنا أن يقودها كل منا في آن. وسواء أقررنا الكاديلاك أو البويك فسوف نبيّتها في المرآب المحاذي لفندق موليباخ.»

ـ «وهل فندق موليباخ فخم جداً؟»

ـ «إنه رائع. ولسوف تحبّينه. وعندما نغادر البلدة سنقود السيارة

إلى سانت جو، ونحتسي كأساً في المشرب، في «الروبيدو»، وربما كأسين، ثم نعبر النهر وننطلق في اتجاه الغرب؛ وفي استطاعتنا أن نتناوب.»

ـ «وما معنى هذا؟»

ـ «معناه أن تقودي أنت حيناً وأقود أنا حيناً.»

ـ «إني أقود السيارة الآن.»

ـ «فلنَجتَز الجزء الرتيب، ونمضي إلى «تشيمني روك» ثم إلى «سكوتس بلاف» و«تورينغتون»، وبعد ذلك يقع ناظرك عليه.»

ـ «لديّ خرائط الطرق،» وكتب إرشاد المسافرين، وذلك الرجل الذي يهديك إلى حيث تتناول الطعام، ودليل A.A.A إلى المعسكرات والفنادق»

ـ «هل تنفقين في هذه الدراسة وقتاً طويلاً؟»

ـ «إني أقوم بها في الأمسيات، مستعينة بالأشياء التي زوّدتني بها. أي نوع من الإجازة سوف يكون لنا؟»

ـ «ميسّوري. ولسوف نشتري السيارة في كانساس سيتي. إننا نركب الطائرة إلى كانساس سيتي، ألا تذكرين؟ أو ربما استطعنا أن نقصد إليها على متن قطار فخم جداً.»

ـ «لقد حسبتُ أننا ركبنا الطائرة إلى آلبوكيرك.»

ـ «كان ذلك في مناسبة أخرى.»

ـ «ولسوف نقف في ساعة مبكرة من الأصيل عند أفضل فندق مذكور في دليل .A.A.A، من تلك الفنادق التي تؤوي السياح وتؤوي سياراتهم أيضاً، ولسوف أُعِدّ لك أيما شراب ترغبين فيه، وأنت تطالعين الصحيفة أو تقرأين مجلة «لايف» أو «تايم» أو «نيوزويك»، في حين أقرأ أنا العدد الجديد من «فوغ» أو «هاربرز بازار.»

ـ «أجل، ولكننا سوف نرجع إلى هنا، أيضاً.»

ـ «طبعاً مع سيارتنا. على باخرةٍ إيطاليّة. أفخم باخرة نقع عليها آنذاك. ولسوف نركب السيارة من جنوا إلى هنا مباشرة.»

ـ «ألا تريدين أن نبيت ليلتنا تلك في أيما مكان؟»

ـ «لماذا؟ إننا نريد أن نمضي إلى بيتنا على التّو.»

ـ «وأين سيكون بيتنا؟»

ـ «في ميسورنا أن نقرر ذلك في أيما وقت. إن ثمة دائماً عدداً وافراً من البيوت في هذه البلدة. هل تحب أن تقيم في الريف أيضاً؟»

ـ «أجل، كذلك قال الكولونيل. «لم لا؟»

ـ «عندئذ يكون في استطاعتنا أن نرى الأشجار حين نستيقظ. أيّ ضرب من الأشجار سوف نرى في هذه الرحلة؟»

ـ «الصنوبر في الأعم الأغلب، والقطن على ضفاف الجداول، والرّجاج[1]. انتظري حتى ترَيْ الرجّاج يصفرّ في الخريف.»

ـ «أنا منتظرة. أين سنقيم في ويومنغ؟»

ـ «سوف نذهب إلى شيريدان، أولاً، ثم نقرر بعد ذلك.»

ـ «هل شيريدان جميلة؟»

ـ «إنها فاتنة. وسنقود السيارة إلى حيث جرت معركة عربات نقل البضائع، ولسوف أحدثكِ عن ذلك. ثم نواصل انطلاقنا، في الطريق إلى بيلينغر، إلى حيث قتلوا ذلك المعتوه جورج آرمسترونغ كاستر[2]، وفي استطاعتك أن ترَيْ شواهد القبور حيث مات القوم جميعاً، وسأشرح المعركة لك.»

ـ «سوف يكون هذا رائعاً. أي المدن أشبه بشيريدان: مانتوفا، أم فيرونا، أم فيسينزا؟»

---

(1) ضرب من الحوْر.

(2) Custer جنرال أميركي قاتل الهنود الحمر 1839 ـ 1876. (المعرب)

ـ «إن شيريدان لا تشبه أياً من هذه. إنها قائمة قِبالة الجبال مباشرة، مثل سكييو تقريباً.»

ـ «أهي تشبه كورتينا إذن؟»

ـ «لا، لا، هي لا تشبهها بأية حال. إن كورتينا وادٍ في الجبال. أما شيريدان فتقع قبالة الجبال تماماً. وليس ثمة أيما هضاب مُفضِية إلى «القرن الكبير»[1]. إنها تنبثق سامقةً من النجد. وفي ميسورك أن ترَي «قمة السحاب.»[2]

ـ «وهل ستتسلقها سيارتانا كما ينبغي؟»

ـ «أنا واثق من ذلك. ولكني أوثر أن لا نصطنع أيما سيارة هيدروماتيكية القيادة.»

فقالت الفتاة: «في استطاعتي أن أستغني عن ذلك.» ثم إنها تماسكت لكي لا تتفجر الدموع من عينيها، وأضافت: «كما أستطيع أن أستغني عن أي شيء آخر.»

وقال الكولونيل: «ماذا تشربين؟ إننا لم نطلب حتى الآن شيئاً.»

ـ «لست أحسب أنني سأشرب شيئاً.»

فقال الكولونيل للمشربيّ: «كأسين من المارتيني الصِرف، وزجاجة ماء بارد.»

ومد يده إلى جيبه، وأدار لولب زجاجة الدواء ثم هزها متناولاً بيده اليسرى اثنين من أقراصها الضخمة. وبعد ذلك أعاد إدارة اللولب والقرصان في يده. ولم يكن ذلك بالأمر اليسير بالنسبة إلى رجل ذي يمين معطوبة.

---

(1) Big Horns سلسلة من الجبال في شمال ويومنغ بالولايات المتحدة (المعرب).

(2) Cloud's peak هي أعلى قمة في سلسلة جبال «القرن الكبير» ويبلغ ارتفاعها 13165 قدماً (المعرب).

ـ «لقد قلت إني لا أريد أن أشرب شيئاً.»

ـ «أدري، يا بنيّتي. ولكني حسبت أنك سوف تحتاجين إلى كأس. في استطاعتنا أن نبقيها فوق المشرب. أو لعل في استطاعتي أن أشربها أنا.» ثم أضاف: «أرجوكِ. أنا لم أرِد أن أكون فظاً.»

ـ «نحن لم نسأل عن الزنجي الصغير الذي سيُعنى بأمري.»

ـ «لا. لأني لم أرِد أن أسأل عنه إلا بعد أن يعود سيبريياني وأصبح قادراً على دفع ثمنه.»

ـ «أيكون كل شيء صارماً إلى هذا الحد؟»

فقال الكولونيل: «عندي أنا، في ما أحسب. أنا آسف، يا بنيّتي.»

ـ «قل يا بنيتي ثلاث مرات في الحال.»

ـ «هيجا Hija، فيليا figlia بنيَّتي.»

فقالت: «لست أدري. يخيل إليّ أن علينا أن نغادر هذا المكان. أنا أحب أن يرانا الناس، ولكني لا أريد أن أرى أحداً.»

ـ «العلبة المشتملة على الزنجي موضوعة فوق الآلة الحاسبة.»

ـ «أدري. لقد رأيتها منذ فترة.»

وأقبل المشربيّ حاملاً الكأسين، مثلوجَتين من برودة الزجاج المثلجة، وإلى جانبهما كأس ماء.

وقال الكولونيل: «أعطني تلك الرزمة الصغيرة التي جاءت باسمي، والموضوعة فوق الآلة الحاسبة. قل لسيبريياني إني سوف أبعث إليه بثمنها على صورة شيك.»

ـ «هل تريدين كأسك، يا بنيتي؟»

ـ «أجل، إذا لم يكن لديك مانع يحول بيني وبين تغيير رأيي أيضاً.»

وشربا، بعد أن قرعا كأسيهما قرعاً رفيقاً. . رفيقاً إلى درجة جعلت احتكاكهما لا يكاد يُلحظ.

ـ «لقد كنتَ على حق،» كذلك قالت مستشعرة دفئها وقضاءها المؤقت على الأسى.

ـ «وكنتِ أنتِ على حق أيضاً،» وخبأ القرصين في راحة يده.

لقد بدا له، الآن، أن أخذهما مع الماء ينمّ عن ذوق سقيم وهكذا لم تكد الفتاة تدير وجهها لحظة لتراقب أحد المصطبحين يغادر المكان حتى ازدردهما مع المارتيني.

ـ «هل ننصرف، يا بنيتي؟»

ـ «نعم. من غير ريب.»

ونادى الكولونيل المشربيّ وقال: «ما ثمن هاتين الكأسين؟ ولا تنس أن تخبِر سيبرييانى أني سأرسل إليه شيكاً مقابل هذا الهراء.»

[38]

تناولا طعام الغداء في فندق «غريتي»، وكانت الفتاة قد نزعت الغطاء عن الزنجي الأبنوسي الصغير وعلّقته بدبوس على كتفها اليسرى. كان طوله نحواً من ثلاث بوصات، وكان رائعاً في عينيك إذا كنت مولعاً بمثل هذا الضرب من الأشياء. وإذا لم تكن فأنت أبله، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه.

وخاطب نفسه بقوله: ولكن عليك أن تقلع حتى عن مجرد التفكير الفظ أن الواجب يقتضيك الآن أن تكون دمثاً في كل شيء إلى أن تلفظ كلمة الوداع. وفكّر: يا لها من كلمة... كلمة «وداعاً» هذه! إنها تبدو مثل شعار غراميّ.

good bye, bonne chance, hasta la vista[1]. لقد كان من دأبنا دائماً أن نكتفي بقول merde[2] وينقضي الأمر أن كلمة farewell، كذلك قال في ذات نفسه، لفظة حلوة. إن لها في الآذان لوقعاً حسناً، كذلك فكر، إذن farewell،[3] بل farewell طويلة، تأخذينها معك حيثما تذهبين. وإلى أقصى درجة ممكنة، كذلك فكر.

---

(1) هذه التعابير كلها تفيد تمني الخير عند الفراق، الأولى إنكليزية، والثانية فرنسية، والثالثة إسبانية. (المعرب).

(2) لفظة فرنسية من معانيها «بئس» و«البراز» و«الغائط». (المعرب).

(3) تعبير إنكليزي بمعنى «وداعاً» (المعرب).

وقال: «يا بنيتي! منذ متى قلت لك إني أحبك آخر مرة؟»
ـ «ليس منذ أن جلسنا إلى المائدة.»
ـ «إني أقول لك ذلك الآن.»

وكانت قد سرّحت شعرها في أناة عندما وفدا على الفندق، وقد شخصت إلى الحجرة المخصصة للنساء، كانت تُبغض تلك الحجرات.

وكانت قد استعملت إصبع الشفاه لتكوّن الفم الذي عرفت أنه يحبه أكثر من أي فم آخر؛ وقد قالت لنفسها وهي ترسم ذلك الفم على الوجه الصحيح: «لا تفكري البتة. وفوق كل شيء لا تحزني لأنه سوف يمضي الآن لسبيله.»

ـ «أنت تبدين جميلة.»

ـ «شكراً. إني لأحب أن أكون جميلة من أجلك إذا استطعت، وإذا استطعت أن أكون جميلة.»

ـ «الإيطالية لغة حلوة.»

ـ «أجل، هكذا كان يظن مستر دانتي.»

وقال الكولونيل: «أيها المايسترو الأعظم. ماذا عندك من طعام في هذه الـ wirtchaft؟»

وكان المايسترو الأعظم يلاحظ، من غير ملاحظة، في محبة ومن غير حَسَد.

ـ «هل تريد لحماً أم سمكاً؟»

فقال الكولونيل: «اليوم يوم سبت، السمك ليس إلزامياً. وهكذا سوف آخذه.»

فقال المايسترو الأعظم: «إنه سمك موسى. ماذا تريدين يا سيدتي؟»

ـ «أيما شيء تقرره أنت. أنت أعلم مني بشؤون الطعام، وأنا أحب كل ما تختاره لي.»

ـ «اتخذي قراراً، يا بنيّتي.»

ـ «أنا أوثر أن أترك ذلك لمن هو أعلم مني. إن لي شهوة إلى الطعام كشهوة تلميذ في مدرسة داخلية.»

ـ «سوف أجعلها لكِ مفاجأة،» كذلك قال المايسترو الأعظم بوجهه الطويل المحبّ، وحاجبيه الأشيبين فوق عينين مُقَلْنَسَتَين[1] ووجه سعيد أبداً كوجه الجندي العتيق الذي لا يزال على قيد الحياة، والذي يقدر هذه الواقعة حق قدرها.

وسأله الكولونيل: «هل لديك أية أنباء عن المنظمة؟»

ـ «ليس ثمة شيء باستثناء أن زعيمنا، إياه، في محنة. لقد صادروا كل ما يملك أو لقد تدخلوا، على الأقل.»

ـ «أرجو أن لا يكون ذلك جدّياً.»

ـ «سوف نمنح زعيمنا الثقة. لقد خرج ظافراً من عواصف أسوأ من هذه.»

فقال الكولونيل: «فلنشرب نخب زعيمنا!»

ورفع كأسه، التي كانت قد أُترعت بخمر فالبوليشيلا حقيقية جديدة مروّقة. وأضاف: «إشربي نخبَه، يا بنيّتي.»

فقالت الفتاة: «أنا لا أستطيع أن أشرب نخب ذلك الخنزير. وإلى هذا فأنا لست عضواً في المنظمة.»

فقال المايسترو الأعظم: «أنت الآن عضو فيها. بفضل الحرب Por merito di guerra»

فقالت: «سوف أشرب نخبه إذن. هل أنا عضو في المنظمة حقاً؟»

فقال المايسترو الأعظم: «نعم. أنتِ لما تتلقَّيْ وثيقة عضويتك،

(1) كأن كلاً منهما تعتمر بقلنسوة.

ولكني أعيّنك سكرتيرة شرفٍ عليا. أدلِ إليها بأسرار المنظمة، أرجوك، يا زعيمي.»

فقال الكولونيل: «سوف أُدلي. أليس حولنا أيّ رجل مجدور؟»

ـ «لا. لقد انصرف مع سيدته. مسّ بيديكر.»

فقال الكولونيل: «حسن، إذن، سوف أُدلي بالأسرار. إن ثمة سراً رئيسياً واحداً يتعين عليكِ أن تعرفيه. سدِّدني، أيها المايسترو الأعظم. إذا ما تورّطت في خطأ ما.»

فقال المايسترو الأعظم: «هيّا، استهلّ حديثك.»

فقال الكولونيل: «سوف أستهل. إنتبهي جيداً، يا بنيَّتي. هذا هو السر الأعظم. اسمعي: الحب حبّ والمزاح مزاح. ولكن الهدوء الساجي يرين كلما ماتت السمكة الذهبية.»

فقال المايسترو الأعظم: «لقد أُدليَ بها.»

فقالت الفتاة: «أنا جد فخورة وسعيدة بأن أكون عضواً في المنظمة. ولكنها، بطريقة ما، منظمة فظة بعض الشيء.»

فقال الكولونيل: «إنها كذلك حقاً. والآن، أيها المايسترو الأعظم، ما الذي نستطيع أن نأكله، فعلاً، من غير أسرار؟»

ـ «بعض انشيلادا السراطين، على طريقة هذه البلدة، ولكنها باردة، أولاً. ومسكوبة في الصَّدفة. وبعد ذلك تطعَمُ أنت سمك موسى، وتطعَمُ سيدتي شيئاً من اللحم المشويّ المخلَّط. ما الخضَر التي تفضلها؟»

فقال الكولونيل: «أيما ضرب موجود عندك.»

ومضى المايسترو الأعظم لسبيله، ورنا الكولونيل إلى الفتاة، ثم إلى القناة العظمى خارج النافذة، ورأى البقع السحرية وتغيرات الضوء المضطربة حتى هنا، في أقصى المشرب، الذي كان قد حوّل بيد ماهرةٍ، إلى حجرة طعام، وقال: «هل قلت لك، يا بنيَّتي، إني أحبك؟»

ـ «أنت لم تقل لي ذلك منذ فترة طويلة ولكني أحبك.»

ـ «ما الذي يحلّ بالذين يحبون بعضهم بعضاً؟»

ـ «أحسب أنهم يُصيبون ما يصيبونه، وأنهم أعظم سعادة من غيرهم. ثم إن واحداً منهم يستشعر الفراغ إلى الأبد.»

فقال الكولونيل: «لن أكون فظاً. كان في ميسوري أن أطلق جواباً خشناً. ولكن أرجوك. لا تستشعري أيّ فراغ.»

فقالت الفتاة: «سأحاول. ولقد حاولتُ منذ أفقتُ من نومي. بل لقد حاولت منذ أن عرف أحدنا الآخر.»

فقال الكولونيل: «تابعي المحاولة، يا بنيتي.»

ثم التفت إلى المايسترو الأعظم، الذي عاد إلى الظهور بعد أن اصدر أوامره، وقال: «زجاجة من تلك الخمر الصرف Vino secco، من فيزوف[1]، من أجل سمكات موسى الصغيرة. إن عندنا خمر الـ «فالبوليشيلا» للأشياء الأخرى.»

فسألته الفتاة: «ألا أستطيع أن أحتسي خمر فيزوف مع اللحم لمشويّ المخلّط؟»

فقال: «طبعاً، يا ريناتا، يا بنيتي. في استطاعتكِ أن تفعلي أي شيء.»

ـ «أنا أحب أن أحتسي عين المسكرات التي تحتسيها أنت، إذا ما احتسيتُ الخمر.»

فقال لها الكولونيل: «الخمر البيضاء، الجيدة سائغة مع اللحم المشوي، في سنِّكِ.»

ـ «كنت أتمنى لو لم يكن بيننا مثل هذا الاختلاف في السن.»

فقال الكولونيل: «أنا أحب ذلك كثيراً.» ثم أضاف: «باستثناء.»

(1) بركان «فيزوف» الشهير، قرب نابولي. (المعرب).

ولكنه لم يتم ما كان يريد أن يقوله. ثم قال: «فلنكن ناضرَين متورِّدين كشأننا يوم المعركة fraiche et rose comme au jour de bataille»

«من قال هذا الكلام؟»

«ليس لديّ أقل فكرة. لقد تلقَّفتُهُ يوم تلقَّيت بعض الدروس في «كلية المارشالات» Collège des maréchaux. إنه اسم ينمّ عن شيء من الادعاء. ولكني تخرَّجتُ. وما أعرفه أحسن المعرفة تعلمته من النمساويين.. من دراستي إياهم ومقاومتي لهم. إنهم خير الجنود. ولكنهم يضيعون النصر دائماً لفرط إجهادهم النفس من أجل الفوز به.»

ـ «فلنكن مثل ما قلتَ، وأرجوك أن تقول لي إنك تحبني.»

فقال: «أحبكِ. ذلك شيء تستطيعين أن تثقي به. فأنا أصدُقُكِ القول.»

وقالت: «اليوم السبت، ما سيكون السبت القادم؟»

ـ «السبت القادم عيدٌ غير ثابت التاريخ، يا بنيتي. أعطيني رجلاً يستطيع أن يحدثني عن السبت القادم.»

ـ «كان في استطاعتك أن تحدثني لو شئتَ.»

ـ «سأسأل المايسترو الأعظم، فلعله يعرف. أيها المايسترو الأعظم، متى سيقع السبت القادم؟»

فقال المايسترو الأعظم: «في الفَصح أو في عيد الثالوث الأقدس.»

ـ «لماذا لا تصلنا من المطبخ أية روائح تنعشنا؟»

ـ «لأن الريح تهب من الوجهة المعاكسة.»

أجل، كذلك قال الكولونيل في ما بينه وبين نفسه. إن الريح تهب من الوجهة المعاكسة. وكم كنت سأسعد لو حظيت بهذه الفتاة بدلاً من تلك المرأة التي أدفع لها نفقةً، والتي عجزت حتى عن

إنجاب ولد. لقد أجَّرَتْ نفسها من أجل ذلك. ولكن من ذا الذي يجب أن ينتقد «أنابيب» الآخر؟ أنا لا أنتقد غير «غودريتش»، أو «فايرستون» أو «جنرال.»

وقال لنفسه: احتفظ بنظافة تفكيرك. وأحِبَّ فتاتك.

كانت الآن إلى جانبه، تتمنَّى لو تُحَبّ، إذا ما كان لديه شيء من الحب يمنحه.

وعاودَتْه، كما عاوَدته دائماً، عندما رآها، وقال: «كيف أنتِ بشعر جناح الغراب وبالوجه الذي يكسر القلب؟»

ـ «أنا في أحسن حال.»

فقال الكولونيل: «أيها المايسترو الأعظم. أنفحنا ببعض الروائح أو بشيء من مطبخك الخلفيّ المحجوب، حتى ولو كانت الريح ضدنا.»

[39]

كان بواب الردهة قد تلفن، بإشارة من بواب الفندق، وكان الزورق البخاري هو عين ذلك الذي امتطيا متنه من قبل.

وكان جاكسون في الزورق، ومعه الأمتعة والصورة الزيتية، ملفوفة على نحو حسن مُحْكم. وكانت الريح لا تزال تهب عاصفة.

وكان الكولونيل قد دفع فاتورته ومنح البخاشيش المناسبة. وكان مستخدمو الفندق قد حملوا الأمتعة والصورة إلى الزورق ورأوا أن جاكسون قد استوى قاعداً فيه. ثم انقلبوا إلى الفندق.

وقال الكولونيل: «حسناً يا بنيتي.»

ـ «ألا أستطيع أن أمضي معك إلى المرآب؟»

ـ «سوف يكون الوضع على مثل هذا السوء في المرآب.»

ـ «أرجو أن تجيز لي ركوب الزورق إلى المرآب.»

فقال الكولونيل: «حسن جداً. إنها فرصتك المتاحة، حقاً. إنزلي.»

ولم يتحدثا قط. وكانت ريحاً خلفية بحيث بدا، أياً ما كانت السرعة التي انطلق بها المحرك العجوز التالف، وكأنه لم يكن ثمة ريح البتة.

وعند المهبط، حيث راح جاكسون يدفع الأمتعة إلى أحد الحمالين ويُعنى بالصورة الزيتية بنفسه، قال الكولونيل: «هل تريدين أن تقولي لي كلمة الوداع هنا؟»

ـ «أيتعين عليّ ذلك؟»

ـ «لا.»

ـ «هل تسمح لي أن أمضي إلى مشرب المرآب ريثما تنزلون السيارة؟»

ـ «سوف يكون هذا أشد سوءاً.»

ـ «لست أبالي.»

ـ «إحمل هذه الأشياء إلى المرآب وكلِّف شخصاً ما بالمحافظة عليها ريثما تُنزل السيارة،» كذلك قال الكولونيل لجاكسون. «افحص بنادقي واحزم هذه الأشياء بحيث تُبقي أكبر حيِّز ممكن في المقعد الخلفي.»

فقال جاكسون: «سمعاً وطاعة، يا سيدي.»

وسألته الفتاة: «أنا ذاهبة إذن؟»

فقال لها الكولونيل: «لا.»

ـ «لماذا لا أستطيع أن أذهب؟»

ـ «أنت تعرفين جيداً. أنك غير مدعوة.»

ـ «لا تكن خبيثاً، أرجوك.»

ـ «يا للمسيح! ليتك، يا بنيتي، تعرفين كم أحاول أن لا أكون كذلك. إنه لمن اليسير على المرء أن يكون خبيثاً. والآن، فلندفع إلى هذا الرجل أجرته، ولنمض فنجلس على المقعد الذي هناك، تحت الشجرة.»

ودفع الأجرة إلى صاحب الزورق البخاري وقال له إنه لم ينسَ ما كان قد وعدَه به من تزويده بمحرك سيارة «جيب». وقال له أن لا يتكل عليه كل الاتكال، ولكن أمله كبير في أن يوفق إلى الفوز بالمحرك.

ـ «سوف يكون محركاً مستعملاً. ولكنه سيكون خيراً من ركوة القهوة هذه التي تدير زورقك الآن.»

وارتقيا درجات السلم المَبرِيَّة، ومشيا عبر الحصى، وجلسا على مقعد تحت الأشجار.

كانت الأشجار سوداء، وكانت تتمايل مع الريح، ولم يكن عليها أوراق البتة. كانت الأوراق قد تساقطت في وقت مبكر، تلك السنة، وكانت قد كُنِست منذ عهد بعيد.

وأقبل رجل فعرض عليهما شراء بعض البطاقات البريدية، ولكن الكولونيل قال له: «اغرب من هنا، يا بنيّ. لسنا الآن في حاجة إليك.»

كانت الفتاة تبكي، أخيراً، برغم أنها كانت قد عقدت العزم على أن لا تبكي أبداً.

وقال الكولونيل: «انظري، يا بنيَّتي. ليس ثمة شيء نقوله. إنهم لم يضعوا «ممتصّات الصدمات» في هذه العربة التي نركبها الآن.»

فقالت: «لقد كَففْتُ عن ذلك. أنا لست هستيرية المزاج.»

ـ «لست أنزع إلى القول إنكِ كنتِ كذلك لا، يخيّل إليّ أنك أبهى فتاة، وأجمل فتاة، قدّر لها أن تحيا على ظهر هذه الأرض. في أيما زمان. وأيما مكان.»

ـ «لو صحّ هذا فأيّ فرق يُحدثه؟»

فقال الكولونيل: «لقد غلبْتِني في ذلك. ولكنه صحيح.»

ـ «والآن ما الذي ستفعله؟»

ـ «الآن سوف ننهض، ونتبادل القُبَل، ونقول وداعاً!»

ـ «وما ذاك؟»

فقال الكولونيل: «لست أدري. يخيّل إلي أنه أحد الأشياء التي يتعيّن على كل امرئ أن يتصورها بنفسه.»

ـ «سأحاول أن أتصوره،»

ـ «ليس عليك إلا أن تهوّني عليك، جهد طاقتك، يا بنيَّتي.»

فقالت الفتاة: «أجل، في العربة غير المزوّدة بممتصات صدمات!»

- «لقد كنتِ طعاماً للعربة القلابة[1] منذ البدء.»

- «ألا تستطيع أن تفعل أيما شيء بلطف ودماثة؟»

- «أحسب أني لا أستطيع. ولكني حاولت.»

- «أرجوك أن تواصل المحاولة ذلك هو كل الأمل الذي لنا.»

- «سوف أواصل المحاولة.»

وهكذا شدها إليه وشدته إليها في إحكام، وتبادلا القُبَل في قوة وحرارة، وقاد الكولونيل الفتاة عبر الممرّ المفروش بالحصى ومن ثم إلى السلم الحجرية.

- «يتعين عليكِ أن تأخذي زورقاً جيداً. لا ذلك الزورق البخاري العتيق ذا المحرك المنفيّ من وطنه.»

- «إني لأوثر أن آخذ الزورق البخاري العتيق إذا لم يكن لديك مانع.»

فقال الكولونيل: «مانع؟ لست أنا من يمانع. أنا أصدر الأوامر وأطيع الأوامر ليس غير. لا، لستُ أمانع. وداعاً، يا حلوتي العزيزة الفاتنة!»

فقالت: «وداعاً!»

---

(1) هي العربة التي كانت تنقل ضحايا الثورة الفرنسية إلى المقصلة (المعرب).

[40]

كان في البرميل السندياني الغائر الذي كان من عادتهم، في البندقية، أن يتخذوا منه حجاباً واقياً. والحجاب الواقي هو كل أداة تصطنعها لكي تخبئ القانص عما يحاول أن يقنصه. أي عن البط في هذه الحالة.

كانت رحلة ماتعة مع الفِتية، منذ أن التقَوا في المرآب، وليلة سعيدة مع طعام ممتاز مَطهُو في المطبخ ذي المستوقد العتيق المكشوف. وركب ثلاثة من القناصة في المقعد الخلفي، في طريقهم إلى موطن القنص. وكان الذين لم يكذبوا قد أجازوا لأنفسهم مقداراً من المبالغة، على حين كان الكذابون في أوج ازدهارهم.

إن الكذاب، في أوج ازدهاره، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه، بديع مثل شجرات الكرز، أو شجرات التفاح، حين تكون منوّرة. ومن ذا الذي ينزع إلى تثبيط كذاب من الكذابين، كذلك فكر، إلا إذا كان يعين لك موقع نقطة أو خط وما إليهما؟

كان الكولونيل قد جمع الكذابين طوال حياته، كما يجمع بعض الناس طوابع البريد. إنه لم يصنّفهم إلا موقتاً، ولم يكنزهم في حرصٍ حريص. لقد اكتفى بمجرد الاستمتاع، على نحو كامل، بسماعهم يكذبون في اللحظة العابرة، إلا إذا شمل الكذب شيئاً ذا صلة بالواجب، طبعاً. والليلة البارحة راجت للكذب الصالح سوق حسنة بعد أن أديرت الـ«غرابّا»؛ ولقد استمتع الكولونيل بذلك.

وكان الدخان المنبعث من نار الفحم المكشوفة قد انتشر في الحجرة؛ لا، لقد كان ثمة حطب، كذلك قال في ذات نفسه. وعلى أية حال، فالكذاب يكذب على النحو الأفضل حين يكون ثمة قليل من الدخان، أو حين تكون الشمس قد توارت بالحجاب.

وكان هو نفسه قد حاذى الكذب مرتين اثنتين، ثم استعصم، واجتزأ بمجرد المبالغة إني أرجو هذا، كذلك فكر.

والآن ها هو ذا اللاغون[1] المنجمد الذي يفسد كل شيء. ولكنه لم يُفسِد شيئاً.

وفجأة أقبل زوج من البُلبُول[2]، من لا مكان، وانحدرا بسرعة في ضرب من الغَوْص لم تقم بمثله أيما طائرة من الطائرات في أيما يوم، وسمع الكولونيل مسارهما وقتل الذَّكر. لقد انطرح الطائر الصريع على الجليد مرتطماً به كأقسى ما تستطيع بطة أن ترتطم بالجليد. وقبل أن يمسّ الأرض كان الكولونيل قد قتل أنثاه، التي كانت تصعِّد طويلة العنق مسرعة.

لقد سقطت في محاذاة الذكر.

إذن فهذه جريمة قتل، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه. وأيّ شيء ليس جريمة قتل في هذه الأيام؟ ولكنك لا تزال قادراً، أيها الغلام، على إطلاق النار. يا للجحيم، أيها الغلام، كذلك فكر. أيها النغل العجوز البالي. ولكن أنظر إليها الآن وهي تُقبل.

كانت من ذلك البط المعروف بالبط الأصلع، ولقد أقبلت في سرب تراصّت وحداته ثم انتشرت على غير طائل، ثم تراصّت من جديد وشرعت البطة الخادعة التي على الجليد تتحدث إليها.

---

(1) Lagoon المستنقع أو البحيرة الضحلة، وخاصة ما اتصل منها بالبحر والنهر أو كان قريباً منهما. (المعرب).

(2) pin-tail وهو نوع من البط. (المعرب).

قال الكولونيل في ما بينه وبين نفسه: دعها تستدير كرة أخرى. أبق رأسك منكساً ولا تحرك حتى عينيك. إنها تعتزم أن تفِد.

ووفدت على خير وجه، وقد تحدّث الخداع إليها.

وفجأة مالت أجنحتها إلى الهبوط كشأنك حين تخفض أهداب شراع. ثم إنها رأت أنها إنما تحط على جليد فنهضت، مصعِّدة.

ونهض القانص ـ الذي لم يكن الآن كولونيلاً، أو أيما شيء آخر غير صيّاد بندقية في البرميل الخشبي وأصاب بناره بطتين. لقد سقطتا على الجليد بمثل الصلابة التي تسقط بها البطات الضخام تقريباً.

وقال الكولونيل: «حسبي اثنان من أسرة واحدة. أم أنها كانت قبيلة واحدة؟»

وسمع الكولونيل طلقة وراءه، من حيث كان يعرف أنه لم يكن ثمة أي حجاب آخر واقٍ، فالتفت لينظر عبر اللاغون المنجمد إلى الشاطئ البعيد المكتنَف بنبات الحلْفاء.

إن هذه لتؤلف قبيلة، كذلك فكّر.

كان سِرْب من البط البري، الوافد على ارتفاع منخفض، يحلِّق في السماء محنَقاً غاضباً، وقد بدت كل بطة منه في تصعيدها، وكأنها واقفة على ذيلها.

وبصُر بواحدة تهوي، ثم سمع طلقة أخرى.

كان المراكبيّ النكد يطلق النار على البطات التي كان خليقاً بها أن تفِد على الكولونيل.

وقال الكولونيل: «كيف، كيف أجاز لنفسه أن يفعل ذلك؟»

كانت لدى الرجل بندقية رشٍّ يطلق منها النار على أيما طائر أعرج يفر بنفسه إلى حيث لا يستطيع الكلب أن يمسك به. وكان إطلاقه النار على البطات الوافدة على حجاب الكولونيل الواقي يُعتَبر، في القنص، أسوأ شيء يستطيع امرؤ أن يغيظ به امرءاً آخر.

وكان المراكبيّ أبعد من أن يسمع أيما صيحة. ومن أجل ذلك

أطلق الكولونيل النار تجاهه مرتين. إن الشقة أبعدُ من أن تجتازها الرصاصات الصغار، كذلك فكّر، ولكنه سوف يعرف على الأقل أني أعلم ما يفعل. علام هذا كله، بحق الجحيم؟ وفي قنص رائع التنظيم مثل هذا أيضاً؟ إن هذا القنص خير قنوص البط التي أُتيحت لي عمري كله حُسْنَ تنظيم وبراعة تدبير. ولقد استمتعت هنا بالقنص أكثر مما استمتعت به في أيما يوم من أيام حياتي. فما الذي أصاب ابن العاهرة ذاك؟

كان يعلم مدى الغضب الذي استبد به. وهكذا أخذ اثنين من الأقراص، وازدردهما بشربة من «جن» غوردون من قارورته؛ إذ لم يكن ثمة ماء.

وكان يعرف أن الـ«جن» يؤذيه. وقال في ذات نفسه: كل شيء يؤذيني ما عدا الراحة وبعض التمرينات الرياضية الخفيفة جداً. حسن، الراحة والتمرينات الرياضية الخفيفة، أيها الغلام. هل تحسب هذا تمريناً رياضياً خفيفاً؟

أنتِ يا تمثال الجمال، كذلك قال في ذات نفسه. لشدّ ما أتمنى لو كنتِ هنا الآن، ولو كنا ضمن الحجاب المزدوج، ولو استطعنا أن نستشعر أعقاب منكبَينا تتماسّ وتتلاقى! إذن لكان خليفاً بي أن ألتفت وأرنو إليكِ، وإذن لسدّدتُ النار إلى البطات المحلقات تسديداً موفقاً، إظهاراً لبراعتي وتباهياً بها، وإذن لحاولت أن أُسقِط واحدة منها في الحجاب الواقي من غير أن أدعَها تمسُّكِ. سوف أحاول أن أُسقِط واحدة هكذا، كذلك قال، سامعاً حفيف الأجنحة في الهواء. ونهض واستدار، وبَصُر بالذكر المفرد، طويل العنق وسيماً، وقد صفق بجناحيه مندفعاً في سرعة مرتحلاً نحو البحر. لقد رآه رشيقاً جلياً وفي السماء وقد بدت الجبال وراءه. وواجهه، وسدّد بندقيته إليه، وضغط على زنادها، فيما كان يرتد إلى الوراء ما وسِعه الارتداد.

وهوى ذكر البط على الجليد، خارج حدود الحجاب الواقي

تماماً، ولقد كسر الجليد عندما هوى. كان هو ذلك الجليد الذي سبق أن كُسِر لاقتلاع الطيور الخشبية الخادعة، وكان قد انجمد كرة أخرى انجماداً خفيفاً. ونظرت البطة الداعية إليه وهو ينطرح على الجليد، وأزاحت قدميها.

وقال الكولونيل للبطة: «أنتِ لم تريهِ في حياتكِ قط من قبل، بل لست أعتقد أنك رأيته يُقبل. برغم أنك ربما رأيته. ولكنك لم تقولي شيئاً.»

كان ذكرُ البط قد هوى ناكس الرأس، وكان رأسه تحت الجليد. ولكن الكولونيل استطاع أن يلمح الريش الشتوي الجميل على صدره وجناحيه.

لشدّ ما أتمنى لو أقدم إليها صورة مصنوعة من كامل ريش البط، على نحو ما كان أهل المكسيك القدامى يفعلون تزييناً لآلهتهم، كذلك قال في ما بينه وبين نفسه. ولكني أحسب أن هذه البطّات يجب أن تمضي إلى السوق، ولن يكون ثمة من يعرف كيف يسلخها، وكيف يدبغ جلودها على أية حال. ومع ذلك، فخليق بتلك الصورة أن تكون جميلة، وقد جُعل ظهرها من جلد ذكور البط البري، ورُسِم على صدرها غصنٌ طري موشح بخطّين طوليين من جلد الحذَف[1] الشتوي. وكل خط منهما ينحدر فوق واحد من الثديين. إنها سوف تكون صدرة فاتنة إلى حد جهنمي! أنا على أتم اليقين من أنها سوف تعجبها.

وفكّر الكولونيل: إني لأتمنى لو تطير. إن بعض البطات الحمقاوات قد تَفِد. ويتعين عليّ أن أبقى مستعداً لها إذا ما فعَلتْ. ولكن أياً منها لم تفِد. فكان عليه أن يفكر.

ولم تنطلق من الحُجُب الأخرى أية طلقات نارية، على حين انطلقت بين الحين والحين، من البحر طلقات معدودات.

---

(1) نوع من البط البري.

ومع سطوع الضياء أمسى في استطاعة الطير أن ترى الجليد، فكفّت عن الوفود منطلقة ـ بدلاً من ذلك ـ إلى عرض البحر لكي تشكل طَوفاً عائماً. وهكذا لم يعاود إطلاق النار، وأنشأ يفكر من غير قصْد، محاولاً أن يكتشف ما الذي أوقع في قلبه حبها، أول ما أوقعه. لقد عرف أنه لا يستحقه، ولقد قبله بقبول حسن، وعاش به، ولكنه حاول ـ دائماً ـ أن يفهمه.

لقد كان السبب في ذلك، مرةً، جنديين من جنود الأسطول، فيما كان يتمشى مع الفتاة في مَوهن من الليل. كانا قد «عاكساها» بالصفير، وكان هذا ـ كذلك فكر ـ شيئاً لا ينطوي على كبير أذىً، وكان عليه أن يغضَّ الطرف عنه.

بيد أنه كان في ذلك الصفير معنى لا يدعو للارتياح. لقد أحس به قبل أن يعرفه. ثم عرفه معرفة اليقين؛ ذلك بأنه وقف تحت مصباح ما لكي يكون في ميسورهما أن يريا ما الذي يزيِّن كتفيه، عساهما يمضيان إلى الجانب الآخر من الطريق.

كان ما زيَّن كتفيه نسراً صغيراً مبسوط الجناحين. كان مطرّزاً على السترة التي ارتداها بخيط فضّي. إنه لم يكن جلياً، ولقد كان ثمة منذ عهد بعيد. ولكنه كان مرئياً.

وصَفَر الجنديان البحريان كرة أخرى.

وقال الكولونيل للفتاة: «إبقَيْ هنا في محاذاة الجدار إذا كنت راغبة في رؤية ما سيحدث، وإلاّ أشيحي بوجهك.»

ـ «إنهما ضخمان فتيّان.»

ـ «لن يظلاّ ضخمين طويلاً،» كذلك وعدها الكولونيل.

وتقدم الكولونيل نحو الصافرَين.

وسألهما: «أين خَفَركما الساحلي؟.»

فقال أضخم الرجلين: «ومن أين أعلم؟ كل ما أريده هو نظرة طويلة إلى السيدة.»

ـ «هل لأمثالكما من الناس أسماء وأرقام متسلسلة؟»
ـ «وكيف لي أن أعرف؟» كذلك قال واحد منهما.
وقال الآخر: «حتى لو عرفت لما أنبأت بذلك كولونيلاً غِراً.»
إنه جندي عتيق، كذلك فكر الكولونيل قبل أن ينقضّ عليه. محامٍ بحري. يعرف حقوقه كلها.
ولكنه لكمه بيسراه لكمات قاسية، ولكمه ثلاث مرات فيما هو ينصرف لسبيله.
أما البحري الآخر، الصافر الأول، فردّ على الكولونيل بضربات مكينة، بالنسبة إلى رجل ثمِل، فأقحم الكولونيل مرفقه في فمه، ثم سدد إليه ـ على ضوء المصباح ـ لكمة قوية بيده اليمنى. حتى إذا تم له ذلك نظر إلى الصافر الثاني، ورأى أن كل شيء حسن.
ثم إنه لكمه بيسراه، وغرس ذراعه اليمنى في جسده، وبعد ذلك سدد إليه بجمع كفه الأيسر لكمة أخرى، ثم استدار، وتقدم نحو الفتاة، لأنه لم يرد أن يسمع الرأس يرتطم بحصباء الطريق.
وألقى نظرة على الذي تلقَّى لكماته أولاً ولاحظ أنه يرقد في سلام، ناكس الذقن، وأن الدم كان يتفجر من فمه. ولكنه كان لا يزال طبيعياً، كذلك قال الكولونيل في ما بينه وبين نفسه.
وقال للفتاة: «حسناً، هكذا تضيع حياتي أياً ما كان معنى ذلك. ولكن هؤلاء الناس يرتدون سراويل مضحكة.»
فسألته الفتاة: «كيف أنت الآن؟»
ـ «أنا في حالة رائعة. هل شهدت المعركة؟»
ـ «نعم.»
ـ «سوف أشكو ألماً في اليدين غداً صباحاً»، كذلك قال الكولونيل شارد الذهن. «وأحسب أن في استطاعتنا أن ننأى بنفسينا عن هذا المكان. ولكن فلنمشِ على مهل.»
ـ «أرجوك أن تمشي على مهل.»

ـ «أنا لم أقصد إلى ذلك. لقد قصدت أن أقول: يحسُن بنا أن لا نتعجل الرحيل.»

ـ «سوف نمشي بأبطأ ما يستطيع شخصان أن يتحدثا.»

ومشيا على ذلك النحو.

ـ «هل تريدين أن تقومي بتجربة ما؟»

ـ «طبعاً.»

ـ «فلنمشِ بحيث تبدو حتى أعقابُ أقدامنا خطرةً مخيفة.»

ـ «سأحاول. ولكني لا أحسب أني أستطيع ذلك.»

ـ «حسن. فلنكتف بمجرد المشي إذن.»

ـ «ولكن ألم يسدّدا إليك ضربة ما؟»

ـ «أجل، ضربة قوية واحدة خلف الأذن تماماً. سدّدها إليّ الغلام الثاني حين أقبل.»

ـ «أعلى هذا النحو يجري القتال؟»

ـ «حين يكون المرء محظوظاً.»

ـ «وحين يكون غير محظوظ؟»

ـ «عندئذ تلتوي ركبتاكِ أيضاً. إما إلى الأمام وإما إلى الوراء.»

ـ «ألا تزال تبالي بي بعد أن خضت غمار تلك المعركة؟»

ـ «أنا أحبك الآن أكثر مما أحببتكِ من قبل بكثير، إذا كان ذلك ممكناً.»

ـ «أهو أمر متعذر؟ لو أمكن هذا إذن لكان رائعاً! لقد أصبحتُ أحبك أكثر منذ رأيت ذلك الشيء. أسائرة أنا ببطء كافٍ؟»

ـ «أنتِ تسيرين مثل أيّل في الغابة، وفي بعض الأحيان تسيرين مثل ذئب، أو مثل قيُّوط[1] ضخم عجوز حين لا يكون مُعجَلاً.»

ـ «لست متأكدة من أني أحب أن أكون قيُّوطاً ضخماً عجوزاً.»

---

(1) cayote نوع من الذئاب الأميركية. (المعرب).

فقال الكولونيل: «انتظري حتى تَرَيْ واحداً. وعندئذ سترغبين في أن تكوني مثله. أنت تسيرين مثل جميع الحيوانات الضارية الكبرى حين تسير في رفق. ولستِ بحيوان ضارٍ.»

ـ «هذا شيء أستطيع أن أعِدك به.»

ـ «تقدميني في المشي، بعض الشيء، حتى أستطيع أن أرى.»

ومشت أمامه، فقال الكولونيل: «أنت تسيرين مثل بطل رياضي قبل أن يصبح بطلاً رياضياً. ولو كنتِ فرساً إذن لاشتريتكِ ولو تعين عليّ أن أقترض المال بفائدة مقدارها عشرون بالمئة في الشهر الواحد.»

ـ «لن يتعين عليك أن تشتريني.»

ـ «أعرف ذلك. لم يكن هذا هو موضوع نقاشنا. كنا نتحدث عن مشيتكِ.»

فقالت: «قل لي ما الذي سيحل بذينك الرجلين؟ هذا واحد من الأشياء التي لا أعرفها عن القتال. ألم يكن من واجبنا أن نبقى ونُعنى بهما؟»

فأجابها الكولونيل: «لا، على الإطلاق. تذكّري هذا: على الإطلاق. أرجو أن يتقاسما صدمة عنيفة. إن في استطاعتهما أن يُنتِنا. إنهما هما اللذان سببا الحادث. وليس ثمة قضية من قضايا المسؤولية المدنية. لقد كنا كلنا مؤمَّنين. ليتني أستطيع أن أخبرك شيئاً واحداً، يا ريناتا، عن القتال!»

ـ «أخبرني، أرجوك.»

ـ «إذا ما قدِّر لكِ، ذات يوم، أن تقاتلي فعندئذ يتعين عليكِ أن تكسبي المعركة. هذا هو الشيء الوحيد ذو القيمة. وكل ما بقي فهو كرنب أو ملفوف، كما عبّر صديقي القديم الدكتور رومل.»

ـ «هل أحببت رومل حقاً؟»

ـ «حباً جماً.»

ـ «ولكنه كان عدوَّك.»

ـ «أنا أحب أعدائي، في بعض الأحيان أكثر من أصدقائي. الأسطول كما تعلمين، يكسب جميع المعارك التي يخوضها. ذلك شيء تعلمته في مكان يدعى مبنى البانتاغون، عندما كان لا يزال مجازاً لي أن أدخل ذلك المبنى من الباب الأمامي. إن في استطاعتنا، إذا شئتِ، أن نتمشى عائدين في هذا الشارع، أو أن نجتازه في سرعة ونطرح هذا السؤال على ذينك الرجلين.»

ـ «أصدُقك القول، يا ريتشارد. لقد رأيت من القتال مقداراً يكفيني لهذه الليلة.»

ـ «وأنا أيضاً، إذا أردت أن أصدُقكَ القول.» قال الكولونيل ذلك، ولكنه قاله بالإيطالية، ولقد استهل كلامه بـ Anche io[1] ثم أضاف: «دعينا نذهب في جملة الأماكن التي نذهب إليها إلى فندق هاري، وبعد ذلك سأوصلك سيراً على الأقدام إلى بيتك.»

ـ «ألم تؤذِ يدك المعطوبة؟»

فأوضح قائلاً: «لا. لقد قذفتُ بها مرة إلى الرأس ليس غير. أما في المرات الأخيرة فقد لكمتُ بها الجسد.»

ـ «هل تجيز لي أن ألمسها؟»

ـ «إذا وَعدتِني بلمسها في رفق.»

ـ «ولكنها متورمة على نحو رهيب.»

ـ «ليس فيها أيما شيء مكسور؛ وهذا الضرب من الورم من دأبه دائماً أن يتطامن[2].»

ـ «هل تحبني؟»

ـ «نعم. أنا أحبك بيدين متورمتين في اعتدال، وبكل قلبي.»

---

(1) وتعني بالإيطالية: «وأنا أيضاً» (المعرب).

(2) ينخفض وتزول حدته.

[41]

وإذن فقد كان ذلك الحادث، وربما كان ذلك اليوم أو ربما يوم آخر، هو الذي اجترح المعجزة.[1] إنك لم تكن في أيما يوم واثقاً من هذا، كذلك قال في ذات نفسه. كانت المعجزة الكبرى قائمة، ولم يكن هو قد عمل على تحقيقها شعورياً، البتة. لا، ولكنك يا ابن العاهرة، كذلك فكر، لم تقاومها قط.

كان الجو أبرد منه في أيما وقت مضى، وعاد الجليد المحطَّم فانجمد مرّة أخرى، ولم ترفع البطة المغرِّرة حتى بصرها الآن. كانت قد هَجَرت الخداع، في محاولة التماس السلامة.

يا لكِ من عاهرة، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه. برغم أن هذا ظلم. إنها حرفتكِ. ولكن ما الذي يجعل البطة أقدر على التغرير من ذكر البط؟ ذلك أمر ينبغي أن لا يغيب عن فطنتك، كذلك قال في ذات نفسه. وحتى هذا غير صحيح. ولكن أي شيء، بحق الجحيم، هو صحيح؟ إن ذكور البط، في الواقع، أقدر على التغرير والخداع.

والآن لا تفكر فيها. لا تفكر في ريناتا، لأن ذلك لن يعود عليك بأي خير، أيها الغلام. بل إنه قد يكون مؤذياً لك أيضاً. ثم إنك قلت لها كلمة الوداع. وما أروعها من كلمة وداع! كانت كاملة بكل ما في

---

(1) يقصد معجزة حبها له. (المعرب).

الكمال من معنى. ولقد كان خليقاً بريناتا أن تصعد معك أيضاً إلى العربة القلابة اللعينة. ما دامت عربة قلابة حقيقية. إنه عمل جد قاسٍ، كذلك قال في ذات نفسه، أن يحب المرء ثم يرحل. فالناس قد يصابون من جراء ذلك بأذى.

من الذي أعطاك حقاً في معرفة فتاة مثل هذه؟

لا أحد، كذلك أجاب. ولكن آندريا قدمني إليها.

ولكن كيف استطاعت أن تحب ابن عاهرة كئيباً مثلك؟

لست أدري، كذلك فكر صادقاً مع نفسه. إني، في الحق، لست أدري.

إنه لم يكن يدري، في جملة ما كان يجهله، أن الفتاة أحبته لأنه لم يكن في أيما صبح من أصباح حياته محزوناً، سواء أكان ثمة هجوم أم لم يكن ثمة هجوم. لقد ذاق الألم المبرّح والأسى. ولكنه لم يكن في أيما يوم من الأيام محزوناً في الصباح.

إن الألم والأسى نادراً ما يجعلان المرء كذلك. ولقد عرفت الفتاة، برغم أنها كانت فتاة صغيرة، واحداً من هؤلاء عندما رأت واحداً.

وقال الكولونيل في ذات نفسه: إنها الآن في البيت، مستسلمة للرقاد. ذلك هو المكان الذي ينبغي لها أن تكون فيه، لا في أي من حُجُب الصيد اللعينة هذه، وقد انجمدت الطيور الخشبية الخادعة من حولنا.

ومع ذلك، فلشدّ ما أتمنى لو أنها كانت هنا، لو كان هذا الحجاب الواقي مزدوجاً، ولشد ما أتمنى لو كانت إلى جانبي ترنو إلى الغرب، لحظة وفَد سرب من أسراب البط. ولسوف يكون كل شيء جميلاً إذا ما استشعَرَتْ دفئاً كافياً، ومن يدري، فلعلي أستطيع أن أشتري من امرئ ما إحدى هذه السترات الحقيقية التي لم يبِعها قط

أحد ممن فاز بها. تلك السترات التي وزعوها ذات يوم، خطأ، على رجال سلاح الطيران.

في استطاعتي أن أكتشف طريقة تضريب تلك السترات، وأن أصنع واحدة من جلد البط المَصِيد هنا، كذلك قال في ذات نفسه. ولسوف أعهد في تفصيلها إلى خياط بارع، ولسوف نجعلها بصفّيْ أزرار، من غير ما جيب في الجانب الأيمن، ونضع فوقها عصابة صيد من جلد الشّمورة لكي لا يعلق عقِبُ البندقية بها البتة.

سوف أصنعها، كذلك قال مخاطباً نفسه. سوف أصنعها، وإلا أخذت واحدة من بعض المجّان وفصّلتها لها. ولكم أتمنى لو آتيها ببندقية جيدة من نوع بوردي عيار 12، ليست بالخفيفة إلى حد لعين أكثر مما ينبغي، أو بزوج من نوع «بوس» إحداهما فوقيّة والأخرى تحتية. يجب أن أزوّدها ببنادق لا تقل جودة عنها هي؛ أنا أحسب أن زوجاً من بوردي هو خير ما أزوّدها به، كذلك فكّر.

وفي تلك اللحظة بالذات سمع حفيف الأجنحة الرفيق، وهي تصفّق في الهواء خفيفة رشيقة. فنظر إلى فوق. ولكنها كانت محلقة أكثر مما ينبغي. لقد نظر إلى فوق بعينيه ليس غير. ولكنها كانت من الارتفاع بحيث استطاعت أن ترى البرميل وتراه هو فيه وترى الطيور الخشبية الخادعة المنجمدة مع البطة المكتئبة التي رأت هي أيضاً البطات المحلِّقة فراحت تبطبط بقوة في مخادعتها الوفيّة. أما البطات، وكانت من بط البُلبول، فواصلت طيرانها نحو البر.

* * *

أنا لم أعطها في أي يوم شيئاً، كما لاحظت هي ذات مرة. كان ثمة رأس المغربي الصغير. ولكن هذا لا يفيد أيّ معنى. إنها هي اختارته وأنا اشتريته. وليست هذه هي الطريقة التي تقدّم بها الهدايا.

إن ما أحب أن أقدمه إليها هو الأمن، الذي لم يعد يوجد البتة؛

كلّ حبي، الذي هو شيء تافه؛ كل ممتلكاتي الدنيوية، التي هي شيء لا وجود له عملياً باستثناء بندقيتي صيد جيدتين، وبذلاتي العسكرية، والمداليات والأوسمة مع الإشارات بالبساطة وبعض الكتب. وراتب كولونيل متقاعد أيضاً.

إني أهَبُكِ كل ممتلكاتي الدنيوية، كذلك قال في ذات نفسه.

ولقد أعطتني هي حبها. وبعض الحجارة الصلبة، التي أرجعتُها، والصورة الزيتية. حسناً، إن في ميسوري دائماً أن أرجع الصورة إليها. كان في إمكاني أن أقدِّم إليها خاتمي من V-M.I، كذلك فكر، ولكن أين بحق الجحيم أضعتُ ذلك الخاتم؟

إنها لن تكون في حاجة إلى وسام «صليب الخدمة الممتازة» (D.S.C) مع نموذجه المعدني أو إلى مداليات وطنها. لا، ولا إلى مداليات فرنسة أو مداليات بلجيكة. أو المداليات الزائفة. إذ لو احتاجت إليها لدل ذلك على انحراف عقلي.

من الخير لي أن أهبَها حبي ليس غير. ولكن كيف تستطيع، بحق الجحيم، أن تبعث به إليها؟ وكيف تبقيه غضاً طرياً؟ إنهم لا يستطيعون أن يرزموه بجليد جاف.

لعلهم يستطيعون. يتعين عليّ أن أستطلع، ولكن أنّى أجيء بمحرك الـ«جيب» اللعين ذاك الذي وعدتُ به ذلك الرجل العجوز؟

حُلَّ عُقدة هذا، كذلك قال في ذات نفسه لقد كان حَل عُقد الأشياء هو صناعتك. ثم أضاف حلُّ عُقد الأشياء حين كان العدو يطلق النار عليك.

كنت أتمنى لو كان مع ابن العاهرة ذاك الذي يُقلّي صيد البط غدارة. وعندئذ كان في إمكاننا أن نكتشف على جناح السرعة أيّنا يستطيع حل عقدة الأشياء حتى في برميل حقير في أرض سبخة حيث لا يقوى المرء على المناورة. سوف يكون عليه أن يقترب لكي يصيبني بناره.

كُفَّ عن هذا، كذلك قال في ذات نفسه، وفكِّر في فتاتك. أنت لا تريد أن تقتل أيما امرئ بعد اليوم. البتة.

لمن تلمِّح بهذا، كذلك خاطب نفسه. هل تريد أن ترشح نفسك كمسيحي؟ في استطاعتك أن تقوم في هذه السبيل بمحاولة أمينة. وخليقٌ بفتاتك أن تحبك أكثر لو سلكت هذه الخطة. ولكن هل أنت واثق من ذلك؟ لست أدري، هكذا قال في صراحة. أنا أقسم بالله إني لا أدري.

لعلك سوف تصبح مسيحياً في خاتمة المطاف. أجل، كذلك قال، لعلك أن تصبح مسيحياً. من ذا الذي يريد أن يراهن على ذلك؟

ـ «أتريدين أن تراهني على ذلك» كذلك سأل البطة الخادعة. ولكنها كانت رافعة بصرها إلى السماء، خلفهُ، وكانت قد استهلت الصفير المُقَوْقي.

وأقبلت أسراب البط محلقة أكثر مما ينبغي، ولم تحوِّم البتة. لقد اكتفت بأن خفضت أبصارها وواصلت اندفاعها نحو البحر..

لا ريب في أنها تنجو بنفسها إلى هناك، كذلك فكر الكولونيل. لعل قانصاً في زورق مسطح القعر يحاول الآن أن يصوب إليها النار خلسة. ولسوف تكون محجوبة عن الريح، حين تهبّ، وليس من شك في أن شخصاً ما يصوب الآن إليها النار خلسة. حسناً، وعندما يطلق ذلك الشخص طلقاته سيرتد بعضها عائداً من هنا. ولكن ما دام الجليد مُهَيمناً فأحسب أن عليّ أن أنصرف بدلاً من أن أمكث هنا مثل رجل معتوه.

لقد قتلتُ عدداً منها كافياً، ولقد رميت أحسن ما أستطيع الرماية أو أحسن مما أستطيع الرماية. إلى الجحيم بـ«أحسن» الثانية هذه. إن أحداً لا يرمي أحسن منك، هنا، ما عدا آلفاريتو، وهو شاب ويطلق النار في سرعة أعظم. ولكنك تصيد عدداً من البط أقل مما يصيده كثير من الرماة الأردياء وغير البارعين.

أجل، أنا أدري ذلك، وأدري لماذا، ونحن لم نعد مجرد جنود ذوي أرقام، ولقد اطّرحنا الكتاب أيضاً، هل تتذكر؟

لقد تذكّر كيف شاءت معجزة من معجزات الحظ في الحرب أن يكون مع أحب أصدقائه إليه، في ساحة المعركة في «الآردين» Ardennes وكانا يطاردان العدوّ.

«كان ذلك في أوائل الخريف، فوق مرتفع من الأرض شامخ ذي طرق وشعاب[1]، وكانت الأشجار صفصافاً قصيراً وصنوبراً. وكانت آثار دبابات العدوّ وعجلات سياراته تبدو جلية في الرمل النديّ.

كان المطر قد هطل في اليوم السابق، ولكن السماء كانت الآن قد أخذت تصفو، وكانت الرؤية حسنة، وكان في استطاعتك أن ترى جيداً عبر الريف السامق المتموِّج كله، وكان هو وصديقه يستكشفان أرجاءه بمنظاريهما في دقة بالغة وكأنهما منهمكان في صيد من الصيد.

كان الكولونيل، الذي كان آنذاك جنرالاً ومساعد قائد لفرقة عسكرية، يعرف الآثار الفردية لكل عربة مقطورة من العربات التي كانوا يقتفونها.

وقد عرف أيضاً متى خرجت العربات العدوة من حقول الألغام وعدد الطلقات الجماعية التي بقيت لها تقريباً. وكان قد تصور أيضاً أين تعيّن عليهم أن يقاتلوا قبل أن يبلغوا خط زيغفريد. كان واثقاً من أنهم لن يقاتلوا في أي من هذين الموقعَيْن، ولكنهم سوف ينطلقون إلى طِيَّتهم[2] في سرعة جنونية.

وقال لصديقه الأعزّ: «لقد أوغلنا في التقدم بأكثر مما يليق بأمثالنا من أصحاب الرتب العسكرية العليا، يا جورج.»

---

(1) جمع شعب، بكسر الشين، وهو الطريق في الجبل.

(2) طية المرء: المكان الذي يقصد إليه.

ـ «لقد تخطَّينا الحد، أيها الجنرال.»

ـ «لا بأس» كذلك كان الكولونيل قد أجابه. «والآن سوف نطرح الكتاب ونطارد العدو إلى الأبد.»

فقال صديقه الأعز: «ليس في ميسوري أن أوافق على شيء أكثر من موافقتي على هذا. لأني وضعت الكتاب بنفسي ولكن لنفرض أنهم تركوا شيئاً هناك؟»

وأشار إلى موطن الدفاع المنطقي.

وكان الكولونيل قد قال: «إنهم لم يتركوا أيما شيء هناك. فلم يبق لديهم ذخيرة كافية حتى للقتال بالأسلحة النارية.»

ـ «كل امرئ يظل على صواب حتى يثبت خطأه،» كذلك قال صديقه الأعز، ثم أضاف: «أيها الجنرال.»

فقال الكولونيل: «أنا على صواب.» وكان هو على صواب، أيضاً برغم أنه في حصوله على معرفته المضبوطة لم يحقق الروح الكاملة لميثاق جنيف الذي زُعِم أنه يهيمن على عملية الحرب.

وكان صديقه الأعز قد قال: «فلنطاردهم مطاردة حقيقية.»

ـ «ليس ثمة ما يعوقنا البتة، وأنا أقول لك بأنهم لن يتوقفوا في أي من ذينك الموقعَيْن. أنا لم أفز بذلك من أي جندي نمساوي أيضاً. هذا من بنات أفكاري.»

وسرّح طرفه في الريف، وسمع حفيف الريح خَلَل الأشجار، واستروح نبات الخلنج تحت حذاءيهما العسكريين، وألقى نظرة أخرى على آثار العجلات في الرمل النّدي، وكان هذا هو خاتمة تلك القصة.

ليت شعري، هل ستحب ريناتا ذلك، كذلك قال في ما بينه وبين نفسه. لا، إنه يظهرني أمامها بمظهر الألمعية، أكثر مما ينبغي. ومع ذلك، فمن الخير أن أكلف شخصاً آخر رواية ذلك على مسمعيها

وتعزيز اعتباري لديها. إن جورج هو الشخص الوحيد الذي كان في إمكانه أن يرويه لها ولكنه لا يستطيع ذلك. أنا واثق، ثقتي من الجحيم، إنه لا يستطيع ذلك.

لقد كنت على جادة الصواب أكثر من خمسة وتسعين بالمئة من الوقت، وهذه نسبة من الإصابة عالية إلى حد جهنمي حتى في شيء هين كالحرب. ولكن تلك الخمسة بالمئة التي هي نسبة الخطأ تستطيع من غير ريب أن تكون شيئاً.

أنا لن أحدثك أبد الدهر عن ذلك، يا بنيتي. إنها مجرد ضجة مسموعة خلف المسرح في قلبي. قلبي الدجاجيّ الحقير. إن ذلك القلب النغل لم يستطع أن يجاري خطواتي.

ومن يدري، فلعله أن يستطيع، كذلك قال في ذات نفسه، وأخذ قرصين من تلك الأقراص وجرعة من الـ«جن»، ونظر عبر الجليد الرمادي.

إني سوف أدعو، الآن، تلك الشخصية المتجهمة إلى الاقتراب من الشاطئ وجمع أدوات الصيد، وسأمضي إلى البيت الريفي أو إلى الكوخ، كما أحسب أن عليّ أن أسميه. لقد انتهى القنص.

[42]

وكان الكولونيل قد أوعز إلى المراكبيّ بالتقدم إلى الشاطئ بأن نهض واقفاً في البرميل الغائر، مطلقاً عيارين ناريين نحو السماء الخالية، ثم ملوِّحاً له بيده نحو الحجاب الواقي.

وأقبل المركب وئيداً، كاسراً الجليد طوال الطريق. وجمع الرجل الطيور الخشبية الخادعة، وأمسك بالبطة الداعية، ووضعها في كيسها، والكلب ينزلق على الجليد، ثم جمع البط المقتنَص. كان غضب المراكبي قد خمد في ما يبدو، وحل محله ارتياحٌ حقيقي.

وقال للكولونيل: «لقد اصطدتَ عدداً قليلاً جداً»

ـ «بمساعدتك.»

كان ذلك كل ما قالاه، ووضع المراكبي البطات في عناية، وصدورها إلى أعلى، فوق مقدم الزورق. وناوله الكولونيل بنادقه وصندوق الخرطوش ومقعد القنص فوضعهما في الزورق.

ودخل الكولونيل الزورق، واستلم المراكبي الحجاب الواقي، وفكَّ الأداة المُجَيَّبة الشبيهة بالمئزر والمدلاة في داخل الحجاب الواقي لحمل القذائف. ثم إنه دخل الزورق أيضاً، وشرعا يبتعدان عن الشاطئ في بطء وجهد، مجتازَيْن الجليد إلى مياه القناة السمراء الجارية. وجذّف الكولونيل بمثل النشاط الذي جذّف به حين أقبلا للقنص. ولكنهما عملا معاً الآن ـ في أشعة الشمس الساطعة، وجبال

الثلج إلى شمالهما، وخطُّ نبات الحلفاء الذي يميز القناة أمامهما ـ في تناغم كامل.

ثم إنهما انتهيا إلى القناة، مبتعدين على نحو متكسرٍ عن بقية الجليد الباقية. وفجأة غمرها الضياء، ودفع الكولونيل المجذاف الكبير إلى المراكبي، وقعد والعرق يتصبَّب من جسمه.

الكلب، الذي كان يرتعد عند قدمي الكولونيل، اتخذ سبيله فوق حافة المركب متشبِّثاً بها ببراثنه حَذَر السقوط، وسبح إلى ضفة القناة. ثم إنه نفض الماء عن سترته البيضاء المتسخة، واندفع نحو أجمة نبات الحَلفاء الأسمر، وراقب الكولونيل تقدمه إلى موطنه من خلال حركة الأجمة. إنه لم يتناول نقانقه البتة.

وإذ استشعر الكولونيل العرق يتصبب من جسده، برغم إدراكه أنه كان في نجوة من الريح بفضل سترته العسكرية، فقد تناول من العلبة قرصين اثنين، وأخذ رشفة «جن» من قارورته.

كانت القارورة مسطحة ذات كساء فضي وغطاء من جلد. وتحت الغطاء الجلدي، الذي كان بالياً وملطخاً، نُقِشت في جانبٍ ما، هذه الكلمات: «إلى ريتشارد من ريناتا، مع الحب». إن أحداً لم يرَ هذا النقش قط غير الفتاة، والكولونيل، والرجل الذي نقشه. والقارورة لم تُنقَش حيث اشتريت. لقد كان هذا في الأيام الأولى، كذلك فكر الكولونيل. أما الآن فمن يبالي؟

وفي أعلى سدادة القارورة اللولبية نُقِش: «من ر. إلى ر.س.»

وقدم الكولونيل القارورة إلى المراكبي الذي نظر إليه، وإلى القارورة، وقال: «ما هذا؟»

ـ «غرابًّا انكليزية.»

ـ «سوف أجرِّبها.»

وأخذ منها جرعة طويلة؛ ذلك النوع من الجرعة التي تعوَّد الفلاحون أخذه من قارورات الخمر.

ـ «شكراً.»

ـ «هل وُفِّقت إلى صيد سمين؟»

ـ «لقد اقتنصت أربع بطات. ووجد الكلب ثلاث بطات تصيَّدها أناس آخرون.»

ـ «لماذا أطلقت النار؟»

ـ «أنا آسف لإطلاقي النار. لقد فعلت ذلك في ثورة غضب.»

لقد فعلت أنا ذلك في بعض الأحيان، هكذا قال الكولونيل في ذات نفسه. ولم يسأله علام كان غضبه.

ـ «يؤسفني أنها لم تطرْ على نحو أفضل.»

فقال الكولونيل: «تلك هي الطريقة التي تجري بها الأشياء.»

وكان الكولونيل يراقب الحركة التي قام بها الكلب في العشب العالي ونبات الحَلفاء. وفجأة لمحه يتوقف؛ لقد جمد في مكانه لا يريم. ثم إنه وثب. كانت وثبةً عالية، وغوصَةً إلى أمام وإلى أدنى.

وقال للمراكبي: «لقد عثر على بطة جريح.»

وناداه المراكبي: «بوبي! إيتِ بها، إيتِ بها!»

وتحرَّك نبات الحلفاء، وانقلب الكلب عائداً وبين فكَّيه ذكرُ بطّ بري وكان عنقه الأبيض الرمادي ورأسه الأخضر يترنحان عُلواً وسفلاً كما يتحرك ثعبان من الثعابين. لقد كانت حركة من غير أمل.

واندفع المراكبي بزورقه نحو الشاطئ اندفاعاً قوياً.

ـ «سوف آخذه أنا» كذلك قال الكولونيل. ثم أضاف: «بوبي!»

وأخذ ذكر البط من بين فكَّيْ الكلب الممسكَيْنِ به في غير إحكام فألقاه سليماً لم يُمَس، ورفعه بإحدى يديه فوجده وسيماً بهيّ الطلعة، وقد راح قلبه يخفق وبدا اليأس على عينيه الأسيرتين.

ونظر الكولونيل إليه في حنان، ملاطفاً إياه كما يلاطف المرء جواداً.

وقال: «إنه مصاب في جناحه ليس غير. سوف نحتفظ به لنستعين به على صيد أمثاله أو لنطلق سراحه في الربيع. هيّا، خذه وضعه في الكيس مع البطة.»

وأخذه المراكبي في رفق ووضعه في الكيس الخيشيّ تحت مقدَّم السفينة. وسمع الكولونيل البطة تتحدث إليه. أو لعلها كانت تحتج، كذلك قال في ذات نفسه. إنه لم يستطع أن يفهم حديث البط من خلال كيس خيشي.

ـ «خذ جرعة من هذا» كذلك قال للمراكبي. «إنه يوم قارس إلى حد لعين.»

وتناول المراكبي القارورة، وأخذ جرعة أخرى طويلة.

وقال: «أشكرك. إن هذه الغرابا جيدة جداً، جداً.»

[43]

وعند المهبط، أمام البيت الحجري الطويل المنخفض القائم على ضفة القناة، كان البط ملقىً على الأرض في صفوف منظمة.

لقد رُصِف مجموعاتٍ غير متكافئة. وكان ثمة عدد قليل جداً من الفصائل، ولم يكن سراباً البتة، أما أنا ـ كذلك قال الكولونيل في ما بينه وبين نفسه ـ فلا أكاد أملك شرذمة صغيرة.

وكان كبير حرس الصيد واقفاً على الضفة بحذائه العالي الساق، وسترته القصيرة، وقبعته العتيقة المردودة إلى الوراء، ولقد ألقى نظرة ناقدة على عدد البطات التي كانت فوق مقدَّم المركب فيما هما يتقدمان في محاذاة الشاطئ.

قال الكولونيل: «كان الجليد غالباً على موقعنا.»

وقال كبير الحرس: «لقد قدَّرت ذلك. أنا آسف. لقد ظُنَّ أنه أفضل المواقع.»

ـ «من كان مجلّياً في القنص؟»

ـ «لقد قَنَص البارون اثنتين وأربعين. كان ثمة تيار ضعيف هناك أبقى المياه جارية فترة من الزمن. ولعلك لم تسمع إطلاق الرصاص لأنه كان مضاداً للريح.»

ـ «وأين أفراد الجماعة؟»

ـ «لقد مضَوا جميعاً ما خلا البارون الذي ينتظر عودتك. إن سائقك نائم في البيت الريفي.»

فقال الكولونيل: «لست أستغرب ذلك.»

ـ «أُنشر هذه نشراً حسناً،» كذلك قال كبير الحرس للمراكبي الذي كان هو أيضاً حارس صيد. «أريد أن أذكرها في سجل القنص.»

ـ «هناك ذكر بط أخضر الرأس في الكيس. وهو غير مصاب إلا في جناحه.»

ـ «حسن، سوف أعنى به عناية جيدة.»

ـ «سوف أدخل وأرى البارون ثم سأراك في ما بعد.»

فقال كبير الحرس: «يتعين عليك أن تدفئ نفسك. لقد كان نهاراً قارساً جداً، يا زعيمي.»

واتخذ الكولونيل سبيله إلى باب البيت الريفي.

وقال للمراكبي: «سوف أراك في ما بعد.»

فقال المراكبي: «نعم، يا زعيمي.»

* * *

كان ألفاريتو، البارون، واقفاً على مقربة من نار المستوقد المكشوفة في وسط الحجرة. فابتسم ابتسامة الخجول وقال في صوته ذي الطبقة الخفيضة:

ـ «أنا آسف لأنك لم توفَّق إلى صيد أفضل.»

ـ «لقد استبد بنا الصقيع استبداداً كاملاً. وعلى أية حال فقد استمتعت إلى حد بعيد.»

ـ «هل تستشعر برداً شديداً؟»

ـ «ليس أكثر مما ينبغي.»

ـ «في ميسورنا أن نَطعَمَ شيئاً ما.»

ـ «شكراً. أنا لست جائعاً. هل أكلت؟»

ـ «نعم. لقد مضى الآخرون ولقد تركتهم يأخذون سيارتي. هل

تستطيع أن تنقلني بسيارتك إلى لاتيزانا أو إلى ما وراءها بقليل؟ إن في استطاعتي أن أجد هناك وسيلة من وسائل المواصلات.»

ـ «من غير ريب.»

ـ «كان من العار أن يغلب الصقيع على موقعك. فقد كانت الآمال كبيرة في أن توفق إلى صيد سمين.»

ـ «لا بد أنه كان ثمة في الخارج عالم من البط كامل.»

ـ «نعم. ولكن أسراب البط هذه لن تلبث بعدُ وقد أصاب الصقيع طعامها. إنها سوف تكون الليلة في سبيلها إلى الجنوب.»

ـ «هل ستذهب كلها؟»

ـ «ستذهب كلها. ما عدا بطّنا المحلي الذي يتوالد هنا. إنها سوف تلبث ما دامت هناك مياه غير متجمدة.»

ـ «أنا آسف لإخفاق رحلة القنص.»

ـ «وأنا آسف لأن تكون قد قطعت هذه المسافة كلها من أجل هذا العدد الضئيل من البط.»

فقال الكولونيل: «أنا أحب القنص دائماً. وأحب مدينة البندقية.»

وأشاح البارون ألفاريتو بوجهه وبسط يديه نحو النار. وقال: «أجل. نحن كلنا نحب البندقية. ولعلك تحبها أكثر منا جميعاً.»

ولم يسترسل الكولونيل في الحديث عن هذه النقطة، بل قال: «أنا أحب البندقية كما تعلم.»

فقال البارون: «أجل، أعلم.» ولم ينظر إلى أيما شيء. ثم أضاف: يتعيَّن علينا أن نوقظ سائقك.»

ـ «هل أكل؟»

ـ «لقد أكل ونام، وأكل ونام. ولقد قرأ بضع صفحات من بعض المجلات المصوَّرة التي حملها معه.»

فقال الكولونيل: «بعض المجلات الهزلية المصورة.»

فقال البارون: «يتعين عليّ أن أروض نفسي على مطالعتها.» وابتسم ابتسامته الحيية القاتمة. «هل تستطيع أن تأتيني ببعضها من تريستا؟»

فأجابه الكولونيل: «أيّ مقدار منها تشاء. ابتداء من تلك التي تصوّر الإنسان الأمثل إلى تلك التي تصوّر كل ما هو متعذر التصديق. طالعها بالنيابة عني. اسمع، يا ألفاريتو، ما خطْب مراقب الصيد ذاك الذي جذَّف مركبي؟ لقد بدا وكأنه يكنّ لي بعض الحقد، منذ البدء.. وخلال الرحلة كلها أيضاً.»

ـ «مردّ ذلك إلى السترة العسكرية القديمة. إن بزة الحلفاء تثيره على هذا النحو.»

ـ «تابع.»

ـ «حين أقبل المغاربة إلى هنا اغتصبوا زوجته وابنته.»

فقال الكولونيل: «من الخير لي أن آخذ جرعة.»

ـ «هناك شيء من الغرابا على المائدة.»

[44]

كانا قد أنزلا البارون من السيارة في دارة ذات بوابة ضخمة، ومجاز معبَّد، وبيت شاء حسن حظه ـ إذ كان على مبعدة ستة أميال أو يزيد عن أيما هدف عسكري ـ أن ينجو من قذف القنابل.

وكان الكولونيل قد قال كلمة الوداع، وكان ألفاريتو قد دعاه إلى الوفود عليه والاستمتاع بالقنص في أيما «ويك أند»[1] يشاء، أو في كل «ويك أند.»

ـ «أواثق أنت من أنك لن تعرِّج علينا الآن؟»

ـ «لا، يتعين عليّ أن أرجع إلى تريستا. هل لك أن تحمل حبي إلى ريناتا؟»

ـ «سوف أفعل. هل هذا الذي لفَفتهُ في مؤخرة السيارة صورتها الزيتية؟»

ـ «نعم.»

ـ «سأقول لها إنك وُفِّقت إلى صيد سمين وأن الصورة الزيتية في حال جيدة.»

ـ «وحبي أيضاً.»

ـ «وحبك أيضاً.»

---

(1) نهاية الأسبوع.

ـ «وداعاً Ciao، يا ألفاريتو، وأشكرك شكراً جزيلاً.»

ـ «Ciao، يا زعيمي. إذا كان في إمكان المرء أن يقول ciao لكولونيل.»

ـ «لا تعتبرني كولونيلاً.»

ـ «ذلك عسير جداً. إلى اللقاء، يا زعيمي.»

ـ «في حال حصل طارئ غير مرتقب هل لك أن تسألها أن تسترد الصورة الزيتية من فندق غريتي؟»

ـ «نعم يا زعيمي.»

ـ «هذا كل ما هنالك في ما أحسب.»

ـ «إلى اللقاء، يا زعيمي.»

[45]

كانا قد أمسيا على الطريق، الآن، وكان الغسق قد أخذ يهبط.

وقال الكولونيل: «إنعطف يساراً.»

فقال جاكسون: «هذه ليست الطريق المفضِية إلى تريبستا، يا سيدي.»

ـ «إلى الجحيم بالطريق المُفضية إلى تريبستا، لقد أمرتك بأن تنعطف يساراً. هل تحسب أن هناك طريقاً واحدة، في العالم، للذهاب إلى تريبستا؟»

ـ «لا، يا سيدي. كل ما أردته هو أن ألفت نظر الكولونيل إلى...»

ـ «لا تلفت نظري إلى شيء لعين. وريثما أصدر إليك أمراً مغايراً لا تخاطبني إلا إذا خاطبتك.»

ـ «نعم، يا سيدي»

ـ «أنا آسف، يا جاكسون. ما أعنيه هو أني أعرف إلى أين أنا ذاهب، وإني أريد أن أفكر.»

ـ «نعم يا سيدي.»

كانا الآن ينطلقان في الطريق القديمة التي عرفها جيداً، وقال الكولونيل في ذات نفسه: حسناً، سوف أبعث بأربع من البطات التي وعدتُ بها إلى من وعدتهم بها في فندق غريتي. إن الصيد لم يكن

غزيراً بحيث يتوفر لزوجة ذلك الغلام قذر من الريش تستطيع أن تفيد منه. ولكنها كلها ضخمة وسمينة، ولا ريب في أن القوم سيجدون في أكلها متعة بالغة. لقد نسيت أن أقدّم النقانق إلى «بوبي».

ولم يكن لديه متسع من الوقت لكتابة مذكرة إلى ريناتا. ولكن ما الذي أستطيع أن أقوله، في مذكرة، مما لم نَقُله مشافهة؟

ومد يده إلى جيبه، فوجد إضمامة ورق وقلماً. وأضاء المصباح الخاص بقراءة الخرائط؛ وبيده المعطوبة راح يكتب رسالة صغيرة بحروف كبيرة منفصلة.

- «ضع هذه في جيبك، يا جاكسون، واعمل وَفقَها عند الضرورة. وإذا ما حدثت الظروف الموصوفة فيها يصبح ذلك واجب التنفيذ».

فقال جاكسون: «نعم، يا سيدي.» وبإحدى يديه أخذ الأمر المطويَّ ووضعه في جيب سترته العلوي الأيسر.

والآن هوِّن عليك، كذلك قال الكولونيل في ذات نفسه. إن كل همٍّ إضافي قد يستبد بك سوف تكون أنت مِحوَره، وهذا مجرد ترف.

أنت لم تعُدْ ذا غناء لجيش الولايات المتحدة. لقد أُوضِحَ لك ذلك إيضاحاً لا لبس فيه.

ولقد قلت كلمة الوداع لفتاتك، ولقد قالت لك هي كلمة الوداع.

وهذا بسيط من غير ريب.

لقد أجدت القنص، وألفاريتو يفهم. هذا واضح.

وإذن، فأي شيء بحق الجحيم يتعين عليك أن تقلق من أجله، أيها الغلام؟ أنا أرجو أن لا تكون مثل أولئك الأغرار الذين يقلقون لما قد يصيبهم حين لا يكون في اليد حيلة. فلنرجُ ذلك حقاً.

وفي تلك اللحظة بالذات ألمّت به النوبة، وكان على مثل اليقين من أنها سوف تفعل، منذ أن جَمَعا البطات الخشبية الخادعة.

إن ثلاث نوبات قلبية لقادرة على وضع حد لحياة الإنسان. ولقد منحوني أربعاً. لقد كنت دائماً ابن عاهرة محظوظاً.»

وألمّت به من جديد عنيفة قاسية.

وقال: «جاكسون، هل تعلم ما قاله الجنرال توماس ج. جاكسون في إحدى المناسبات؟.. في مناسبة موته المنكود: لقد حفظته عن ظهر قلب ذات يوم. أنا لا أستطيع أن أتحمل مسؤولية دقة ذلك القول، طبعاً، ولكنهم يروونه على هذه الصورة: «مُروا أ. ب. هيل بالاستعداد للمعركة.» وتلا ذلك هذيان إضافي. ثم قال: «لا، لا، دعونا نعبر النهر ونرقد في ظل الأشجار.»

فقال جاكسون: «هذا جدّ طريف، يا سيدي. ولا بد أن يكون ستونوول جاكسون[1] هو صاحب ذلك القول، يا سيدي.»

وشرع الكولونيل يتكلم، ولكنه أمسك عن ذلك بينا إصابته النوبة للمرة الثالثة، واستبدت به استبداداً عرف معه أنه لن يستطيع الحياة بعد.

وقال الكولونيل: «جاكسون. انعطِف إلى جانب الطريق وأنِر أضواءك الخاصة بالوقوف. هل تعرف الطريق إلى تريستا من هنا؟»

ـ «نعم، يا سيدي، عندي خريطتي.»

ـ «حسن. سوف أمضي الآن إلى المقعد الخلفي الواسع من هذه السيارة اللعينة، المترفة، الضخمة إلى حد التطرف.»

وكانت هذه الكلمات هي آخر ما قاله الكولونيل في حياته. ولكنه بلغ المقعد الخلفي في غير مشقة وأوصد الباب. لقد أوصده في عناية وإحكام.

---

(1) توماس جوناثان Thomas jonathan المعروف بستونوول جاكسون Stonewoll jackson (1824 ـ 1863) وكان قائداً أميركياً اتحادياً في الحرب الأهلية الأميركية. (المعرب).

وبعد فترة، قاد جاكسون السيارة هابطاً الخندق والطريق المكتَنَفة من جانبيها بشجرات الصفصاف، وقد أنار أضواء السيارة الكبيرة، وأنشأ يبحث عن مكان ينعطف عنده. وأخيراً اهتدى إلى مكان، فانعطف في أناة. حتى إذا أمسى على الجانب الأيمن من الطريق، منعطفاً جنوباً نحو ملتقى الطرق الخليق به أن يُبلِغه الطريق العامة المفضية إلى تريبستا، تلك الطريق التي كان يألفها، أضاء مصباح الخرائط وأخرج الأمر المطويّ من جيبه وقرأ:

«في حال وفاتي تعاد الصورة الزيتية الملفوفة وبندقيتي
«الرشّ التي في السيارة إلى فندق غريتي، البندقية،
«حيث ستطالب بها مالكتها الشرعية:
«التوقيع: ريتشارد كانتْوِيل، كولونيل، سلاح
«المشاة، الولايات الأميركية المتحدة».

ـ «إنهم سوف يعيدونها، على أحسن وجه، من طريق بعض القنوات.» كذلك قال جاكسون في ذات نفسه، وأطلق العنان للسيارة.

(انتهت)

أرنست همنغواي

عبر النهر ونحو الأشجار...

بعد قصة الحب العاصفة التي كتبها هنغواي في "وداع للسلاح"، يكتب في هذه الرواية قصة حب هادئة، حنونة مليئة بالأحاسيس، قويّة، لكنها تسير الهوينا، إنهما حبيبان يريدان عيش هذا الحب الذي يعرف كل منهما أنه ربما لن يكمل مساره عبر الحياة. لكن لا يهم. المهم عيش هذا الحب بكل حلاوته بكل ساعاته، عيشه بالروح وبطريقة تناول الطعام، والنزهة...

عيش كل منهما لحياة الأخر، وابتعاده في الوقت نفسه عنها حتى لا يصبح ثقيل الوطأة.

كعادته، فإن همنغواي يقدم عبر عمله الروائي الكثير من الآراء في الحياة، في المجتمع، في الحرب، ومن خلال قصة حب بين كولونيل وفتاة أرستقراطية تصغره بكثير يرسم تفاصيل هذين العالمين.

01106 روايات عالمية 978-9953-63-327-5

9 789953 633275 5

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - مقابل ثكنة الحلو - بناية فرنسبنك
هاتف: 306666 1 961+ فاكس: 701657 1 961+
ص.ب: 1085 - بيروت: 2045 8402 - لبنان
www.malayin.com malayin@malayin.com